الرجل
الذى باع رأسه

د . يوسف عز الدين عيسى

الرجل الذى باع رأسه

(رواية)

دار المعارف

تصميم الغلاف : شريفة أبو سيف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل القاهرة ج . م . ع .

١

أدار مفتاح بابِ غرفَتِهِ التى يعيشُ فيها فوقَ سطح العمارة . ودخل وفى يده حبل جديد اشتراه فى ذلك اليوم . كان رأسه فى تلك اللحظة كأنه مرجل يغلى . الغرفة مظلمة . لم يشاهد الشاب شيئاً من محتوياتها عندما دخلها ، إذ لم تكن عيناه قد تكيفتا للظلام بعد دخوله من السطح الذى تغمره شمس مايو . فتح النافذة الوحيدة فأضاءت الشمس الغرفة وبدت لعينيه محتوياتها التى لم يطرأ عليها أى تغيير منذ سنوات . كنبة بلدى ينام عليها وكرسى واحد من الخشب الرخيص ومنضدة صغيرة .

جلس الشابُّ على الكرسى ووضعَ يَده على المنضدةِ ، ثم استند برأسه على يده . لقد اتخذ قراراً خطيراً .

كل شىء سينتهى اليوم . سأضع حدًّا لهذا العذاب . المسألة لن تستغرق سوى بضع ثوان . هذا الحبل سيريحنى من العذاب . سأثبته فى سقف الغرفة وأصعد فوق الكرسى وألف الحبل حول عنقى ، ثم أدفع الكرسى بقدمى . وفى مثل لمح البصر

سينتهى كل شىء وينتهى معه عذابى فى هذه الدنيا . لم أعد قادراً على الاستمرار فى الحياة . أنا أعيش فى غابة مملوءة بالوحوش . الناس كالوحوش . كل إنسان لا يهتم إلا بنفسه . لا أحد يعطف على أحد . لو متُّ جوعاً فلن يشعُر بى أىُّ إنسانٍ . سأموت كما يموت الكلب الضال . إن لم أُنْهِ حياتى بيدى فى هذه اللحظة فسوف أموت جوعاً . وإذا متُّ من الجوع فسأموت وأنا شاعر بالموت ، ولكن لو أنهيتُ حياتى فلن أشعر بالموت . سينتهى كل شىء فى مثل لمح البصر . ترى من الذى سيكتشف جثتى وهى مدلاة من الحبل ؟ يكتشفها من يكتشفها ، هذا شىء لا يهمنى ، سأكونُ قد غادرتُ الدنيا .

ثم تناول الحبل وصعد فوق الكرسى . وأخذ يثبت الحبل فى سقف الغرفة .

لابد من تثبيت الحبل جيداً حتى لا يفلت من السقف قبل أن أموت فتكون مأساة سخيفة . أنا لا أريد أن أعيد الكرة . مرة واحدة تكفى . ها هو ذا الحبل متين لأنه جديد ، اشتريتُه بكل ما بقى معى من نقُودٍ . الرجل الذى اشتريتُه منه لم يكن يتصور أننى اشتريته لأشنق به نفسى . لا يوجد أناس كثيرون يشترون الحبال ليشنقوا أنفسهم بها . المجرم المحكوم عليه بالإعدام شنقاً يكون خائفاً وهو مسوق إلى حبل المشنقة . ولكننى لست خائفاً . أنا فرحان . شىء أهون من شىء . الذى يجبرك على تجرع المرّ شىء أمرُّ منه . سأضع حدًّا لعذابى . ما فائدة الحياة إذا كانت عذاباً فى عذاب ؟ تكفى خمسة وعشرون عاماً على ظهر هذه الدنيا ، خمسة وعشرون عاماً حافلة بالفشل والألم والعذاب . الدنيا كالمرأة . من يتزوجها ينبغى أن يكون قادراً على نفقاتها . أنا غير قادر على هذه التكاليف ، ولذا فسأطلق الدّنيا . أنتِ طالقٌ بالثلاثِ يادُنيا . طالقٌ بالثلاث ، طلاقٌ بائنٌ . لقد حُرمت علىّ الدنيا . الكرسى

ثابت تحت قدميّ .

كان رمزى فى هذه اللحظة واقفا فوق الكرسى وقد أدخل رأسه فى الحلقة التى صنعها فى الحبل مديراً ظهره لبابِ الغرفة كما أدارَ ظَهرَهُ للدنيا . وقال بصوت مسموع :

– اغفر لى يارب . أنتَ أَدْرَى بعذابى وأنتَ غفورٌ رحيم . أنتَ تعلَمُ يارَبِّى أنّى لم أتناول طعاماً منذ يومين ولا يوجد فى هذه الدنيا من يعطف علىّ .

وبينما هو يهمّ بقذف الكرسى بقدمه شعر بيدين تحتضنانه بقوة وتعلقانه فى الفضاء حتى لا يسقط جسده فيطبق الحبل على عنقه . وسمع صوتاً يقول :

– أنا سأعطفُ عليك . اثبت فى مكانك . إياك أن تتحرك .

التفت الشابُّ إلى الخلف فى فزع ، فرأى رجلا طويل القامة نحيلَ الجسد ، لم يرَه من قبل . امتدت إحدى يدى هذا الرجل إلى عروة الحبل فأخرج منها رأس الشاب بينما ظلت اليد الأخرى مطبقة عليه ترفعه إلى ما فوق مستوى الكرسى . فنظر إليه الشاب غاضباً وقال :

منْ أنتَ ؟

فأجاب الرجل فى هدوء :

– أحد جيرانك .

– وما الذى أحضرك هنا فى هذه اللحظة ؟

– جئت لأنقذ حياتك . رأيتك من النافذة وأنت تُثبِّت الحبل فى سقف الغرفة وفهمت ما أنت عازم عليه .

فقال الشاب بدهشة :

- رأيتنى من النافذة ؟

أجل . إن نافذة منزلى تطل على نافذة غرفتك . أنا أسكن فى المنزل المقابل لمنزلك . فى المرة التالية إذا أردت أن تشنق نفسك فينبغى أن تغلقَ النافِذَةَ !

- ولكنى لم أطلب منك الحضور لإنقاذ حياتى .

فأجاب الرجل بهدوء :

- هناك أشياء كثيرة ينبغى أن يفعلها الإنسان من تلقاء نفسه دون أن يُطلَبَ منه ذلك .

وامتدت يد ذلك الرجل الغريب إلى الشاب وسحبه من يده قائلا :

- تعال . تعال نجلس هنا على الكنبة .

وجلسا معاً على الكنبة . فالتفت الشاب إلى الرجل الغريب قائلا :

- حياتى ملكى ، وأنا حر التصرف فيها .

فقال الرجل الغريب :

كلا ، لست حر التصرف فى حياتك . وجودك فى الحياة ذو علاقة بالمجتمع الذى تعيش فيه . ولاحق لك فى التصرف فى حياتك وكأنك الإنسان الوحيد فى الدنيا .

فاختلجت عضلات وجه الشاب ووضع رأسه بين يديه وأجهش بالبكاء ، وقال :

- أنا إنسان وحيد فى الدنيا . لا أحد يهمه أمرى أو يحزن لموتى .

نظر إليه الرجل الغريب برهةً ثم ابتسم قائلاً :

لقد أسأتَ الظنَّ بالناس . أنا مثلا . اهتممت وأسرعت إليك لأنقذ حياتَكَ

على الرغم من عدم وجود أية علاقة تربطنا ، حتى اسمك لا أعرفه ، ولم يسبق لى التشرف بمعرفتك .

– معرفتى لا تشرِّف أىَّ إنسانٍ . من الذى يتشرفُ بمعرفة إنسانٍ بائسٍ فقير جوعان أحقر من النملة التى تدوسها الأقدام دون أن تشعر بوجودها ؟

–ما اسم الكريم ؟

– رمزى .

فقال الغريب وهو لا يزال واضعاً يده حول كتفى الشاب :

– قل لى يا رمزى ، ألا تجد منْ تشكو له أحزانَك ؟

– لا . . أنا وحيدٌ فى الدنيا .

– من الذى يسكن الغرفة التى بجوار غرفتك ؟

– ذكر بط !

– هل تمتلك ذكرَ البطِّ هذا ؟

– لو كنت أمتلكُ ذكرَ بطٍّ لما فكرتُ فى شنق نفسى .

– ومن الذى يمتلكه ؟

– أحدُ السكان .

– ألم تفكر وأنت جوعان لهذه الدرجة أن تستولى على ذكر البط هذا وتتصرف فيه ؟

– لم تخطر هذه الفكرة على بالى مطلقا ، لست لصًّا .

– إذنْ فأنت شابٌّ أمينٌ ، والأمانَةُ من أشرفِ الصِّفاتِ . والناسُ يشرِّفُها معرفةُ إنسانٍ فقيرٍ أمينٍ أكثر مما يشرفها التعرف على لص غنى .

وسادتْ فترةُ صمتٍ قطعها الرجلُ الغريبُ قائلا :

هل من الممكن أن أعرفَ السببَ الحقيقيَّ الذى دفعكَ لمحاولةِ الانتحار ؟

فأطرق رمزى إلى الأرض وقال بمرارة :

– الفشل . . أنا إنسان فاشل . فشلت فى كل شىء . بائس ، حقير ، أنا أحقر من الدودة ، إذ قد يكون للدودة فائدة ، أما أنا فلا فائدة ترجى منى . والإنسان الذى لا فائدة منه يتعذر عليه الحصول على لقمة العيش . لماذا يعيش إنسانٌ تافه مثلى ويقاسى من هموم الحياة ؟ لقد فشلت فى كل شىء ، حتى الانتحار فشلت فيه كما رأيت ، كان ينبغى أن أغلق النافذة .

– أنت لم تفشل فى الانتحار . أنا الذى أسرعت لإنقاذك . لو لم أنقذك لتم انتحارُكَ على أحسن وجه ! قد يعتقد الإنسانُ أنه فاشل لأن فُرص النجاحِ لم تُتَحْ له .

فأسند رمزى رأسه بيديه وانخرط من جديد فى بكاءٍ عنيف ، وعندما هدأت موجة البكاء التى اجتاحته التفت إلى الرجل الغريب وقال فى مرارة ويأس :

– لقد فشلتُ فى كلِّ عمل قُمتُ به .

– وما هو آخر عمل قمتَ به ؟

– حلاق .

– وكيف فشلت فى هذا العمل ؟

فحاول رمزى الابتسامَ ولكنّ الابتسامةَ ماتتْ على شفتيْهِ وقال :

قطعت أذن أحد الزبائن بالموسى !

فبـدت الدهشة على وجه الرجلِ الغريبِ وقال :

– قطعتَ أُذُنَ أحدِ الزبائنِ ؟ وكيف حدث ذلك ؟

– كنت ممسكاً بالموسى أحلق للزبون الشعر الذى بجوار الأذن ، وفى هذه اللحظة التعسة سمعت فرقعة بجوار المحل فاهتزت يدى وقطعت أذن الزبون . كانت الفرقعة صادرة عن (بمبة) صغيرة فرقعها طفل يلهو بجوار المحل ، وكانت النتيجة أن طردَنِى صاحبُ المحل ، وانتشر الخبر فلم أستطع العمل بعد ذلك .

فأطرق الرجُلُ الغريبُ برهةً ثم قال :

اسمع يا رمزى . فشَلُكَ فى مثل هذه الأعمال لا يدل على أنك إنسان فاشل .

فنظر إليه رمزى بدهشة وقال :

– وعلام يدُلُّ إذنْ ؟ على النبوغ ؟ على العبقرية ؟

– قد تكون لديك موهبة لم تتح لها الفرصة لتظهرَ وَتُكْتَشَفَ .

قال رمزى بسخرية :

– موهبة ؟ ! وما هى هذه الموهبة ؟

كان على أرض الغرفة بعض نوى البلح متناثرةً لم يحركها أحدٌ من مكانها منذ بضعة أيام . فنظر إليها الرجل الغريب وقال :

– انظر ، أترى نواة البلح هذه الملقاة على أرض الغرفة ؟

– نواة بلحة ؟ ! وما علاقة نواة البلحة بالموضوع ؟

– هذه النواة الملقاة فوق أرضِ غرفتِكَ ننظر إليها الآن كشىء حقيرٍ تافهٍ ، ندوسها بأقدامنا دون أن نشعر بوجودها ، ولكن لو منحناها الفرصة وغرسناها فى تربة صالحة فسوف تنمو وتزدهر وتصبح نخلة باسقة تثمر البلحَ اللذيذَ الطَّعْمِ ويراها الناس من بعيدٍ شامخةَ الارتفاع رافعةً رأسَها للسماء فى زهو واعتداد .

فتململ رمزى فى جلسته ونظر إلى الرجل الغريب وقد نفد صبره وقال :

– هل أتيت لتضيع وقتى بمثل هذا الهذيان عن النوى والبلح وتعطلنى عن شنق نفسى ؟ ما علاقة النواة بإنسان بائس مثلى ؟ وهل أنا نواة بلحة ؟ !

فقال الرجل الغريب بهدوء :

– أليس من الممكن أن تكونَ لديك حاسّةٌ من الحواسِّ قويّة ، كحاسّة السمع أو حاسّة اللّمس يمكنك استخدامها بمهارة فى عمل من الأعمال النافعة ؟ أو موهبة كالموهبة الموسيقية مثلا ، ولكن ظروف حياتك لم تسمح لك باكتشافها ؟

قال رمزى فى يأس :

– أرِحْ نفسكَ . لا فائدَة تُرْجى منّى . لم يمنحنى اللهُ أيَّةَ موهِبَةٍ من أىّ نوْعٍ على الإطلاق . أنا أدرى بنفسى .

فنظر إليه الرجلُ الغريبُ بطرفِ عينهِ وقال :

– سأُخبرك بشىءٍ لم يخطر على بالِكَ . وقد تتعجبُ له أشدَّ العجبِ .

فنظر إليه رمزى باهتمام وقال :

– وما هو هذا الشىء ؟

قال الرجلُ الغريبُ :

– ما رأيك فى أنَّكَ مُوسِيقِىٌّ موهوبٌ دون أنْ تدرى ؟

فحاول رمزى أن يَبْتَسمَ للمرةِ الثانيةِ ولكنّ الابتسامةَ ماتتْ على شفتيْهِ فى هذه المرّةِ أيضاً ، ثم قال ساخراً :

– وكيفَ عرفتَ ذلك ؟ أنا لم أرَكَ فى حياتى إلا فى هَذِه اللّحظَةِ السّعِيدَةِ !

فأطرق الرجل الغريب للأرض وثبّت نظرَهُ على نواةِ البلحة مسترجعاً فى

ذاكرته أنغاماً موسيقية سبقَ أنِ التقطَتْها أذناهُ وقال :

– أنا أَسْكُنُ فى هذه العمارة التى أمامَ منزِلِكَ منذُ أكثَرَ مِنْ عامٍ ، ومنذُ ذلك الحين وأنا أَسمَعُك تعزِف على النّاى كلّ ليلة قبل أن أنام ، تعزف أنغاماً حَزِينةً ولكنها جميلةٌ ، قد لا أكونُ مبالغاً إذا قلت لك إنها أجملُ أنغامٍ سمعتُها فى حَياتى . كنت أنتظِرُ سماعَها كلَّ ليلة فى شوقٍ ولَهْفَةٍ ، وأَشْعُرُ بلذةٍ لا تعادِلُها لذّةٌ وأنا أنصتُ إليها . أرأيت كيف كنت سبباً فى إسعاد إنسان لم تره عيناك دون أن تدرى ؟ والموسيقى التى تؤثر فى النفس هذا التأثير العميق لابد أن يكونَ مبعثُها موهبةً أَصِيلةً دفِينةً ، لهذا السبب أسرعتُ بالمجىء إليكَ لأحول بينكَ وبيْنَ الانتحارِ ، لأنى أعرِفُ قدرَكَ وأقدّرُ موهِبَتَكَ التى أسعَدَتْنِى ليالِىَ عديدة .

وصمتَ الرجلُ الغريبُ فترةً من الزمَنِ ثم التفت إلى رمزى وقال :

– أنتَ بطبيعةِ الحالِ محتاجٌ إلى فلوس لتُصْقِلَ موهِبَتَك ويشعر بها أكبر عدَدٍ منَ النّاسِ . كلُّ شىء فى الدنيا يحْتاجُ لِفلُوسٍ . الفقرُ يحجبُ مواهبَ كثيرةً . أنا على أتمِّ استعدَادٍ لإعطائك هذِهِ الفُلُوس .

فقال رمزى بدهشة :

– تُعطِينى فلوساً ؟ !

– أجل . أنا رجُلٌ غنى والحمدُ لله . ربحْتُ من التِّجارَةِ أَموالاً طائلَةً ، ومستعدٌّ لإعطائِكَ ما أنتَ فى حاجَةٍ إلَيْهِ مِنَ المالِ .

فقالَ رمزى وهوَ غَيْرُ مصدِّقٍ لما تَسْمعه أُذُناهُ :

– وهلْ ستُعْطِينى هَذِهِ النقُودَ لوجْهِ الله ؟

قَالَ الرّجُلُ الغرِيبُ مبتسماً :

- كلا . لا أحدَ يُبْعَثُ نقودَهُ لوجْهِ الله . لديْكَ شيءٌ ثَمينٌ أرغَبُ فى شرائِهِ

فابتسَمَ رَمْزِى ابتسامَةً يظلّلُها اليأسُ وقال :

- أنا لا أمْتلكُ أىّ شىءٍ ذى قيمةٍ ، هَا هِى غرفَتِى أمامَكَ وفِيها جَميعُ ممتلكاتى ، وهى كما ترى أشياء تافهةٌ عَدِيمةُ القيمة لا تساوى شيئاً .

فقال الرجلُ الغريبُ بلهجة تنِمّ عن الصِّدْق :

- كلا . يُوجَدُ شىءٌ فى هذِهِ الغرْفةِ عظِيمُ القيمَةِ فى نظَرِى .

فقالَ رمْزِى فى دَهْشَةٍ :

- هُنا ؟ فى غُرفَتِى ؟

قال الرجُلُ الغريبُ مؤكِّداً :

- نعَم . هنا فى غُرفتِكَ شىءٌ ثمينٌ . غالى الثّمن !

قال رمزى فى سخريةٍ :

وما هو هذا الشىءُ ياتُرَى ؟

- فنَظَر إليه الرجلُ الغريبُ نظرةً طويلةً ثم قال :

- رأسُكَ ! هلْ تقْبل أن تَبيعَ لى رأسَكَ ؟

فضحكَ رَمْزِى فى مرارةٍ وقد خاب ظنُّه بعد أنْ لاح لهُ بريقٌ من الأمل وقال :

- أبيعُ لك رأسى ؟ كان من الممكنِ أن تنتظرَ دقيقةً واحدةً بعد أنْ أَشْنُقَ نفْسى وتأخُذَ جثتى بأكملها بلا ثَمنٍ إذا أردتَ !

فاعتدَلَ الرَّجُلُ الغرِيبُ فى جلستِهِ ونظَر إلى رأْسِ رمزِى ذِى الشَّعَرِ الأشعَث كمَنْ يفحَصُهُ ثُم قال :

- أنا لا أَهْزِلُ بلْ أنا جادٌّ فى طلبى هل تقْبل أن تبيعَ لى رأْسَك ؟ !

فقال رمزى ساخراً وقد اعتقد أن الرجلَ الجالس بجواره لابدَّ وأن يكونَ مختل العقل :

– وماذا سأصْنَعُ بالفلُوسِ يا أُستاذ بعدَ أن أصْبحَ بلا رأْسٍ ؟ !

– أنت لا تفْهَمُنى ؟

– والله ما أنا فاهِمٌ أىّ شىء . هلْ أتيْتَ لتسْخَرَ منِّى وأنا فى هَذِهِ المِحْنَةِ ؟ هل أنا فى حالة تسمح لى بالإنصاتِ إلى مثلِ هذا الهذَيَانِ ؟ حقيقةً لا يشعرُ بالنارِ إلا مَنْ يَضَع يَدَهُ فيها ، ومن يَدهُ فى الماء ليسَ كمن يَدهُ فى النارِ . حرامٌ عليكم يا ناس ، اتركونى فى حالى ، أنا مسكين بائس .

وتهدج صوت رمزى وهو ينطقُ بهذه الكلماتِ وكان على وشك البكاء فأحاط الرجلُ الغريبُ كتفيه بيده وقال :

– سأبْرْهِنُ لك الآن على أنّنى لم أحضر لأسْخَرَ مِنكَ أو أستهزئ بك ، وكلُّ ما أريدُهُ مِنْكَ هو موافقتك على هذا العَرْضِ . هل تقبل أن تبيعَنى رأسَكَ ؟

فقال رمزى وقد بدا الفزَعُ فى عَينيْهِ :

– هل تريد أن تقْطعَ رَأسِى وتأخُذَهُ ؟ !

فضَحِك الرجُلُ الغريبُ وقال :

– لقد حضرْتُ لأنقِذَ حَياتَك لا لِأَسلُبَك الحَيَاةَ ، ستظلُّ محتفظاً برأْسك مدى حياتك على سبيل الإعارة ! أى أنّنى سأشْتَرِيهِ وأتركه فى مَوْضِعِهِ فوق كتفَيْكَ ، سأتركه أمانةً عندك وستصبحُ أنت بمثابَةِ حارسٍ عليْه ! !

فقال رمزى وهو غيرُ مصدِّقٍ لما يسْمَع :

– رأسِى أمانةٌ عندِى ؟ ! والله عال ، وافرْض أنّى وافقْتُ ، بكم تَشْتَرِيهِ ؟

– أشتريه بألفَيْ جُنَيْه !

فضَحِكَ رَمْزِى وقالَ فى سخْرِيَةٍ متحسساً رأسَهُ بيدِه :

– ألفان من الجنيهات ثمناً لهذا الرأس ؟ والله عال ، وهل هذا شىء يصدقه العقل ؟ ماذا تظنّنى يا أستاذ ؟ أنا إنسان فقير ولكننى لست معتوها لأصدق مثل هذا الكلام الفارغ .

– طبعاً لستَ معتوهاً ، لو كنتَ معتوهاً لما اشتريت رأسَك بمليم واحدٍ ، قلت لك إننى جادٌّ فى هذا العرض ، وكما قلت سأبرهن لك على أننى أعنى ما أقول .

فقال رمزى وقد بدأت تستبد به الحيرة ويعصف به القلق :

– هذا جميلٌ ، ولكن ما الذى ستستفيدُهُ أنت من شراء رأس سيظل فى موضعه فوق كِتفَىْ صاحبِه ؟ قلْ لى ، ماذا ستَسْتَفيدُ ؟

– مسألةُ مزاج . أنا حرٌّ فى أموالى أفعلُ بها ما أشاء .

ووضع الرّجُلُ الغريبُ يدَه فى الجيْبِ الدّاخلِى لسُتْرتِهِ وأخْرج دفتراً للشيكات وقال :

– أنا مستعِد فى هذه اللحظة لكتابة شيك بمبلغ الألفى جنيه وتسليمه لك لكى تتأكد من صدق ما أقول . ما اسمك الكامل ؟

– رمزى عبد الحميد .

فأخرج الرجل قلمه الحبر وكتب فى الشيك وهو ينطق كل كلمة :

– ادفعوا لأمر السيد / رمزى عبد الحميد مبلغ ألفين من الجنيهات لا غير ، وها هى إمضائى وها هو التاريخ . ما رأيك الآن ؟ هل تأخذ الشّيكَ وتقبلُ أن تَبيعَ لى رأسَكَ ؟

فنظرَ رمزى إلى الشَّيكِ وهو لا يزالُ فى يَدِ الرجُلِ الْغَرِيبِ واعتقدَ أن الله قد ساقَ إليْه فى هذه اللحظة رجلاً معتوهاً يقبل إعطاءه ألفيْنِ من الجنيهاتِ فى مقابل شىء وهْمىٍّ . فنظر إلى الرجل وقال :

- إذا كانت المسألة فيها ألفان من الجنيهات فلا مانع . لقد قبلت بيع رأسى بهذا المبلغ ! أعطنى الشَّيكَ ، ولكن حذارِ أن يكون بلا رصيد فتدخلَ السجنَ !

ولكنّ الرجُلَ الغريبَ ظلّ قابضاً بيدِهِ على الشَّيكِ ولم يُسَلِّمْه لرمزى وقال :

- ليس الأمرُ بهذِه السُّهولةِ كما تتصوّر .

فتلاشَتْ ابتسامَةٌ كانتْ قد ارتسمتْ على شفتى رمزى وقال للرجل :

- وماذا تريد منى إذن ؟ لقد قبلتُ أنْ أبيعكَ رأسِى على شريطة أن أحتفِظَ به طِوَالَ حَياتى على سَبِيلِ الإعارة كما قلت ، ماذا تريد منى أكثرَ من ذلك ؟

فقال الرجلُ الغريبُ مبتسماً :

- نعم . ولكن رأسكَ يعتبر عقاراً أو أملاكاً سأشتريها بنقُودِى وحُرِّ مالى . ولابدّ قبل أنْ أسَلِّمك ثمنَه أن تذهَبَ معى لتسْجِيلِ مِلْكِيَّتِى لَهُ فى إدارةِ الشَّهرِ العقارى .

فقالَ رمزى بدْهشةٍ :

- أتريد أن تسَجِّل ملكيتك لرأسِى فى الشَّهرِ العقارى ؟

- هذا شىءٌ طبيعى ، إذ كيف أثبت مِلكيتِى لرأسِكَ إن لم أسَجِّل البيْعَ والشِّراءَ فى الشَّهر العَقارِى كأىِّ عقارٍ آخَرَ ؟ !

فازدادَ رَمْزِى اعتقاداً بأنه يتحدَّثُ مع إنسَانٍ مجْنُونٍ وأرادَ أَنْ يجَارِيَه إلى آخر لحظةٍ فقال :

- لا مانعَ لدَىّ ، نذْهَبُ معاً لتسجيلِ البيع والشِّراء فى الشَّهْرِ العقارى !

وقاما معاً ، وفى هذه اللحظة سرت نسمَةٌ من خلال النافِذَةِ جعلَتْ حبْلَ المشنقَةِ يتأرجَحُ . خرجا من الغرفة إلى سطح المنزل ، ثم بدآ يهْبطانِ السّلم ، ورمزى فى شِبْه حلم لا يصَدِّق أنه بعْدَ دقائق معدودةٍ سيصبح مالكاً لألفين من الجنيهات وهو الذى لم يمتلك فى حياته ألفين من الملاليم ! وفى مُقابلِ ماذا ؟ فى مُقابلِ أن يبيعَ رأْسَهُ لذلك الرجُل المجنونِ الذى لم يره ولا يعرف عنه أى شىء . والعجيب أنه سيظل متمتعاً بوجود رأسه فوق كتفيه ، على سبيل الإعارة ، كما يقول ذلك الرجل المعتوه ! وماذا سيستفيد هذا الرجل من رأس تافهة كهذا ؟ رأس فشل فى كل عمل ولم يمتلئ بالعلم والمعرفة ؟ كانت هذه الأفكار تدورُ فى رأس رمزى .

٢

استقلّ الرّجلُ سيارَته وأجنس رمزى بجواره ووصلا إلى مأمورية الشّهْرِ العقارى ، ووقفا أمام الموظفِ المختصِّ وطلب الرجلُ الغريبُ تسجيلَ مِلْكيةِ رأسِ رمزى ! فنظر الموظَّفُ إليهما وقد اتسعت (عيناه) ، وفتح فَمَهُ كفمِ السمكة الميتة ولم يصدق ما سمعه فقال :

– لا مؤاخذَة ، ماذا قلت ؟

فقال الرجلُ الغريبُ وقد وضعَ يدَهُ على رأسِ رمزى :

أريدُ تسجيل ملكيةِ هذا الرأس !

فقال الموظفُ بسخريةٍ وهو لا يزال غيرَ مصدِّقٍ لما سمعه :

– ولماذا تضع يدك على رأسه هكذا ؟ هل تريد أن تأخذ الرأس بوضع اليد ؟ !

وضحك ، فقال الرجل الغريب فى حزم وجدية :

– أرجوك ، لا تضيع وقتنا ، قلت لك إننى أرغب فى تسجيل ملكية رأس هذا الشاب ، هنا فى الشهر العقارى ، أظن أن كلامى واضح ولا غموض فيه .

فضرب الموظف كفًّا بكف وقال فى غضب :

– لستُ أدرى من منا الّذى يضيع وقتَ الآخر . أنتَ يا أستاذ الذى تضيِّعُ وقتى بهذا الهَذَيَانِ .

ثم صاح موجهاً حديثه إلى الناس الذين يملأون المكان :

– تعالوا يا ناس ، تفرجوا ، هذا الرجل يريد تسجيل ملكية رأس هذا الشاب . لى الآن فى هذه الوظيفة واحد وعشرون عاماً ، تنقلت فى خلالها فى جميع أنحاء الدولة ولم تمر بى حالة مثل هذه ، لا يوجد فى تاريخ الشهر العقارى فى البلد من أولها إلى آخرها رأس سجلت ملكيته غير الرأس السوداء ، وهى قطعة الأرض التى بجوار مدينة الإسكندرية . أنا لا أتصور يا عالم كيف يشترى إنسان رأس إنسان آخر ويأتى لتسجيل ملكيته فى الشهر العقارى ! ؟ هل تريدهم أن يرفتونى ويخربوا بيتى على آخر الزمن ؟ !

كان الناسُ قد تجمّعُوا حول هذا المشْهَدِ الغرِيبِ ، بعضُهُم يضْحَكُ ، وبَعْضُهُمُ الآخر لا يبدو عليه أى انفعال ، والبعض يشرئب بعنقه لرؤية ذلك الرأس المباع ! ونظر الرجل الغريبُ إلى الموظف فى هدوء وقال :

– أود أن أسأل حضرتك سؤالا وتجيبنى عنه بكل صراحة .

قال الموظف بصبر نافد :

–تفضل اسأل .

قال الرجل الغريبُ فى هدوء :

– هل يوجد نص فى القانون يمنعنى من شراء رأس أى إنسان ؟ مادمت لن أفصله عن جسده وسأتركه له مدى حياته على سبيل الإعارة ؟ !

فأجاب الموظف :

-- كلا ، لا يوجد نص فى القانون لأن المشرعين للقوانين لم يخطر ببالهم أن شيئاً كهذا يمكن أن يحدث ليضعوا قانوناً بشأنه !

ثم التفت الموظف إلى رمزى الذى كان واقفاً فى هدوء واستسلام وكأن الأمر لا يعنيه وقال له :

- وأنت يا أستاذ ، هل أنت موافقٌ على بَيْعِ رأسِك لهذا الرجُلِ ؟

فأجاب رمزى مبتسماً :

أوافقُ طبعاً ، وإلا لما حضرتُ معه إلى هذا المكانِ . المهمُّ أن أقبضَ ألفيْنِ من الجنيهات بالتمام والكمال ثمناً لرأسى ، وما دمت سأظل محتفظاً برأسى مدى الحياة على سبيل الإعارة كما يقول فلن يضيرنى شىء !

فأطال الموظف النظر إلى رأس رمزى ثم قال :

- وبعد الوفاة ؟ هل اتفقتم على مصير رأسك بعد وفاتك ؟

قال رمزى بعدم اكتراث :

- بعد الوفاة ؟ بعد الوفاة هو حر فيه ، ماذا سأصنع برأسى بعد وفاتى ؟

والتفت الموظف إلى الرجل الغريب فى ذهول وسأله :

- وما الذى أعجبَكَ فى رأسٍ كهذا لتشتريه بهذا المبلغِ الكبيرِ ؟

فقال الرجل الغريب :

- مسألةُ مزاجٍ ، مسألةٌ شخصيةٌ ، ولا أحِبُّ أن يتدخّلَ أحدٌ فى أمورى الشخصية أنا حر فى مالى أتصرف فيه كما أشاء .

فأخذَ الموظفُ يضرِبُ كفًّا بكفٍّ ويقولُ وكأنه يحدّث نفسه :

– رِزقُ الهبل على المجانين . هل يستحق رأسٌ كهذا مبلغ ألفين من الجنيهات ؟ !

ثم التفت إلى الرجل الغريب وقال :

– وما رأيك فى رأسى أنا ؟ بكم تشتريه ؟

فأجاب الرجل الغريب دون أن يبدو عليه أىُّ انفعال :

– رأسُك لا يساوى مليماً واحداً !

فأطال الموظف النظر إليه وقال :

– شىءٌ عجيبٌ !

فقال الرجلُ الغريبُ وقد بدأ يفقد هدوءه :

– تسمح تخلصنا وتسجل العقد ؟ ليس لدى وقت أضيِّعُه ، لدىّ أعمالٌ كثيرة أريد أن أنجزَها .

فانحنى الموظف على مكْتبِهِ وأخرَجَ بَعض الأوراقِ وقال :

– الأمرُ لله . لله فى خَلْقِهِ شئونٌ . نكتب العقدَ .

وتمت إجراءات تسجيل العقد فالتفت رمزى إلى الرجلِ الغريبِ وقال :

– والآن ، هل يمكننى أن أتسلم الشيك أو لا تزال هناك بعض الإجراءات الأخرى ؟

فقال الرجل الغريب :

– كلا ، لا توجد إجراءات أخرى .

وأخرج الشيك من جيبه وسلمه لرمزى قائلا :

ها هُو الشِّيكُ . تفضّلْ . وسأَذهبُ معكَ إلى البنك لتطْمئِنَّ على صَرْفِهِ .

٣

استقلا معا السيارة ووصلا إلى البنك وقدم رمزى الشيكَ إلى الموظف المختص فنظر إليه الموظفُ فى ارتيابٍ عندما رأى ملابِسَهُ الرَّثةَ وقال له :

– لابد من وجودِ شخصٍ معروفٍ لدينا يضمنك لصرف هذا المبلغ .

فتقدم الرجل الغريبُ وضمنه . ولم يصدق رمزى عينيه عندما أخذ موظف البنك يعد الألفَ جنيه . تناول رمزى النقود وهو فى شبهِ ذهولٍ ووضعها فى جيوب بدلته الممزقة .

خرجَ رمزى مِنَ البنك فى صُحْبةِ الرَّجُل الغريبِ ونظرَ إلى الشَّارع وكأنه يراه لأول مرة . لقد أصبح الشارعُ فى نظرهِ جميل المنظر . رأى الأشجار على جانبى الطريق يداعب النسيم أوراقَها ، وشعر بحب لجميع البشرِ ورغبةٍ فى أن يحتضنَهُم ويقبلَهُم . ونظر إلى السماء وكأنه لم ير لونَها الأزرقَ من قبل ، والتفت فإذا بالرجل الغريبِ مازال واقفاً بجواره فأراد أن يودِّعَه وينصرف ، ولكن الرجلَ الغريبَ أمسكَ يده قائلا :

– إلى أين أنتَ ذاهِبٌ ؟

– لستُ أدرى . سأسير فى الشوارع على غير هدى . أشعرُ بالفرح يملأ قلبى ، وهو شعور لم يكن لى عهد به من قبل .

– قبل أن نفترق أود أن أستضيفك فى منزلى ونتناول غداءنا معاً ، ألديك مانع ؟

قال رمزى والفرحة تلمع فى عينيه :

– لا مانع لدى ، ولكن ، لماذا فى منزلك ؟ لماذا لا نذهب إلى مطعم من المطاعم ؟

فأجاب الرجل الغريبُ مبتسماً :

– الطعام فى منزلى ألذ ، والجو أهدأ ، سنكونُ بمفرَدِنا ، ونحنُ جيرانٌ .

٤

وصلا إلى منزل الرجل الغريب . إنه يقيم فى الشقة رقم ١٨ فى المنزل المقابل لمنزل رمزى . أخرج الرجل الغريبُ المفتاح وفتح الباب ودخلا ، ثم أقفل الباب بالمفتاح .

كان ضوء الشمس يملأ البهوَ ، فلقد ترك الرجل الغريبُ النوافذ مفتوحةً إذ لم يتسع الوقت لإغلاقها عندما أسرع لإنقاذ حياة رمزى ، وأخذ رمزى يدير بصره فى أنحاء البهو . فى الوسط توجد منضدة للأكل من الطراز القديم وحولها أربعة كراسى . وعلى يمين الداخل يوجد بوفيه محلى بنقوش بارزة ، وفوق البوفيه سلة بها كمية كبيرة من الموز . وفى الجهة المقابلة للبوفيه توجد نافذة بجوارها كنبة فاخرة وكرسيان من نفس طراز الكنبة . ولكن الشىء الذى روع رمزى وجعله يقف مشدوهاً فاغراً فمه هو ما رآه على جدران البهو ، عددا هائلا من رءوس الحيوانات الثديية معلقاً على هذه الجدران . فى أعلى الجدار خلف البوفيه رأس حيوان من الحيوانات البرية ذو قرنين كبيرين ملتويين ، وبجواره رأس غزال ، وإلى اليسار

رأس زرافة ، وعلى الجدار الآخر ناحية الأريكة يوجد فى الوسط رأس ثور وإلى اليمين رأس وحيد القرن وفى الجهة الأخرى رأس فهد .

سرت فى جسد رمزى قشعريرةٌ وهو يشاهدُ هذا الحشدَ الهائِلَ من رءوس الحيوانات وشعر كأنه فى مقبرة . التفت إليه الرجل الغريبُ وقال :

– تفضل يا أستاذ رمزى ، تفضل اجلس . مالك واقف هكذا ؟

فجلس رمزى على أحد الكراسى وعيناه مازالتا تتأملان هذه الرءوس ، وجلس الرجل الغريب على الكرسى المقابل ، وساد الصمت برهة . قطع الرجل الغريب فترة الصمت قائلا :

– أنا أعيش بمفردى فى هذا المنزل . ما رأيك ؟ أليس الجلوس وتناول الطعام هنا أجمل وأهدأ من تناول الطعام فى أى مطعم من المطاعم العامة ؟

شعر رمزى بمزيد من الخوف عندما علم أن الرجل يعيش بمفرده . نظر إليه والفزع يطل من عينيه وقال :

– ما هذه الأشياء المعلقة على الجدران ؟

فقال الرجل الغريب :

– آه ، هذه ؟ إنها أشياء تضفى على البهو روعة وجمالا حتى لا تبدو الجدران جرداء . هى فى نظرى أفضل من الصور الزيتية . إنها تؤنسنى فى وحدتى !

قال رمزى فى فزع :

– كلها رءوس حيوانات !

فضحك الرجل الغريب وقال :

– نعم ، رءوس محنطة ، أنا حنطتها بنفسى ولكل رأس منها ذكرى من الذكريات .

ووقف ذلك الرجل وكأنه مدرس يشرح درساً لأحد التلاميذ وأخذ يشير إلى الرءوس قائلا :

– هذا رأس فهد اصطدته فى السودان وتعبت كثيراً حتى تمكنت من صيده ، وهذا رأس وحيد القرن كدت أدفع حياتى ثمناً لصيده ، وهذا رأس ثور وحشى ، وهذا رأس . . .

ولم يكمل حديثه إذ قاطعه رمزى قائلا وقد شحب وجهه :

– يبدو أنك مغرم بتحنيط الرءوس !

فجلس الرجل وقال :

– إنها هوايتى المفضلة . . هواية جميلة .

فقال رمزى بخوف :

– أخشى أن تكون عازماً على تحنيط رأسى وتعليقه هنا على الجدار ، بجوار رأس الثور .

فضحك الرجُلُ الغريبُ وترك سؤال رمزى بلا إجابة وقال :

– سأذهب لتحضير الغداء . لا يوجد فى منزلى خدم ، أنا أخدم نفسى . كل شىء موجود عندى فى الثلاجة فلن يستغرق إعداد الطعام سوى دقائق .

واختفى الرجل الغريب داخل المنزل وترك رمزى بمفرده وفى جسده رعشة خوف .

أنا أستحق أن يحنط رأسى ويعلق بجوار رأس الثور فأنا غبى وحمار . ما الذى

جعلنى أدخل منزل رجل كهذا وفى جيبى مئات الجنيهات ؟! أنا لا أعلم شيئاً عن هذا الرجل ، ولابد أنه استدرجنى بهذا المبلغ من المال ليقتلنى ويأخذ رأسى ليحنطه ويستولى فى نفس الوقت على النقود التى أعطاها لى . إنه يهوى تحنيط الرءوس ! لعله يرغب فى إضافة رأس إنسان إلى مجموعة الرءوس المحنطة ليشبع هوايته المرعبة . لقد وقعت فى فخ .

وخطرت لرمزى فكرة الهرب من ذلك المنزل العجيب . فقام بهدوء واتجه نحو الباب ليفتحه وينطلق منه هارباً كما يهرب المحكوم عليه بالإعدام ، ولكنه وجد الباب مغلقاً بالمفتاح ، فأسرعت دقات قلبه .

آه . . لقد وقعت ، إنها جريمة مدبرة . لقد أغلق علىّ الباب بالمفتاح .

وتذكر رمزى أنه منذ فترة قصيرة كان واقفاً على الكرسى فى حجرته واضعاً الحبل حول رقبته للتخلص من الحياة .

على أية حال أنا كنت عازماً على الانتحار ، ولكننى عندما صممت على التخلص من الحياة لم تكن معى هذه النقود . هذه النقود التى فى جيبى منحتنى الرغبة فى الحياة ، وفضلا عن ذلك ، فإننى عندما قررت أن أنهى حياتى بيدى اخترت الطريقة التى تعجبنى ، ولكننى لا أدرى بأية وسيلة سيقتلنى هذا الرجل . كل ما أتمناه أن يقتلنى بدون ألم ، لا داعى لأن أتألم قبل أن أموت .

وفى هذه اللحظة ظهر الرجل الغريب فى البهو وفى يده اليمنى طبق كبير به دجاجتان محمرتان وفى اليد الأخرى طبق آخر به كمية كبيرة من الأرز . وضع الطبقين على المائدة قائلا :

– سأحضر باقى الطعام حالا .

واختفى داخل المنزل . ملأت رائحة الطعام خياشيم رمزى .

يبدو أننى سآكل فعلا ، الموت بعد تناول هذا الطعام اللذيذ أفضل من الموت وأنا جائع . المحكوم عليهم بالإعدام يغذونهم جيدا قبل تنفيذ الحكم .

حاول رمزى أن يمد يده ويتناول بعضِ الطعام الذى لم يقو على مقاومة إغرائه ، ولكنه رأى الرجل الغريب مقبلا وفى إحدى يديه سلة صغيرة بها خبز وفى اليد الأخرى طبق متوسط الحجم به سمك مقلى . وضع الطبقين على المائدة فى صمت ثم اتجه نحو البوفيه وأحضر الموز ووضعه على المائدة ، ثم فتح البوفيه وأحضر بعض الأطباق والشوك والملاعق ووضعها بنظام دقيق على المائدة ، وتذكر أنه نسى إحضار الماء . فهرول داخل المنزل وعاد ومعه دورق من الماء المثلج وأحضر كوبين من الزجاج الفاخر وضعهما على المائدة ونظر إلى رمزى قائلا :

– تفضل يا أستاذ رمزى . أتعشم أن يعجبك طعامى المتواضع .

قام رمزى وجلس على أحد كراسى المائدة وجلس الرجلُ الغريبُ فى الجهة المقابلة . وضع فى طبق رمزى دجاجة بأكملها وأخذ لنفسه ربع دجاجة وبدأ الأكل .

نسى رمزى كل ما حوله من رءوس وكل ما يختلج فى نفسه من خوف وأقبل على الطعام بشهية فالتهم الدجاجة فى بضع دقائق . وعندما انتهى من افتراس الدجاجة التى أمامه التفت إلى الرجل الغريب قائلا :

– سألتك سؤالا لم تجبنى عنه .

فقال الرجلُ الغريبُ وكأنه خالى الذهن :

سؤال ؟ ! وما هو هذا السؤال ؟

– سألتك إذا كان فى نيتك تحنيط رأسى الذى اشتريته وتعليقه هنا مع رءوس الحيوانات هذه . يبدو أنك تهوى جمع الرءوس بجميع أنواعها ولا ينقص مجموعتك سوى رأس بشرى !

فضحك الرجل الغريب طويلا ووضع بعض الأسماك فى طبق رمزى وقال :

– حقيقة أهوى الرءوس ، لكن رأسك أنت يا أستاذ رمزى أغلى عندى وأعز لدى من أى رأس فى الدنيا . ومادمت تعهدت لك رسميا فى وثيقة البيع والشراء بأن تحتفظ برأسك مدى الحياة على سبيل الإعارة فلا داعى لأى خوف أو قلق .

فأطرق رمزى إلى الأرض لحظة مفكراً ثم قال :

– ولكنك لم تخبرنى حتى الآن ما الذى ستستفيده من شراء رأسى مادمت سأظل محتفظاً به فوق كتفىّ مدى الحياة ؟ !

فقال الرجلُ الغريبُ مبتسماً :

– ستعرف كل شىء فى حينه . لكن أحب أن أخبرك أننى طوال حياتى لم أخسر أية صفقة عقدتها ، كنت دائماً الكسبان .

وضحك ضحكة قصيرة ثم قال :

– كل . كل يا أستاذ رمزى . لا تضيع الوقت وأنت فى حاجة إلى تغذية .

فأخذ رمزى يفصص السمكة التى فى يده ويفصل عنها العظم ، ثم قال :

– أنا لا أخفى عنك أننى منذ إتمام هذه الصفقة وأنا دائم التفكير محاولا اكتشاف السبب الذى دفعك لشراء رأس إنسان مسكين مثلى بذلك المبلغ الكبير من المال . لدرجة أن رأسى تصدع من كثرة التفكير .

فقال الرجل الغريب بلهفةٍ وذعرٍ :

– تقول رأسك تصدع ؟ ! لا ، أرجوك . أنا لا أحب أن تفكر فى أى شىء يصدع رأسى . أقصد رأسك . تذكر أن رأسك أصبح ملكى ويهمنى أمره وأنت الآن مجرد حارس عليه ومسئول عن سلامته . أرنى رأسك أتحسسه لأطمئن على أملاكى . أرنى !

وقام الرجل الغريب ومد يده يتحسس رأس رمزى ويمّس عليه ، فشعر رمزى بقشعريرة عندما لمست يد الرجل الغريب رأسه وقال فى غضب :

– يبدو أنك من آن لآخر ستجىء لتطمئن على رأسى ، هذه لن تكون حياة .

قال الرجل الغريب بهدوء :

– لا داعى للغضب يا عزيزى رمزى ، اعذرنى . لكل إنسان الحق فى أن يطمئن على أملاكه .

ثم تغيرت لهجته بغتة ونظر إلى رمزى نظرة جادة كأنه يخترق بها أعماقه وقال له أمراً وقد تجهم وجهه :

– لماذا تنظر إلىّ هكذا ؟ أنظر إلى هذه الناحية .

مشيراً إلى ركن من أركان البهو . فتعجب رمزى من صيغة الأمر ومن لهجة الرجل فى الحديث وقال :

– ولماذا أنظر إلى هذه الناحية ؟ أنا حر أنظر إلى الشىء الذى أرغب فى النظر إليه .

فقال الرجل الغريب غاضباً وقد تقلصت عضلات وجهه :

– حر ؟ ! كلا ، لست حرًّا فى النظر إلى الأشياء كما يحلو لك ، كان هذا فيما مضى ، قبل أن أشترى رأسك ، ولكننى الآن اشتريت رأسك وأصبح ملكى ،

أتفهم معنى كلمة ملكى ؟ منذ اللحظة التى وضعت فيها إمضاءك الكريم على العقد أصبح رأسك ملكى بكل ما فيه . . المخ . . والعيون . . والأنف . . والأسنان . . والأذنان . . وكل شىء فى رأسك أصبح ملكى أنا . وبناء على ذلك ، فمنذ هذه اللحظة أنت مجبر على رؤية الأشياء التى أريد لك أن تراها وتسمع ما آمرك بسماعه ولا تسمع مالا أريد لك أن تسمعه ، وتشم ما أريد لك أن تشمه ، وتفكر فى الأشياء التى أريد لك أن تفكر فيها وبالطريقة التى أراها . وتأكل ما أريد لك أن تأكله . يجب أن يكون هذا مفهوما منذ الآن . كل هذا من ضمن الشروط !

فثارت ثائرة رمزى وألقى بالسمكة التى كانت فى يده فى وجه الرجل الغريب على الرغم من رغبته الشديدة فى أكلها ، وقام غاضباً وهو يردد :

- كلا ، لن أسمح لك بذلك . لم يكن هذا من ضمن الشروط . لو كنت أعلم ذلك لفضلت الانتحار . أنا أفضل الموت على حياة بهذا الوضع البشع .

وأخرج رمزى النقود من جيبه وألقى بها على أرض الغرفة صائحاً :

– ها هى نقودك . سأخرج من هذا المنزل ولا أريد أن أرى وجهك .

فلم يتحرك الرجل الغريب من مكانه وقال بهدوء :

– وإلى أين أنت ذاهب ؟ إلى الفقر والتشرد ؟

فقال رمزى وعضلات وجهه مازالت تختلج من الغضب :

– سأذهب لأشنق نفسى . الحبل لا يزال مثبتاً فى سقف حجرتى وكل شىء جاهز .

فضحك الرجل الغريب وقال :

– لن تستطيع الخروج من منزلى . الباب مقفل بالمفتاح .

فاشتد هياج رمزى وصاح :

- سأصرخ بأعلى صوتى . سأستنجد بالناس . سألقى بنفسى من هذه النافذة لأسقط فى الطريق جثة هامدة لا تستطيع أن تتحكم فيها .

واندفع نحو النافذة ، فأسرع إليه الرجل الغريب وأمسك به بقوة وقال :

- اهدأ يا أستاذ رمزى ، اهدأ ، اجلس ولا تغضب منى ، إنك تسىء إساءة بالغة لرأسى ، أقصد لرأسك ، بهذا الانفعال . لقد كنت أمزح معك .

وجذب رمزى من يده برفق وأجلسه فى المكان الذى كان يحتله ووقف بجواره قائلا :

- حقك علىّ . لا تغضب منى . هات رأسى ، أقصد رأسك ، أقبله .

وانحنى الرجل على رأس رمزى وقبله ثم جلس فى مكانه وقال :

- كنت أمزح معك . هل من المعقول أن أنفّذ مثل هذا الكلام الذى سمعته منى ؟ هل من المعقول أن أكون بهذه القسوة ؟ سأترك لك الحرية الكاملة فى عمل كل ما تريده وسأختفى من حياتك . لن ترى وجهى بعد اليوم .

ثم ابتسم واستطرد قائلا :

- لن ترى وجهى إلا فى الوقت المناسب !

وقام الرجلُ وجمع النقودَ المتناثرةَ على أرض الغرفة وقدمها لرمزى قائلا :

- خذ نقودك يا أستاذ رمزى . أنا لا أريد لرأسك أية أوجاع أو صداع .

فهدأ رمزى ودس النقود فى جيوبه وقال :

- إذا كان الأمر كذلك فلا مانع .

– اكمل أكلك يا أستاذ رمزى ، إذا تغذى الجسم تغذى المخ وتغذى الرأس بأكمله .

استأنف رمزى تناول الطعام ، وبعد فترة التفت إليه الرجل الغريب وقال :

– ولكن كل ما أطلبه منك يا أخ رمزى هو أن تحافظ على رأسى ، أقصد رأسك . لا أحب أن تعمل أى شىء يسبب لرأسك أى ضرر ، إذ أن أى ضرر يصيب رأسك سيعتبر جناية تبديد لأملاك الغير التى أنت حارس عليها .

انتهى رمزى من تناول الطعام وقال :

– والآن ، هل تفتح لى باب منزلك لأخرج ؟

فقام الرجل وأحضر المفتاح وفتح له الباب ، وأسرع رمزى بالخروج وهو لا يصدق أنه نجا من ذلك الرجل إلا بعد أن وجد نفسه فى الشارع مع غيره من البشر ، وفى جيوبه مبلغ الألفى جنيه .

٥

كان أول ما فكر فيه رمزى أن يشترى بدلة جديدة بدلا من تلك البدلة الممزقة التى تحك جسده منذ سنوات عديدة حتى أصبحت عديمة اللون ، فاتجه نحو أحد المحال الفاخرة ليشترى البدلة الجديدة .

كان المحل غاصًا بالجماهير ، بعضهم يفحص البضائع لينتقى ما يود شراءه والبعض يدفع ثمن ما اشتراه . دخل رمزى المحل وهو يشعر بشىء من الخوف والخجل إذ لم يتعود دخول مثل هذه المحال الفاخرة . إنه يبدو وسط هؤلاء الزبائن وكأنه رقعة من الخيش فى ثوب من الحرير . فكر فى الخروج ليذوب فى زحام البشر ، ولكنه تردد ثم اتجه نحو مكان فى المحل معلق فيه عدد هائل من الملابس الجاهزة وأخذ يدير بصره فاحصاً البدل المعلقة ويداه فى جيبى سترته قابضتان على النقود وكأنه يستوحى منها الشجاعة والثقة فى النفس . وأخيراً تقدم إلى البائع الواقف خلف المنضدة الطويلة الممتدة فى ذلك المكان باذلا مجهوداً كبيراً للتغلب على خجله :

– أريد شراء بدلة .

فنظر إليه البائع نظرة فاحصة ثم قال :

– بدلة من أجلك أنت ؟

فقال رمزى وقد أسرعت دقات قلبه وبدأ يشعر من جديد بشىء من الخوف :

– نعم ، من أجلى طبعاً .

– هل وقع اختيارك على بدلة معينة من هذه البدل المعلقة ؟

فأشار رمزى إلى إحدى البدل وقال :

– أريد هذه البدلة .

فاتجه البائع نحو المشاجب وأخرج البدلة التى اختارها رمزى وفحصها ثم قال :

– يبدو أنها على مقاسك ، كأنها فصلت خصيصا لك . هل تود قياسها ؟

– يكفى أن أقيس الجاكتة .

وأسرع يخلع الجاكتة القديمة ، وعندما هم بإلقائها على منضدة البائع أوشكت على السقوط على أرض المحل ، فالتقطها من طرفها الأسفل فأصبحت فى وضع مقلوب ، وفى مثل لمح البصر سقطت من جيوبها مئات الجنيهات وتناثرت على الأرض . فانحنى رمزى يجمعها .

ارتاب البائع فى الأمر عندما لاحظ سقوط هذه الكمية الهائلة من النقود التى يحملها هذا الشاب المهلهل الثياب . اعتقد أنه لص سرق هذا المبلغ . فترك مكانه بينما كان رمزى لا يزال منهمكاً فى جمع نقوده المبعثرة وذهب إلى مدير المحل وأخبره بالأمر ، فقال له المدير :

– حاول أن تشغله بالحديث بعض الوقت ريثما أتصل بالشرطة لمعرفة مصدر

هذه النقود ، إذ ربما نسهم بعملنا هذا فى اكتشاف جريمة سرقة .

وعاد البائع إلى مكانه ليجد رمزى قد ارتدى الجاكتة ووقف يتأملها . فقال له البائع :

– توجد غرفة صغيرة بها مرآة يستحسن الذهاب إليها وقياس البدلة برمتها ، الجاكتة والسروال ، فقياس السروال لا يقل أهمية عن قياس الجاكتة .

فأخذ رمزى الجاكتة القديمة وسروال البدلة الجديدة وذهب إلى المكان الذى أشار إليه البائع . وبعد فترة ذهب إليه البائع فى ذلك المكان وأخذ يتأمله بعد أن ارتدى البدلة الجديدة وقال :

– ينبغى تقصير السروال قليلا وإطالة أكمام الجاكتة بعض الشىء ، من الممكن القيام بهذه التعديلات البسيطة فى ورشة المحل .

وخرج البائع من الغرفة الصغيرة فخلع رمزى البدلة الجديدة وارتدى السروال القديم ودخل البائع فأخذ البدلة الجديدة وخرج من الغرفة قائلا لرمزى :

– لا تقلق . لن يستغرق ذلك أكثر من ربع ساعة .

بعد نحو نصف ساعة قضاها رمزى داخل الغرفة الصغيرة عاد البائع ومعه البدلة ، أعطاها لرمزى قائلا :

– لقد أصبحت الآن مضبوطة تماماً .

وترك رمزى وعاد إلى مكانه . خلع رمزى السروال القديم وارتدى البدلة الجديدة ووقف يتأمل نفسه فى المرآة وأسرع ينقل محتويات جيوب البدلة القديمة إلى بدلته الجديدة ، ثم خرج من الغرفة الضيقة واضعاً البدلة القديمة تحت إبطه . لم يجد البائع فى مكانه ، فوقف ينتظره ، وطال الانتظار . وأخيراً أتى البائع وبصحبته اثنان

من رجال الشرطة . فظنهم رمزى قادمين لشراء بعض الأشياء ، ولكن واحداً منهما تقدم نحو رمزى وطلب منه أن يصحبه إلى مركز الشرطة . فتعجب رمزى وسأل عن السبب فأخبره رجل الشرطة أنه سيعرف كل شىء فيما بعد .

نظر رمزى إلى البائع فى ارتباك ، وشعر بخجل شديد عندما رأى نظرات الزبائن مسددة نحوه . طلب من رجل الشرطة أن يمهله حتى يدفع ثمن البدلة التى اشتراها والتى يرتديها الآن ، فسمح له بذلك .

أخذ رمزى من البائع قسيمة بثمن البدلة وذهب إلى الخزانة لدفع النقود ، وظل رجلا الشرطة ملازمين له فى أثناء تحركه . وعند مكان الدفع دس رمزى يده فى إحدى جيوبه وأخرج ورقة من فئة العشرة جنيهات أعطاها للفتاة الجالسة خلف نافذة الدفع ، وكان الباقى له من مبلغ العشرة جنيهات ستة جنيهات ونصف وضعها فى جيبه ، ثم سحبه أحد رجلى الشرطة من ذراعه وخرج الثلاثة من المحل حيث وجد رمزى إحدى سيارات الشرطة أمام الباب .

طلب أحد رجلى الشرطة من رمزى أن يركب معهما السيارة ، فركب ، وانطلقت السيارة متجهة نحو مركز الشرطة .

٦

فى مركز الشرطة سأله الضابط :

- اسمك ؟

- رمزى عبد الحميد .

- سنك ؟

- خمسة وعشرون عاما .

- ما هو عملك ؟

- لا عمل لى فى الوقت الحاضر .

- لا عمل لك ؟ ! معنى هذا أنك متشرد ، وإذا كان الأمر كذلك فكيف تفسر لنا وجود هذا المبلغ الكبير من المال فى حوزتك ؟

فأطرق رمزى إلى الأرض ولزم الصمت . فصاح رجل الشرطة محتدًّا :

- تكلم . كيف تفسر وجود مئات الجنيهات فى جيوبك ؟

- بعت شيئاً أملكه ، وهذه النقود هى ثمن الشىء الذى بعته .

فنظر إليه الضابط فاحصاً ثم قال له فى سخرية :

– وما هو هذا الشىء الذى كنت تمتلكه وبعته بمئات الجنيهات ؟ هل كنت تمتلك عمارة ؟ !

– كلا . لم أكن أمتلك عمارة ، ولكن رجلا اشترى رأسى بألفين من الجنيهات !

فضحك الضابط ضحكة مفتعلة وقال وهو لا يزال يضحك :

– تقول إن رجلا اشترى رأسك بألفين من الجنيهات ؟

واستغرق فى الضحك ، ثم توقف عن الضحك فجأة ونظر إلى رمزى نظرة قاسية وقال :

– إن لم تعترف بالحقيقة فلدينا من الوسائل ما يمكننا من أن ننتزع منك الاعتراف .

ثم قال ساخراً :

– رجل اشترى رأسه بألفين من الجنيهات ! هل تظن أننا نصدق مثل هذا الكلام الفارغ ؟

قال رمزى وهو يضغط على كل كلمة ينطق بها مؤكداً صحة ما يقول :

– أجل . رجل اشترى رأسى هذا الذى تراه فوق كتفىّ بمبلغ ألفين من الجنيهات . أنا نفسى لم أكن أتصور أن شيئا كهذا ممكن أن يحدث .

وفى هذه الأثناء كان عدد من رجال الشرطة قد اجتذبتهم طرافة الحوار بين رمزى والضابط فأحاطوا برمزى من كل جانب ، وضحك الضابط وقال :

– اشترى رأسك أنت بألفين من الجنيهات ؟ ! العب غيرها . قل لى من أين

حصلت على هذه النقود ؟ من أين سرقتها ؟

قال رمزى وقد بدأ العرق يتصبب منه :

– يا حضرة الضابط أنا صادق فيما أقول . والدليل على ذلك أن عملية البيع والشراء مسجلة فى مكتب الشهر العقارى .

ثم أخرج رمزى ورقة من جيب سترته وسلمها للضابط قائلا :

– ها هى نسخة من عقد البيع والشراء .

اختطف الضابط الورقة من رمزى وأخذ يقرؤها ، فبدت الدهشة على وجهه وقال :

– شىء جميلٌ . جميلٌ جدًّا . وياليته رأسٌ نظيف . شعر أشعث ووجه لم يلمسه الماء منذ أيام . وماذا سيفعل هذا المجنون برأس مثل رأسك القذر هذا ؟

– هذا مالا أعرفه . هذا السؤال يجيب عنه الرجل الذى اشترى رأسى .

– وكيف قبلوا فى الشهر العقارى تسجيل بيع وشراء رأس إنسان ؟

– لم يجدوا فى نصوص القانون ما يمنع ذلك .

– ولكن هذا شىء لم يحدث له مثيل من قبل .

– ها هو ذا قد حدث .

فقال الضابط وكأنه اهتدى إلى فكرة كانت غائبة عنه :

– ومادام الرجل قد اشترى رأسك ودفع آلاف الجنيهات ثمناً له فلماذا لم يأخذه ؟ لماذا تركه لك ؟ كيف يشترى الإنسان شيئاً بآلاف الجنيهات ثم يتركه ؟

– لو أعدت قراءة العقد فستجد به شرطاً هامًّا .

– وما هو هذا الشرط ؟

فأشار رمزى بيده إلى هذا النص قائلا :

– ها هو الشرط . العقد ينص على أن يترك لى رأسى فى موضعه فوق كتفى مدى حياتى ، على سبيل الإعارة . وأنا معين من طرفه حارساً على رأسى !

فأعاد الضابط قراءة صورة العقد وعندما وصل إلى هذا النص العجيب غرق فى الضحك من جديد والتفت إلى رمزى قائلا :

– ولكن كيف قبلت بيع رأسك ؟

– الجائع يا سعادة الضابط يبيع أى شىء ليأكل . إنسان مثلى لا يجد كسرة الخبز . واقف على كرسى واضعاً رأسه داخل عروة الحبل ليشنق نفسه ويرتاح من العذاب . وفى هذه اللحظة القاسية يجد إنساناً فى غرفته . إنساناً معتوها أو مجنوناً سمّه كما تشاء . المهم أن يجد إنساناً يقتحم غرفته ويحول بينه وبين الانتحار ويطلب منه شراء هذا الرأس الذى كان بعد ثوان سيتدلى من المشنقة ، يطلب شراءه بألفى جنيه . ثروة هبطت علىّ من السماء . نعمة لم أكن أحلم بها . فهل أرفض هذه النعمة ؟ الشخص الذى يرفض نعمة الله شخص كافر !

فقال الضابط فى سخرية :

– ومن يشنق نفسه ألا يعد كافراً ؟

ثم نادى الضابط أحد العساكر :

– يا شاويش على .

– أفندم .

خذه وضعه فى الحجز إلى أن نتحرى عن هذا الموضوع .

حاضر يا أفندم .

سحب رمزى من ذراعه وذهب ليضعه فى الحجز . ولكن التحريات أثبتت صحة العقد ، فاستدعاه الضابط وقال له :

- لقد تحرينا واتضح أن أقوالك صحيحة وأنك بكل أسف ، صادق فى كل ما قلته ، تفضل ، مع السلامة . شىء عجيب .

واستطرد قائلا وكأنه يحدث نفسه :

– إذا كان رأس كهذا يباع بألفين من الجنيهات فلا شك أن رأساً مثل رأسى يساوى ملايين الجنيهات . ليت هذا المجنون يشترى رأسى .

وسلم الضابط العقد لرمزى الذى طواه بعناية ووضعه فى جيبه .

كان رمزى على وشك مغادرة باب قسم الشرطة عندما سمع الضابط يناديه قائلا :

– يا رمزى . تعال . نسيت أن أسألك سؤالا .

فوقف رمزى من جديد أمام الضابط ، والبدلة القديمة مازالت ملفوفة تحت إبطه . قال الضابط :

– نسيت أن أسألك ، ماذا ستفعل بهذه النقود ؟

قال رمزى بلا تردد :

– سأتعلم الموسيقى . أنا أحب الموسيقى .

فقال الضابط ولا تزال فى حديثه رنة سخرية :

– طيب يا سيدى ، ربنا يقويك .

٧

« الحرية أثمن شيء فى الوجود ، أغلى من الحياة نفسها » . هكذا حدث رمزى نفسه وهو يغادر قسم البوليس . وأخذ يتحسس رأسه بين آن وآخر وكأنه يطمئن على وجوده فوق كتفيه . وسيطر عليه شعور غريب بأن هذه البدلة القديمة الملفوفة تحت إبطه هى سبب النحس والامتهان الذى صادفه فى حياته ، فألقى بها فى أول خرابة صادفته .

إن الثلاثة جنيهات والنصف التى دفعتها ثمنا للبدلة الجديدة جعلتنى إنساناً يحترمه الجميع وستنفتح أمامى جميع الأبواب بعد أن كنت فى البدلة القديمة البالية شخصاً حقيراً ممتهناً يستريب فيه كل من يراه وتقفل فى وجهه الأبواب ، وتوضع أمامه الحواجز لو حاول ارتياد مطعم محترم أو متجر فاخر . البدلة هى كل شيء ، أما الجسد الذى بداخلها فشيء لا يهم .

كانت هذه الأفكار تدور فى رأس رمزى وهو يسير فى شوارع المدينة الكبيرة المزدحمة الزاخرة بألوان عديدة من البشر . لمح محلا للحلاقة ، فدخل وطلب من

الحلاق أن يغسل له شعره ويقصه ويحلق ذقنه ، وتم له ما أراد ومنح الحلاق عشرين قرشا ، فابتسم الحلاق وانحنى له شاكراً . وظل يدور فى الشوارع على غير هدى . واسترعت انتباهه واجهة أحد متاجر الأثاث الكبرى ، ففكر فى دخول ذلك المتجر لا ليشترى منه شيئاً ولكن لمجرد الشعور بآدميته وبأن أحداً من الناس لن يرتاب فيه فى هذه المرة أو ينظر إليه نظرة ازدراء .

دخل المحل . وفى أحد أركانه رأى غرفة جلوس أنيقة من طراز حديث معروضة للبيع . وفى سرعة «الكمبيوتر» أخذ يقارن بينها وبين الكرسى الحقير فى غرفته التى فوق سطح المنزل والكنبة الجرباء الجرداء المتداعية الملقاة هناك . وجد بطاقة تحمل ثمن هذه الغرفة . أن ثمنها أربعة وعشرون جنيهاً . ففكر فى شرائها على الفور . ولكنه تردد قبل تنفيذ هذه الرغبة .

أين سأضع هذا الأثاث الثمين ؟ من غير المعقول أن أضعه فى تلك الغرفة الممتهنة التى أعيش فيها . إن هذه الخطوة لابد أن يسبقها خطوة أخرى . لابد أن أبحث عن مسكن يتناسب مع مستوى هذا الأثاث الجديد . إننى لن أشترى غرفة جلوس فقط ، بل أنوى شراء غرفة نوم مريحة . لقد تعبت كثيراً فى الحياة وآن لى أن أستريح . والشقة الجديدة التى آمل فى الحصول عليها لابد أن تكون فى مكان هادئ . فى شارع جميل تظلله الأشجار ، ولابد أن تتسع لغرفة الجلوس وغرفة النوم .

وخرج من المحل واستمر فى تجواله . ولاحت له واجهة أحد متاجر الكتب ، واجتذبه منظر الكتب المعروضة خلف زجاج الواجهة ، فوقف يقرأ عناوينها . إنه لم ينل قسطاً وافياً من التعليم وتحركت فى أعماق نفسه رغبة شديدة فى القراءة . إن

الكتب تحوى ثقافة وأفكاراً جميلة لم تسعده الظروف بالاطلاع عليها . فدخل المكتبة ، وأخذ يدير بصره فى أنحائها . وجذب انتباهه كتاب بعنوان «حواء بلا آدم» فأخذ الكتاب وذهب إلى البائع ليدفع ثمنه . فأخذه منه البائع ولفه فى ورقة أنيقة تحمل اسم المكتبة وسلمه له بكل احترام ، فأخذه رمزى ووضعه تحت إبطه وأخرج من جيبه جنيهاً سلمه للبائع ، فأخذه البائع وأعطاه تسعين قرشا . وخرج رمزى من المكتبة . لم يكن قد قرأ سوى عنوان الكتاب واسم مؤلفه «محمود طاهر لاشين» وأخذ يفكر فى ذلك العنوان «حواء بلا آدم» ، ويردد العنوان «حواء بلا آدم» ، إننى آدم بلا حواء ! لم أفكر من قبل فى هذه المسألة . لكل آدم حواء ، وها هو إذا تحت إبطى كتاب بعنوان «حواء بلا آدم» . أتمنى أن أعثر على هذه الحواء التى بلا آدم . إنها روايات . ولكن الروايات تعبر عن الحياة . لابد أن هناك حواء ، بل عديداً من الحواءات بلا آدمين ، كما أن هناك عديداً من الآدمين بلا حواءات . لا أود الرجوع إلى ذلك المسكن الحقير الذى أعيش فيه . ولا أحب أن أعيش قريبا من منزل ذلك الرجل المجنون الذى اشترى رأسى بهذا المبلغ الهائل من المال . أريد الابتعاد عنه فلا أرى وجهه . ولكن الرجل أنقذ حياتى ، وهو سبب بقائى فى هذه اللحظة على قيد الحياة . وهو الذى هيأ لى فرصة الحياة المريحة الرغدة . هو الذى ملأ جيوبى بالمال ، فهو يستحق منى الشكر والعرفان بالجميل ، ولكنه لابد أن يكون معتوهاً غريب الأطوار ، كيف يشترى رأس إنسان لا يعرفه ولا يمت له بأية صلة ويدفع فى مقابل ذلك آلاف الجنيهات ؟ ! لقد فتح لى كنزاً . ربما تكون هبة من الله وهبنى إياها عن طريق هذا الرجل لما قاسيته فى الحياة من مشقة وعذاب . ولكن يوجد معذبون كثيرون وأشقياء غيرى فى الحياة لم تهبط عليهم مثل هذه الثروة ، ربما لأننى

إنسان طيب . ولكن يوجد طيون كثيرون مثلى فى محنة وشقاء .

وبينما هو مستغرق فى التفكير ، تذكر شيئاً رهيباً جعله يجرى بأقصى سرعة ويعبر الشارع غير عابئ بالسيارات المنطلقة التى كادت تدهمه ! لقد تذكر أن جزءاً كبيراً من الألفى جنيه كان قد تركه فى بعض جيوب البدلة القديمة التى ألقى بها فى الخرابة ونسى أن يأخذه قبل التخلص منها !

كان الظلام قد بدأ يهبط وبدأت مصابيح الشوارع تضىء . وظل رمزى يعدو متجهاً نحو الخرابة آملا أن يجد البدلة القديمة فى مكانها خلف السور المتهدم ولم تمتد إليها يد إنسان .

وصل إلى المكان . وأطل من بعيد فوجد البدلة الكاكية لا تزال ملقاة فى نفس المكان الذى ألقاها فيه . ووجد بالقرب منها ثلاثة كلاب وكأنها تحرسها ! ولكنه عندما اقترب منها لالتقاطها والتفتيش فى جيوبها هجم عليه أحد الكلاب ، وعلا نباح الكلاب الثلاثة فتراجع إلى الخلف . وبدأت المارة تتجمع . وأخيراً انقض رمزى على البدلة فاختطفها وانطلق يعدو والكلاب تعدو خلفه . وانضم كلب رابع إلى المظاهرة . ثم بدأت الكلاب تتعارك فيما بينها ، فانتهز رمزى هذه الفرصة واختفى فى أحد الشوارع الجانبية المظلمة وتوقف ليلتقط أنفاسه . ثم استأنف سيره فى بطء وهو ينظر ليتأكد من أن أحداً لا يراه .

وفى مكان خلا من المارة دس يده فى جيوب البدلة القديمة فوجد النقود التى نسيها فى جيب السروال كما هى ، إذ لم يطمع إنسان فى أن يمد يده إلى مثل هذه الملابس القذرة الممزقة . فأخذ النقود ودسها فى جيوب البدلة الجديدة التى يرتديها . وأعاد تفتيش جيوب البدلة القديمة عدة مرات ليتأكد فى هذه المرة أنه لم يترك فيها

مليماً واحداً . وعلى الرغم من ذلك فلقد أحس برغبة فى الاحتفاظ بها . وفسر ما حدث بأن البدلة القديمة حزنت لفراقه بعد تلك السنوات العديدة وعز عليها أن يلقى بها ويستغنى عنها فى أول فرصة بعد عشرة الليالى والأيام فنادته ليعود إليها . ولم يشأ أن يكون أقل وفاء منها فطواها بعناية وحملها تحت إبطه . وفى الطريق اشترى صحيفة لفها حولها .

أين سأجد الشقة الجديدة ؟ توجد مساكن كثيرة خالية . لابد أن أنتقى شقة كتلك التى يعيش فيها الناس المحترمون .

كان فى أثناء تجواله قد وصل إلى شارع جميل هادئ تحف به أشجار البوانسيانا . ووجد لافتة مكتوبا عليها «شقة للإيجار» على باب عمارة رائعة الجمال . فدخل العمارة وسأل عن البواب . ذكر للبواب رغبته فى رؤية الشقة الخالية ، فهبط البواب بضع سلالم وأحضر من مسكنه مصباحاً ووقف بجوار باب المصعد ورمزى بجواره . أخذ رمزى يفحص البواب . إنه نوبى ، بدين ، يرتدى جلباباً نظيفاً ناصع البياض . وهبط المصعد ، فصعدا معا . وتوقف المصعد عند الطابق الخامس ، فغادراه . وفتح البواب باب إحدى الشقق بمفتاح كان فى يده .

كانت الشقة تحمل رقم ١٥ . دخل البواب الشقة الخالية وخلفه رمزى الذى أخذ يتأمل الشقة فى سعادة وإعجاب على ضوء المصباح الذى يحمله البواب . كانت الشقة فاخرة . رأى البهو وثلاث غرف . ثم قاده البواب إلى حمام فاخر به حوض للاستحمام أزرق اللون ، ثم إلى المطبخ ذى الدواليب العديدة . وعرف رمزى من البواب أن إيجار هذه الشقة ستة جنيهات فى الشهر فأبدى موافقته على الإيجار .

قاده البواب بعد ذلك إلى الشقة رقم ١٧ التى يسكنها صاحب المنزل فى الدور السادس ، وتمت كتابة العقد . وسلم رمزى إيجار الشهر الأول لصاحب المنزل الذى التفت إلى رمزى وقال :

شقة مباركة إن شاء الله .

فشكره رمزى وأخذ نسخة من العقد وطواها مرتين ووضعها بعناية فى أحد جيوبه الداخلية . وأعطى البواب ثلاثين قرشا ففرح بها وشكر رمزى قائلا :

– متشكرين يا سعادة البك .

سعادة البك ؟ رنت هذه الجملة فى أذن رمزى كما ترن ألحان سمفونية رائعة . إنه لأول مرة فى حياته يسمع إنسانا يلقبه «بسعادة البك» . وأراد أن يهبط السلم ولكن البواب أسرع قائلا :

– المصعد موجود يا سعادة البك . تفضل .

لثانى مرة فى خلال دقائق يسمع كلمة «يا سعادة البك» . دخل المصعد وخلفه البواب الذى ضغط على أحد الأزرار فهبط المصعد . وصافح رمزى البواب الذى انحنى له باحترام وخرج إلى الطريق من جديد بين زحام البشر .

وخطرت له فكرة العودة إلى غرفته ، ولكنه طرد هذه الفكرة . إنه يريد الابتعاد عن تلك الغرفة أطول مدة ممكنة . وواصل تجواله .

رأى محلا يبيع الآلات الموسيقية . لقد مر فى هذا الطريق مراراً ولكن يخيل إليه كأنه يرى ذلك المحل لأول مرة . توقف أمام المحل ، فوجده حافلا بشتى أنواع الآلات الموسيقية ، فتذكر الناى المسكين الذى كان ينفخ فيه كل ليلة قبل أن ينام فتنبعث منه تلك الأنغام التى أعجب بها ذلك الرجل الغريب الأطوار الذى اشترى

رأسه . وأخذ يتأمل الآلات الموسيقية .

أتمنى أن أشترى كل هذه الآلات . ولكن لا داعى لشرائها كلها . يكفى أن أشترى هذا البيانو الرائع . إن صوت البيانو من الأصوات التى تعجبنى . وهذا العود الأنيق المزخرف ، أتمنى أن أشتريه أيضاً .

دخل المحل ، وسأل عن ثمن البيانو وثمن العود فعلم أن ثمن البيانو أربعون جنيها وثمن العود ثلاثة جنيهات .

لا بأس . أثمان زهيدة بالنسبة للسعادة التى سأشعر بها عند امتلاكها . سأشتريها بمجرد الانتقال إلى الشقة الجديدة . وسأشترى الصالون وحجرة أنيقة للنوم وخزانة أملؤها بالكتب . أنا فى حاجة للثقافة والتعليم والكتب التى هى أداة الثقافة . سأضع البيانو فى ركن البهو . سيبدو البهو جميلا والبيانو فى ركنه . وسأضع الصالون فى البهو . سأحيا حياة جديدة . ما هذه الحياة التافهة التى كنت أحياها ؟ كنت أعيش كالكلب الضال الذى لا مأوى له . سأعيش الآن كإنسان يتمتع بوجوده على سطح هذه الدنيا .

وحانت منه التفاتة نحو قدميه فتعجب كيف نسى أن يشترى حذاء جديداً . إن هذا الحذاء البالى الذى يضع فيه قدميه لا يتناسب مع البدلة الجديدة ، فاشترى حذاء وعدداً من الجوارب .

كان قد تعب من السير على قدميه فجلس فى مقهى ولم يخجل من وضع ساق فوق ساق وقد بدا الحذاء الجديد لامعاً والجورب أنيقاً . ظل فى المقهى إلى ما بعد منتصف الليل ووجد أن العودة إلى غرفته أصبحت لا مفر منها . فقام واتجه نحو منزله شاعراً بخوف لا يدرى سببه . قد يكون مبعثه وجود مئات الجنيهات فى جيبه .

وعندما دخل الشارع الذى يقع فيه منزله تمنى ألا يراه أحد فى الطريق إذ خيل إليه أن كل سكان الشارع يعلمون تفاصيل ما حدث له . لم يصادفه فى أثناء سيره سوى ثلاثة شبان يتحدثون ويضحكون بصوت مرتفع ومروا بجواره دون أن يعيروه أى اهتمام ، وشعر بارتياح عندما وجد أن جميع النوافذ لم يعد ينبعث منها أى ضوء ، فيما عدا نافذة واحدة ، نافذة الرجل الغريب الذى اشترى رأسه كانت لا تزال مضاءة . فأحس بانقباض وتعجب لبقاء هذا الرجل ساهراً حتى هذه الساعة المتأخرة من الليل .

دخل باب العمارة وأخذ يصعد السلم على أطراف أصابعه ولم يصادفه أحد أثناء صعوده حتى بلغ السطح الذى تقع فيه غرفته التى وجد بابها مفتوحا وتذكر أنه لم يغلق الباب عندما غادرها فى الصباح بصحبة الرجل الغريب . وبينما هو يهم بدخول غرفته التفت نحو نافذة الرجل الغريب فوجده مطلا من النافذة ناظراً نحو غرفته ! .

ترى هل ظل الرجل ساهراً منتظراً رجوعى ؟ ولماذا يفعل ذلك ؟

أضاء رمزى مصباح البترول الذى بغرفته وعندما ذهب لإغلاق النافذة التى كانت لا تزال مفتوحة . لاحظ أن النافذة التى كان ينبعث منها الضوء فى منزل الرجل الغريب قد أغلقت وساد الظلام فى جميع أنحاء منزله .

لم يكن رمزى يهتم بإغلاق باب حجرته إذ لم يكن بها ما يخشى عليه من السرقة ولكنه فى بعض الأحيان كان يغلق الباب لأن ذكر البط الذى يسكن الحجرة المجاورة لحجرته كان لا يخلو له التخلص من محتويات أمعائه إلا فوق كتبة رمزى .

فى هذه الليلة اهتم رمزى بإغلاق باب الغرفة والنافذة . وعلى ضوء مصباح

البترول الخافت أخرج النقود من جيوبه ووضعها على المنضدة وأخذ يعدها .

ترى هل أتركها فى جيوب البدلة ؟ أو من الأفضل تخبئتها فى مكان بعيد عن الأنظار ؟

وأخيراً وضعها فى جيوب سترته القديمة وطوى السترة بعناية ووضعها كمخدة لتظل تحت رأسه طوال فترة نومه وأطفأ المصباح وتمدد فوق الكنبة وأغمض عينيه محاولاً النوم . ولكنه لم ينم . شعر بوقع خطوات تصعد السلم فأسرعت دقات قلبه وجلس فوق السترة القديمة مرهفاً السمع . توقفت الخطوات ولم يعد يسمع شيئاً فتمدد من جديد على الكنبة . ومرت فترة طويلة دون أن يسمع شيئاً . وغلبه النوم فنام . وفى نومه رأى مشاهد كثيرة من الأحداث التى مرت به فى هذا اليوم . كانت مشاهد غير مترابطة وغير مرتبة وكأنها فيلم سينمائى ذو مونتاج عشوائى ركّبت أجزاؤه كيفما اتفق . ثم انتفض من نومه جالساً على الكنبة على صوت ضوضاء بالقرب من نافذة غرفته . واتضح له أن سبب هذه الضوضاء مشاجرة نشبت بين عدد من القطط . ثم تذكر أن حبل المشنقة لا يزال معلقاً فى سقف الغرفة فتشاءم من ذلك وفكر فى الصعود على الكرسى لفك الحبل من الخطاف المثبت به . ولكنه عدل عن هذه الفكرة وفضل الانتظار حتى الصباح . وحاول النوم من جديد . وعندما صحا من نومه كانت الشمس تغمر سطح المنزل .

٨

فى خلال أسبوعين كان رمزى قد انتقل إلى شقته الجديدة وانتهى من تأثيثها . وفى أول ليلة قضاها فيها لم يغمض له جفن حتى نحو الثالثة صباحاً . كان يدور فى أنحاء الشقة ويخرج إلى الشرفة يطل منها على المدينة الكبيرة . وخيل إليه كأنه يرى المدينة لأول مرة . ثم آوى إلى فراشه . وأمضى ليلته لأول مرة فى حياته فى فراش مريح فوق سرير أنيق وبجواره كمدينو عليه أباجورة وكتاب « حواء بلا آدم » وعندما صحا من نومه وجد عقارب الساعة الجديدة التى اشتراها تشير إلى الثانية عشرة ظهراً تقريباً .

لقد انتقل من حياة إلى حياة تختلف عن حياته السابقة كل الاختلاف . كما يحدث للفراشة عندما تنتقل من طور اليرقة الدودية الشكل إلى طور الفراشة التى تنطلق بأجنحتها بين الأزهار ترتشف رحيقها .

ذهب إلى المطبخ وأخرج من الثلاجة قطعة من الجبن وبيضتين سلقها وعمل لنفسه فنجانا من الشاى وجلس يتناول إفطاره لأول مرة فى تلك الشقة الجديدة .

وبعد أن انتهى من الأكل جلس فى البهو على أحد الكراسى الأنيقة المريحة ونظر إلى البيانو الموضوع فى الركن وفوقه العود وبجوار العود الناى وهو الشىء الوحيد الذى حرص على إحضاره معه من بين حطام الغرفة التى كان يعيش فيها . لقد اكتشف فى أعماقه حبًّا قويًّا للموسيقى وتمنى أن يصبح موسيقيًّا شهيراً .

قام وجلس على البيانو وأخذ يداعب مفاتيحه فتنبعث من أوتاره أنغام جميلة .

إن حب الموسيقى لا يكفى ، لابد أن أتعلم قواعدها . الموهبة وحدها غير كافية . لكل شىء قواعد وأصول ينبغى تعلمها .

لم يكن يعتنى فيما مضى بحلاقة ذقنه أو رؤية وجهه فى المرآة ، ولكنه فى هذا اليوم ذهب إلى الحمام ووقف أمام المرآة . رأى وجهه وكأنه يكتشف وجوده لأول مرة . أخذ يتأمل منظره وأعجبته ملامح وجهه . إن وجهه وسيم . وهم بحلاقة ذقنه . ولكنه تردد . فكر فى أن يستحم قبل الحلاقة . فملأ حوض الاستحمام بالماء ، وذهب إلى غرفة النوم فأحضر ملابس داخلية جديدة ، وألقى بجسده فى حوض الماء ، وهزته النشوة فانطلق يغنى ، وأخذ صوته يرتفع شيئاً فشيئاً . واكتشف شيئاً جديداً لم يدر كيف غاب عنه طوال هذه السنين التى عاشها على ظهر الدنيا . إن صوته جميل . لقد أعجبه صوته .

لما فرغ من الاستحمام ارتدى ملابسه ووقف أمام المرآة يصفف شعره ثم أخذ يحلق ذقنه وفى هذه اللحظة قفزت فى رأسه فكرة غريبة أشعرته بشىء من القلق . إنه يخشى أن يكون قد نفذ عملية الشنق ، وأنه مات ، وهذه الحياة التى يحياها الآن . فى العالم الآخر ! لكنه طرد من ذهنه هذه الفكرة وأخذ يستعرض فى ذاكرته الأحداث القريبة ، عندما ذهب ليشترى الحبل ليشنق نفسه ، وعندما ثبت الحبل

فى سقف الغرفة ، وعندما فوجئ بذلك الرجل الغريب يحتضنه لمنعه من الانتحار ، وعملية شراء رأسه .

وعند ذلك انطلقت منه ضحكة .

رجل يشترى رأسى ؟ إنها مسألة عجيبة . رجل يشترى رأسى ويسجله فى الشهر العقارى ويمنحنى آلاف الجنيهات ثمناً لهذا الرأس ثم يتركه لى فى مكانه ويختفى من حياتى ! هذا الرأس الذى أراه الآن أمامى فى المرآة اشتراه ذلك الرجل . لابد أنه رجل معتوه غريب الأطوار !

وانتهى من حلاقة ذقنه . فارتدى بدلته الجديدة وغادر المنزل . وفكر أين يذهب ؟ شعر برغبة فى الذهاب إلى معهد الموسيقى . وداعبته الآمال .

لابد أن أعمل . النقود التى معى لن تبقى مدى الحياة . سأصبح موسيقيًّا . أنا أحب الموسيقى . ضاعت سنوات عديدة من حياتى سدى .

وعند باب معهد الموسيقى وقف حائراً . هل يدخل ؟ إنه لا يعلم شيئاً عما يدور داخل جدرانه . ولكن توجد بداخله موسيقى . هذا هو الشىء الوحيد الذى يعلمه عنه . ودخل من باب المعهد . وأخذ يدير بصره فى أنحائه . وفى إحدى الحجرات رأى فتاة جالسة وبجوارها رجل فى نحو الخمسين يحتضن عوداً يداعب أوتاره ويغنى ثم يتوقف عن الغناء والفتاة تردد غناءه . لابد أنه ملحن يحفّظ هذه الفتاة لحنا . ورأى رمزى رجلاً يهم بدخول هذه الغرفة فاستوقفه قائلاً :

من فضلك . هل يمكننى مقابلة مدير المعهد ؟

فأشار الرجل نحو غرفة من الغرف وقال :

- هناك - فى هذه الغرفة . الثانية على اليمين .

وقف رمزى على باب الغرفة وتردد قبل الدخول ، ثم تشجع ودخل ، فوجد الغرفة خالية . فاتجه نحو الغرفة التى شاهد فيها الفتاة والملحن . كان الملحن مازال يردد بعض مقاطع الأغنية والفتاة تعيد غناءها ، ولما رآه هذا الرجل توقف عن الغناء ونظر إليه وقال :

– هل تبحث عن أحد ؟

قال رمزى :

– كنت أرغب فى مقابلة المدير ولكنى وجدت غرفته خالية .

فاتكأ الرجل على العود وقال :

– ولماذا تود مقابلة المدير ؟

– أريد أن أتعلم الموسيقى .

فضحك الرجل ، وشعر رمزى بشىء من الضيق لهذه الضحكة وخيل إليه أنها ضحكة سخرية . قال الرجل :

– أنا أعلمك قواعد الموسيقى إذا كنت جادًّا فى هذه الرغبة .

فشعر رمزى بالفرحة تسرى فى جسده كما تسرى الكهرباء وكان على وشك أن يقول شيئاً ، ولكن الرجل سبقه فى الحديث إذ قال :

– اجلس . استرح . سأتفرغ لك بعد لحظات .

جلس رمزى وأخذ يتأمل محتويات الغرفة . كان أثاثها من الطراز العربى . عدد من الكراسى وأريكة تتسع لثلاثة أشخاص فى مثل حجمه . كانت الفتاة جالسة على الأريكة والرجل على كرسى يعمل مع الأريكة زاوية منفرجة . واستمر الرجل فى الغناء والفتاة تردد ما يقول ، ويلفت انتباهها بين حين وآخر إلى بعض الأخطاء

فيعود لترديد الجملة من جديد ويطلب منها غناءها .

استمرت هذه العملية نحو ساعة ، وأخيراً قال الرجل للفتاة :

– يكفى هذا اليوم ، ونتقابل غداً فى الساعة الرابعه بعد الظهر .

غادرت الفتاة المكان . ووضع الرجل العود على الأريكة والتفت إلى رمزى وقال :

– تقول إنك تريد أن تتعلم أصول الموسيقى ؟

– هذه أمنيتى .

فى هذه اللحظة أطل من باب الغرفة وجه رجل ما إن رآه رمزى حتى شحب لونه وأسرعت دقات قلبه . كان هذا وجه الرجل الغريب الذى اشترى رأسه . التقت عيناه بعينى رمزى . ولكنه أسرع بالتراجع والاختفاء .

كان رمزى قد نسى كل شىء عن هذا الرجل . لقد ترك الغرفة القريبة من مسكنه وابتعد حتى لا يرى وجهه . شعر بالضيق عندما رآه ، ولا يدرى ما الذى أتى به هنا فى معهد الموسيقى فى هذه اللحظة . وقفزت فى ذهنه أفكار عديدة قطعها الملحن عندما قال له :

– ألديك إلمام بالعزف على أية آلة موسيقية ؟

فقال رمزى مضطرباً :

– لم أجرب . ولكننى أستطيع عزف أنغام لا بأس بها بالناى .

قال الملحن وقد بدا شارد الذهن :

– الناى ؟

– نعم . الناى .

– لا بأس . أريد أن أسمع هذه الأنغام وبعد ذلك أقرر إذا كنت أقبل تعليمك الموسيقى أو لا أقبل . متى تسمعنى أنغامك هذه ؟

– فى أى وقت تشاء إذا شرفتنى فى منزلى .

– فى منزلك ؟ ولماذا لا نتقابل هنا ؟

– أفضل أن يكون ذلك فى منزلى .

– أين تسكن ؟

فذكر له رمزى عنوانه وأخرج الملحن من جيبه نوتة صغيرة دون فيها الاسم والعنوان ثم قال :

– لا مانع . سأحضر إلى منزلك .

– متى أنتظرك ؟

– غداً . العاشرة صباحاً .

خرج رمزى من الغرفة خائفاً يتلفت متوقعاً رؤية الرجل الغريب ، ولكنه لم يجد له أثراً . وفى أثناء خروجه من الباب الخارجى للمعهد لاحظ وجود رجل فى نحو الأربعين فى جبهته أثر جرح عميق يطيل النظر إليه ، فلم يعره اهتماماً واتجه نحو محطة الترام .

وعندما وصل الترام قفز رمزى وجلس فيه . وتحرك الترام . وبعد فترة رأى رمزى الرجل ذا الجبهة المجروحة جالساً بالقرب منه يختلس النظر إليه بين حين وآخر . وتعجب رمزى . لماذا يقتفى هذا الرجل أثرى ويتتبع خطاى ؟ ! ولكنه أزاح هذه الأفكار من ذهنه واعتقد أنها مجرد مصادفة وأن الرجل لا يقصد اقتفاء أثره إذ لا يوجد ما يدعو ذلك .

هبط رمزى من الترام واتجه نحو منزله ، وحانت منه التفاتة وهو يدخل باب العمارة فرأى ذلك الرجل ذا الجرح الذى فى الجبهة واقفاً على بعد أمتار ينظر إلى المنزل .

وعندما دخل رمزى شقته أسرع بفتح النافذة ، ونظر من خلالها فلم يجد لذلك الرجل أثراً .

٩

استيقظ رمزى فى اليوم التالى فى نحو الرابعة صباحاً على أثر حلم . رأى فى منامه أنه يسير فى شارع لم يره من قبل . كان الطريق طويلاً ، وعند نهايته كوبرى يعبر نهراً ، وعندما هم بالسير على الكوبرى لاحظ أنه مكون من عدد من الأخشاب الضيقة الممتدة بطول الكوبرى متباعدة عن بعضها تباعداً يسمح بسقوط رمزى من بينها . فسار فوق إحدى هذه الأخشاب ورأى ماء النهر يلمع أسفل الكوبرى . كان يبذل مجهوداً عنيفاً ليحافظ على توازنه حتى لا يسقط فى مياه النهر . ثم سمع صوت قطار يهدر وأصوات أشخاص تصرخ تحذره ليبتعد عن طريق القطار . فجرى مسرعاً فوق أخشاب الكوبرى التى لا يزيد سمك أى واحدة منها عن ثمانية سنتيمترات . وعندما وصل إلى الشاطئ الآخر من النهر التفت خلفه فلم يجد قِطاراً . ثم سمع أصوات عدد من الناس يتحدثون ويضحكون ولكنه لم يستطع أن يفهم شيئاً من حديثهم . ونظر أمامه فوجد ميداناً فسيحاً يتفرع منه عدد من الشوارع الضيقة . فسار فى أحد تلك الشوارع . كان الشارع غير مستقيم ، وعلى جانبيه منازل

ذات شرفات خشبية . وخرج من الشرفات عدد هائل من الناس ، نساء ورجال وأطفال ينظرون إليه . ثم سمع ضحكات هؤلاء الناس وكأنها ضحكات هستيرية ذات رنين يشبه رنين الصدى . لم يكن يسير فى الشارع سواه . واختلط حديث الناس بضحكاتهم ، وأمكنه أن يلتقط من حديثهم بعض كلمات . سمع أحد الرجال يقول ضاحكاً «إنه يسير بلا رأس ! » . ثم استمرت الضحكات . ووضع رمزى يده على رأسه يتحسسه فوجد الرأس فى مكانه فوق كتفيه . وتعجب ، لماذا لا يرى الناس رأسه ؟ فسرت فى جسده قشعريرة وأخذ يرتجف وانطلق يعدو فى الطريق ، ولكن الطريق بدا وكأنه بلا نهاية . وعلى طول الطريق وهو يعدو كان الناس يخرجون من الشرفات الخشبية لينظروا إليه وهم يضحكون ويشيرون إليه بأصابعهم . وظل يعدو وهو يلهث . وأخيراً وجد نهاية الشارع ، ووجد عند نهايته نفس الكوبرى الذى سبق له أن عبره . فسار فوق إحدى الأخشاب الضيقة . وسمع هدير القطار من جديد وصيحات الناس تحذره من القطار القادم . وتلاشى صوت القطار دون أن يرى قطاراً . وفى منتصف الكوبرى زلت قدمه وإذا به يهوى فى النهر وأصوات عدد من البشر لا يراهم ترن فى أذنه صارخة فى فزع .

وفى هذه اللحظة صحا من نومه وهو يرتعد . فأضاء المصباح الذى بجوار سريره . وظل فترة من الزمن يكاد لا يصدق أن ما رآه لم يكن سوى حلم . فأسرع يتحسس رأسه بحركة لا إرادية . ثم امتدت يده إلى كتاب «حواء بلا آدم» الموضوع بجوار المصباح وحاول أن يقرأ ، ولكنه لم يستطع التركيز فأعاد الكتاب إلى مكانه .

ذهب إلى المطبخ وعمل لنفسه فنجاناً من القهوة وجلس فى البهو يحتسيه . وعندما انتهى من شرب القهوة قام وفتح النافذة فلفحت وجهه نسمات رقيقة .

ونظر إلى المدينة الكبيرة النائمة . كان السكون يخيم على القاهرة وأضواء المصابيح تكشف عن شوارع خالية من المارة.فأغلق النافذة ، وجلس على أحد المقاعد وسبح فى بحر من الذكريات .

تذكر عندما كان طفلاً فى نحو الثامنة من عمره . عندما كان يعيش فى إحدى القرى مع والده ووالدته وأخته الصغيرة ، وعندما كان يذهب إلى المدرسة . كانت المدرسة فى المدينة التى تبعد عن القرية مسافة ساعة سيراً على الأقدام ، على قدميه هو ، وكان يعبر شريط القطار مرتين فى اليوم ، مرة وهو ذاهب إلى المدرسة فى الصباح ، ومرة عند عودته فى المساء . . وتذكر عندما أوشك القطار أن يدهمه فى صباح أحد الأيام وهو فى طريقه إلى المدرسة . كان الضباب يخيم على الطريق فلم ير القطار وهو قادم . ولكن فى أثناء عبوره القضبان الحديدية سمع هدير القطار ، وما كاد يعبر القضبان حتى مر القطار وهو يصفر ويهدر . ووقف فى ذلك اليوم ينظر مشدوهاً إلى القطار وهو منطلق مبتعداً عنه وقد ابتلعه الضباب .

وتذكر عندما استيقظ من نومه فى أحد الأيام فرأى منزله يموج بكثير من البشر ، وعلم أنه لن يرى والده بعد ذلك اليوم لأنهم حملوه من المنزل ودفنوه فى مكان بعيد .

وتذكر عندما ظهرت نتيجة الشهادة الابتدائية وذهب إلى المدينة ليشترى الصحيفة التى نشرت أرقام الناجحين . ورجع إلى منزله مسروراً يخبر أمه وأخته أنه نجح فى الامتحان .

وتذكر ليلة وفاة أمه التى كانت تكافح لتهيئ له فرصة الاستمرار فى التعليم ، وكيف أنه بعد وفاتها اضطر إلى الانقطاع عن الدراسة . وتذكر أنه فى اليوم التالى

جلس على شاطئ الترعة ووجد نفسه يبكى فى وحدته . كان متفوقاً فى دراسته ، يحب قراءة الكتب . ولكنه منذ ذلك اليوم ظل فى صراع مع الحياة ليضمن لقمة العيش له ولأخته .

وتذكر يوم وفاة أخته بسبب لدغة بعوضة حقنت فى دمها ميكروب الملاريا . وكيف غادر القرية وذهب إلى المدينة ينتقل من عمل لعمل . ثم يوم ركب القطار لأول مرة فى حياته ليستقر به المقام فى مدينة القاهرة وينتقل فيها بين شتى الأعمال التى فشل فيها واحداً بعد الآخر ، وكيف انتهى به الأمر إلى شراء حبل يلفه حول عنقه لينهى حياته التعسة .

وفى أثناء اجترار هذه الذكريات لم يشعر بالوقت وهو يمر إلى أن انتشله من بحر ذكرياته صوت جرس الباب . فأسرع وفتح الباب فوجد مدرس الموسيقى الذى حضر فى الموعد المحدد . فصافحه بحرارة وأجلسه فى البهو .

أخذ مدرس الموسيقى يدير بصره فى أنحاء البهو فرأى البيانو الموضوع فى الركن وفوقه العود ، وبجوار العود رأى الناى .

ذهب رمزى إلى المطبخ وعاد ومعه قدح من القهوة قدمه للضيف الذى نظر إليه وقال :

– أرى عندك بيانو وعوداً ونايا ، فهل تستطيع العزف على كل هذه الآلات ؟

– أستطيع أن أنفخ فى الناى فتخرج منه بعض الأنغام . ولقد حاولت العزف على البيانو والعود وأمكننى تكوين بعض الألحان المعروفة .

فقام المدرس وجلس على كرسى البيانو وأخذ يداعب مفاتيحه ، ثم أمسك الناى وقدمه إلى رمزى قائلاً :

– أسمعنى بعض ألحانك .

فتناول رمزى الناى وأخذ ينفخ فيه ، فلم يستطع المدرس أن يسيطر على نفسه ، فانتصب واقفاً وأخذ يعبر البهو جيئة وذهاباً . ثم وقف أمام رمزى وقال :

– أنت موهوب . أنت فنان . لم أسمع فى حياتى أجمل من هذه الألحان . أين كنت طوال هذه السنين ؟

– كنت أكافح فى الحياة من أجل كسرة من الخبز .

– تكافح فى الحياة ؟ ! مثلك لا ينبغى أن يجوع .

ثم جلس رمزى على كرسى البيانو وأخذ يضغط على مفاتيحه وإذا بالأنغام تنبعث عذبة متناسقة .

فصاح المدرس قائلاً .

– هائل . هائل . أنت فنان . هل تمارس العزف على البيانو منذ زمن بعيد ؟

قال رمزى :

– لم يكن عندى بيانو . لقد اشتريته منذ أيام قلائل .

– سيصبح لك شأن عظيم فى يوم من الأيام . سأتولى تعليمك أصول الموسيقى والنوتة الموسيقية وستصبح من أعظم الموسيقيين الذين يشار إليهم بالبنان . هيا بنا إلى الدرس الأول .

١٠

أقبل رمزى على دروس الموسيقى إقبالاً منقطع النظير. أصبحت الموسيقى طعامه وشرابه وشغله الشاغل ليلاً ونهاراً. كان كالجائع المحروم الذى دعى إلى وليمة عامرة بأشهى الأطعمة فأقبل عليها بنهم. كان يلتهم الدروس التهاماً. وفى فترة قصيرة أتقن العزف على العود والبيانو وتمكن من الإحاطة بأصول النوتة الموسيقية وكل ما يمت للموسيقى بصلة.

وحين كان خارجاً من منزله ذات يوم، رأى إبراهيم البواب جالساً على الدكة الخشبية التى اعتاد الجلوس عليها بجوار بوابة العمارة وبجواره شاب فى نحو الثلاثين من عمره. فحيا البواب الذى قام ورد تحيته، ثم استوقفه البواب قائلاً:

– ألا يلزمك خادم يطهو لك الطعام وينظف المنزل؟

قال رمزى:

– نعم. أنا محتاج لمثل هذا الخادم.

قال البواب مشيراً إلى الشاب الذى وقف بجواره:

– ها هو . إنه طباخ ماهر وأمين . على ضمانتى فهو من بلدى بالصعيد ، وكان فى خدمة عائلة يونانية تربى بين أفرادها منذ الصغر ، ولكن هذه العائلة تركت البلاد وسافرت إلى اليونان ، ولن تجد أفضل منه .

فقبل رمزى على الفور وسلم الخادم أحد مفتاحى الشقة وطلب منه أن يصعد ويبدأ عمله فى الحال بتنظيف الشقة ، وسلمه بعض النقود لإعداد طعام الغداء .

سار رمزى وقد وضع إحدى يديه فى جيب سرواله واعترته حالة نشوة فأخذ يصفّر بفمه وشعر بالسعادة تملأ قلبه . لم يكن يتصور أن بيته فى يوم من الأيام سيضم خادماً . لن يصبح وحيداً فى البيت بعد اليوم . وانطلق يصفر فى نشوة وبهجة متجهاً نحو معهد الموسيقى .

وعندما اقترب من المعهد رأى الرجل الغريب الذى اشترى رأسه واقفاً بالقرب من بوابة المعهد يتحدث مع ذلك الشاب ذى الجرح الذى بالجبهة ، فاختبأ رمزى حتى لا يراه أحد منهما . ولما تأكد من ابتعادهما عن المعهد واختفائهما عن نظره تسلل ودخل المعهد .

توجه نحو الغرفة التى رأى فيها مدرس الموسيقى لأول مرة ، فلم يجده ، ولكنه وجد شاباً نحيلاً جالساً وقد أطرق للأرض . سأله عن مدرس الموسيقى فأخبره بأنه سيحضر بعد قليل . فجلس رمزى ينتظر المدرس الذى كان قد طلب منه الحضور إلى المعهد فى ذلك الموعد ليقدمه إلى بعض المطربين أو المطربات . وبعد سبع دقائق حضر المدرس فصافح رمزى والتفت إلى الشاب النحيل وقال :

– ها هو رمزى الذى حدثتك عنه .

وقال لرمزى :

وهذا هو المطرب عبد الحميد سالم .

فصافح رمزى المطرب قائلاً :

- فرصة سعيدة . كنت أتمنى أن أراك .

فقال له المطرب :

- إنها فرصة سعيدة لى . أنا الذى كنت أتمنى أن أراك ، فلقد حدثنى عنك الأستاذ وعن عبقريتك الموسيقية .

وجلس الثلاثة . والتفت المدرس إلى المطرب عبد الحميد وقال :

- أين كلمات الأغنية ؟

فأخرج عبد الحميد من جيبه ورقة وسلمها للمدرس قائلاً :

- ها هى .

فقرأها المدرس ثم قال :

- أغنية جميلة .

ثم سلم الورقة لرمزى قائلاً :

- ها هى الأغنية التى ستلحنها للأستاذ عبد الحميد .

فقال رمزى بلهفة ودهشة :

- أنا ؟ سألحن الأغنية ؟

قال المدرس :

- نعم . ستلحنها ليغنيها عبد الحميد فى الإذاعة وأنا واثق أن المسئولين هناك سيعجبون بلحنك وسيوافقون على اعتمادك ملحناً بالإذاعة . والمطلوب منك الانتهاء من تلحينها فى خلال ثلاثة أيام . ممكن ؟

فقال رمزى وقلبه يكاد يقفز من صدره فرحاً :

– ممكن طبعاً . غداً أنتهى من اللحن .

لما وصل رمزى إلى منزله وجد محمدا الخادم قد انتهى من إعداد الطعام . فتناول غداءه وأخذ العود وبدأ يترنم ببعض الأنغام محاولاً تلحين الأغنية .

شعر بإرهاق شديد ، واقترب منه الخادم ليذكره بأنه لم يتناول عشاء ، ولكن رمزى كان مستغرقاً فى التلحين فطلب من خادمه أن يتركه وشأنه ويذهب لينام .

وبعد فترة ترك رمزى العود وجلس أمام البيانو وبدأ يعزف ألحان تلك الأغنية . ثم وضع يديه على البيانو واستند برأسه على يديه . وسمع صوتاً يناديه قائلاً :

– يا أستاذ رمزى . يا أستاذ رمزى .

رفع رمزى رأسه وفتح عينيه فرأى ضوء الشمس يغمر البهو ، والتفت فوجد الخادم واقفاً بجواره ، قال الخادم :

– هل نمت هنا طوال الليل ؟ لماذا لم تذهب لتنام فى فراشك ؟ !

فتعجب رمزى . لقد ظل يلحن الأغنية حتى ساعة متأخرة من الليل ، أو ساعة مبكرة من الصباح ، ولم يدر أنه ظل نائماً بعد ذلك طوال الليل وهو مستند برأسه على البيانو !

انتهى رمزى من تلحين الأغنية وأخذ يعزف بعض ألحانها على العود ، فطلب من الخادم أن يعد له فنجاناً من القهوة . ولما احتسى قهوته جلس يدوّن ألحان الأغنية ، ثم أخذ عوده وغادر منزله متجهاً نحو معهد الموسيقى ليسلم اللحن للمطرب .

كان عبد الحميد المطرب جالساً بمفرده فى غرفة المعهد . فصافحه رمزى وتناول

عوده وأخذ يترنم بألحان الأغنية ، فلم يستطع المطرب أن يسيطر على مشاعره فقام واحتضن رمزى قائلاً :

– هذا أجمل لحن سمعته فى حياتى . ما هذا الجمال كلّه ؟

وبدأ رمزى يردد اللحن ليحفظه .

١١

علم رمزى أن الأغنية ستذاع من محطة الإذاعة بعد أسبوع ، وعلى التحديد فى الساعة السابعة وخمس دقائق من مساء يوم الأربعاء . فظل ينتظر تلك اللحظة بصبر نافد . وقبل إذاعة الأغنية بنحو ساعتين ظل جالساً فى منزله بجوار الراديو وبجواره خادمه محمد الذى جلس القرفصاء فى انتظار هذا الحدث العظيم .

وأذيعت الأغنية . وظل رمزى طوال مدة إذاعتها مطرقاً للأرض منصتاً إليها بكل جوارحه . وعندما انتهت إذاعة الأغنية أقبل عليه خادمه مهنئاً فى حرارة فطرية خالية من التكلّف . وعندما نظر الخادم إلى وجه رمزى وجد الدموع تنساب من عينيه على خده . لم يكن يدرى رمزى شيئًا عن عدد الذين استمعوا إلى هذه الأغنية . كم من الناس كان منصتاً إليها ؟ وكم من الذين أنصتوا إليها انتبهوا إلى اسمه الذى يذاع لأول مرة كملحن لهذه الأغنية ؟ وكم من الذين أنصتوا للاسم اهتموا به واختزنوه فى ذاكرتهم ؟ إنه لم ير من الجماهير سوى خادمه محمد الذى أنصت إليها بحكم منصبه ولا يعرف حقيقة مشاعره .

خيل لرمزى فى هذه اللحظة أنه إذا سار فى الطريق فلن يسمع سوى تعليقات على تلك الأغنية . وإذا تصفح صحيفة فسوف يجد العناوين الضخمة تشير إليها ! وأن الناس تجمعت فى الطرقات حول أجهزة الراديو فى أثناء إذاعتها وانصرفت بعد انتهاء الأغنية ولا همّ لهم سوى التساؤل فيما بينهم «من هو رمزى عبد الحميد هذا ؟ إنه فنان عبقرى ! » .

وتصور أن التليفون لن يتوقف له رنين حاملاً إليه تهانى المعجبين . ولكن تليفونه ظل صامتاً كالقبر . فعاد يقول لنفسه إن كل ما دار فى ذهنه أوهام أو أحلام يقظة وأن شيئاً من هذا لا يمكن أن يحدث مهما اهتزت الجماهير طرباً لألحانه . فالفنان قد يحلم فى يقظته ويشطح به الخيال فيظن أن عمله الفنى هو محور تفكير الكون وأن الجماهير سوف تهتم بفنه وتحس به بنفس القدر من الإحساس الذى يشعر به الفنان تجاه عصارة ذهنه . ولكن الناس فى الواقع قد يلتفتون إليه بطرف عيونهم ثم تحتويهم بعد ذلك مشاغل ومشكلات كثيرة يرزحون تحت أعبائها فلا يشغل العمل الفنى من تفكيرهم سوى دقائق أو بضع ثوان . فاهتمام الإنسان بأبنائه لا يمكن أن يقارن باهتمام سائر الناس بهم .

ثم اعترت رمزى حالة من النشوة . شعر برغبة فى الخروج من المنزل والتجول فى الشوارع على غير هدى ، ولكنه عدل عن هذه الفكرة . وقام واحتضن العود وارتفع صوته مردداً نفس الأغنية . فوقف خادمه مشدوهاً وقد فتح فمه كالأبله ولم يتكلم . وعندما انتهى من الغناء قال له الخادم :

— لماذا لم تؤد الأغنية بصوتك ؟ إن صوتك أجمل بكثير من صوت المطرب الذى غناها . صوتك جميل . جميل وليس له مثيل !

اعتبر رمزى حديث خادمه نوعاً من المجاملة . فوضع العود فوق البيانو وذهب إلى سريره ونام بدون عشاء .

وفى الصباح خرج يسير فى شوارع المدينة . ووجد نفسه أمام محطة الإذاعة . ترى هل كان وصوله إلى محطة الإذاعة عن قصد أو بدون قصد ؟ صعد سلم الإذاعة ، وسأل عن مراقب الموسيقى . ودون أن يدرى لماذا أتى وما الذى يريده من مراقب الموسيقى دخل الغرفة وذكر اسمه للمراقب . فقام المراقب وصافحه بحرارة قائلاً :

تفضل اجلس يا أستاذ رمزى .

ونادى الفراش وطلب منه إحضار قهوة لرمزى . وبعد أن شرب القهوة التفت إليه المراقب وقال :

– لحن الأغنية فى غاية الجمال ونتمنى المزيد من هذه الألحان الرائعة .

فشعر رمزى بالسعادة وأراد أن يقول شيئاً ولكنه لم يجد ما يقوله . وبعد فترة قصيرة قال وهو مطرق للأرض :

– نصحنى بعض الناس أن أغنى بصوتى . يقولون إن صوتى جميل .

قال مراقب الموسيقى :

– سأحدد لك موعداً لاختبار صوتك .

وفتح نوتة كانت أمامه وأخذ يقلب فى صفحاتها ثم قال لرمزى :

– يوم الأربعاء القادم الساعة العاشرة صباحاً .

١٢

كانت لجنة الاختبار لصوت رمزى مكونة من ثلاثة أشخاص ، مراقب الموسيقى وشخصين آخرين سمع عنهما رمزى ولكنه يراهما اليوم لأول مرة .

وقف رمزى يؤدى الاختبار فشعر بدقات قلبه تسرع وخيل إليه أنه يسمع لها صوتاً وخشى أن يلتقط الميكروفون صوت دقات قلبه فتنبعث من مكبر الصوت وكأنها دقات الطبول ! وبدأ يغنى مثبتاً نظره على وجوه أعضاء اللجنة محاولا أن يستشف من خلجاتها ما ينم عن الاستحسان أو الاستهجان ، ولكنها كانت جامدة وكأنهم وضعوا على وجوههم أقنعة لا تنم عن أى إحساس بالرضا أو بعدم القبول . فى هذه اللحظة تذكر رمزى أمه . كانت تدعوا لله وهو ذاهب لأى امتحان قائلة :

– ربنا يفتح عليك ويجعل فى وجهك القبول ويلهمك الصواب .

ولكن أمه ماتت منذ سنوات عديدة ولا يوجد الآن من يدعو له أو يفرح أو يحزن من أجله . واستمر يغنى . وعندما انتهى من الغناء وجد أعضاء اللجنة يتبادلون فيما بينهم حواراً قصيراً . وقام مراقب الموسيقى وصافحه قائلاً :

-- مبروك يا أستاذ رمزى . صوتك جميل فعلاً ولا مثيل له فى الأصوات التى نسمعها .

وبعد عشرة أيام سلمه مراقب الموسيقى ثلاث أغان من «مختارات الإذاعة» لتلحينها وغنائها . فأعد رمزى لافتة نحاسية مكتوبا عليها «رمزى عبد الحميد» وتحت اسمه كلمة «موسيقار» ! وثبتها عند باب شقته . ثم دخل الشقة وبدأ فى تلحين الأغانى .

كان رمزى قد انتهى من قراءة رواية «حواء بلا آدم» وشعر برغبة شديدة فى الاستمرار فى القراءة،إنه يعلم جيداً أبعاد ثقافته ، وأنه لم تتح له فرصة إتمام التعليم . فهو يريد أن يقرأ ، ويقرأ كثيراً ليستكمل هذا النقص . ولكن ماذا يقرأ ؟ ومن الذى يأخذ بيده ويدله على الكتب التى تستحق القراءة ؟ فالكتب فى كل مكان . على أرصفة الشوارع وفى المكتبات وفى أكشاك الصحف . كتب كثيرة تحمل عناوين كثيرة يتوه فيها الإنسان . القليل منها جيد جدير بالقراءة والكثير غث هابط لا تقدم قراءته وقد تؤخر ، إذ إن البعض منها يحمل بين طيات صفحاته السم الزعاف . لقد أضاع رمزى أعواماً طوالا من عمره لم يفكر فى أثنائها فى قراءة كتاب مفيد . كان يرزح تحت أعباء الحياة ، تطحنه الأيام وكأنه بين شقى رحى . لم يكن يفكر إلا فى قوت يومه ، فكلما مضى يوم كان يفكر كيف سيعيش يوماً آخر . حياة قلقة مضطربة . لم يكن يدرك فى تلك الأيام أنه يحب القراءة . حتى الموسيقى لم يكن يدرك أبعاد موهبته فيها . كل ما كانت تتركه له أعباء الحياة من راحة التنفس لم تكن تتعدى تلك اللحظات القصيرة التى كان يتناول فيها الناى المصنوع من الغاب وينفخ فيه بضع نفخات تتحول إلى أنغام .

كان فى تلك الأيام كمسافر فى سفينة تصارع الأمواج فى عاصفة عاتية ، وفى مثل هذه اللحظات لا يفكر الإنسان إلا فى محاولة النجاة من الموت أو الاستسلام للقدر .

وضع رمزى لعود فوق ليمانو وخرج إلى شوارع القاهرة يبحث عن كتاب يقرؤه . وفى ميدان سليمان باشا بالقرب من محل جروبى وجد كشكاً للصحف والكتب . كم من مرة سار فى هذه الطريق ولم يلاحظ وجود هذا الكشك .

وقف أمام الكشك وأخذ يتابع بعينيه عناوين الكتب المرصوصة . واسترعى انتباهه كتاب بعنوان : عظماء عصاميون ، فاشتراه . ولم ينتظر حتى يصل إلى منزله بل جلس فى أحد أركان مقهى قريب وطلب فنجان من القهوة وبدأ يقرأ .

وبعد أن انتهى من قراءة ست وأربعين صفحة رفع عينيه عن الكتاب وبدأ يفكر فيما قرأه . لقد علم لأول مرة أن شكسبير الإنجليزى وبرنارد شو الإيرلندى ومكسيم جوركى الروسى وشارلز دكنز الإنجليزى لم تتح لهم الظروف فرصة الاستمرار فى التعليم المدرسى والجامعى . ومع ذلك فقد أذهلوا الدنيا بروائع المؤلفات التى أصبحت تدرس فى الجامعات . لقد علّموا أنفسهم ولم يتلقوا العلم فى فصول يتظلم فيها التلاميذ ومدرجات تمتلئ بالطلبة فلم يضيعوا سنوات عمرهم سدى فى ستظهار معلومات جافة . ولضياع فى متاهات دراسية تخرب مواهبهم وتدمرها . فشعر بشىء من راحة النفس .

نادى الخرسون ودفع الحساب وطوى كتابه وغادر المقهى . وفى أثناء سيره استرعى انتباهه خزانة لكتب كبيرة الحجم معروضة فى أحد متاجر الأثاث . فدخل

المتجر واشتراها وأعطى عنوانه لتوصيلها إلى منزله .

وصل إلى المنزل ، ووقف ينتظر المصعد . وهبط المصعد ، وخرج منه رجل قصير بدين ، ودخل رمزى . وبينما هو يحاول إغلاق باب المصعد استعداداً للصعود أبصر فتاة تسرع الخطى نحو المصعد ، فانتظرها . دخلت الفتاة وأقفل باب المصعد وسأل الفتاة عن الدور الذى هى صاعدة إليه فأخبرته أنه الدور الخامس . فقال لها إنه نفس الدور الذى هو صاعد إليه . وتحرك المصعد إلى أعلى . وفى خلال تلك الفترة القصيرة أمكنه أن يدرك أن الفتاة فى نحو التاسعة عشرة ، وأنها جميلة . ذات شعر طويل مرسل ووجه ناصع البياض به بعض النمش . ترتدى ثوباً أزرق سماوياً وفى يدها حقيبة سوداء متوسطة الحجم .

وتوقف المصعد عند الدور الخامس فخرجت الفتاة ، وخرج بعدها رمزى وأقفل باب المصعد واتجه نحو شقته واتجهت الفتاة نحو إحدى الشقق فى ذلك الدور . ودخل رمزى شقته والفتاة لاتزال واقفة تضغط على جرس الشقة رقم ١٤ المجاورة لشقة رمزى .

كان محمد الخادم متكوراً فوق أحد الكراسى الفوتيل فى البهو يغط فى نومه وقد علا شخيره ، والراديو مفتوح بجواره يذيع نشرة الأخبار . استيقظ محمد على صوت إغلاق باب الشقة وانتفض واقفاً عندما أبصر رمزى . فقال له رمزى :

– الغداء جاهز يا محمد ؟

فأجاب محمد وهو يفرك عينيه :

– جاهز يا أستاذ رمزى .

فتناول رمزى غداءه وجلس يواصل قراءة كتاب « عظماء عصاميون » ولم يتركه

إلا بعد أن أتم قراءته . ثم تناول العود ووضع أمامه كلمات إحدى الأغانى الثلاث التى تسلمها من الإذاعة . لم يستطع إتمام التلحين فترك العود وذهب إلى غرفة النوم ليستريح . ثم غلبه النوم فنام . ورأى فى منامه حلماً .

رأى أنه يسير فى أحد الشوارع الفسيحة بالقاهرة . وبدأ الناس يتجمعون والكل ناظر نحو السماء . فوقف معهم ونظر حيث ينظرون فرأى نجماً لامعاً . وأخذ ضوء النجم يزداد تألقاً ولمعاناً يكاد يخطف الأبصار . ثم رأى جميع هؤلاء البشر تتحول عيونهم من النظر إلى السماء وينظرون نحوه . فشعر بخوف شديد وأخذ يعدو والجموع المحتشدة تجرى خلفه . ولحق به الناس وحمله بعضهم على أكتافهم وساروا فى مظاهرة يهتفون هتافات عالية ولكنها متداخلة وغير واضحة فلم يستطع فهم كلماتهم . واجتازوا به باباً متسعاً على شكل نصف دائرة كبيرة . ووضعوه فوق خشبة مسرح كبير . ووجد نفسه يقود فرقة موسيقية فوق هذا المسرح أمام عدد هائل من الجماهير منصتين باهتمام إلى الموسيقى . ثم أسدل الستار . وفتح الستار من جديد . ونظر رمزى إلى الجماهير فلم يجد سوى رجل واحد ذى ملامح مخيفة جالس أمام آلة ضخمة تشبه آلات تسجيل النقود التى نراها فى المحال التجارية . كان الرجل يضغط على أزرار هذه الآلة فتنبعث منها أنغام غير متناسقة . وتحولت هذه الأنغام إلى صوت رياح تهدر ثم إلى رعد يقصف . وأخذ البرق يلمع فشعر بفزع وقفز من فوق المسرح ووجد نفسه يعدو فى شارع ضيق موحش مظلم ، وكلما سار فيه بضع خطوات برز له فى الظلام ذلك الرجل المشوه الوجه يضحك ضحكات جنونية ثم يختفى .

وعندما صحا من نومه كانت الشمس قد غربت وساد الظلام . استأنف تلحين الأغنية فأتمه . ثم بدأ فى تلحين الأغنية الثانية وانتهى منه . وتناول الأغنية الثالثة .

ولما انتهى من تلحينها أدرك أن يوماً جديداً قد بدأ .

وفى معهد الموسيقى بدأت بروفات الأغانى بمصاحبة الفرقة الموسيقية . وفى خلال أسبوع كان على استعداد لتسجيل الأغانى الثلاث . وتحددت الساعة الثانية عشرة ظهر يوم الخميس موعداً لهذا التسجيل بالإذاعة .

وفى الموعد المحدد ذهب رمزى إلى دار الإذاعة فوجد الفرقة الموسيقية فى انتظاره . وبدأ تسجيل الأغنية الأولى ، ثم الثانية ، ثم الثالثة .

وعندما أذيعت هذه الأغانى مع برامج الإذاعة توقع رمزى ألا تكف أجراس تليفونه عن الرنين وأن تصله مئات الخطابات من المعجبين والمعجبات . ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث . لم يصله سوى خطاب واحد بعد نحو أسبوعين . وجده داخل الشقة بالقرب من الباب . التقط الخطاب بلهفة وفتحه . وقبل أن يقرأه نظر إلى الإمضاء . إنه من فتاة تدعى « إلهام » من تكون إلهام هذه ؟ أخذ يقرأ الخطاب . لم يكن طويلاً . خمسة أسطر فقط . تقول الفتاة صاحبة الخطاب إنها رأت رمزى مرة واحدة . وكان ذلك فى المصعد ، فهى تسكن بجواره فى نفس العمارة . وتقول إنها استمعت لأغانيه ، وهى معجبة به إعجاباً شديداً وسوف تلقاه يوم الخميس القادم فى أحد المنازل بالزمالك وستنتهز هذه الفرصة للتحدث إليه ولو لبضع دقائق .

دارت الأفكار فى رأس رمزى . شعر بفرحة تهزه من الأعماق ممتزجة بالحيرة . هذه أول مرة فى حياته يصله خطاب . ولكنه خطاب عجيب . ستقابله فى منزل فى الزمالك يوم الخميس القادم ؟ ! أى منزل هذا ؟ إنها لم تذكر عنوان المنزل ولا موعد اللقاء ! وأخذ يرهق ذهنه لحل هذا اللغز . ومن تكون هذه الفتاة المعجبة به ؟ أضاءت فى رأسه فكرة . لابد أنها الفتاة الجميلة ذات الثوب الأزرق التى ركبت

معه المصعد. إنها تسكن بجواره فى الشقة رقم ١٤. احتار ولم يدر ماذا يفعل. هل يذهب إليها فى منزلها ويستوضح منها الأمر. منعه خجله الشديد من الإقدام على هذه الخطوة ثم عجز عن الاستمرار فى التفكير فى هذا الموضوع المحير. فطوى الخطاب بعناية ووضعه بين صفحات كتاب «حواء بلا آدم». انتابه شعور غريب لا عهد له به من قبل. فتاة معجبة به تود أن تراه وتتحدث معه! إنه شيء لم يألفه. وتمنى أن يدق الجرس ويفتح الباب فيرى هذه الفتاة. ولكن الجرس ظل صامتاً لا يدق. وماذا تريد أن تقوله الفتاة؟ وماذا سيقول لها؟ وبينما هو سابح فى بحر أفكاره، دق الجرس. فانتفض وأسرع بفتح الباب. لم تكن الفتاة، بل وجد رجلاً طويلاً نحيلاً. سأله الرجل.

- الأستاذ رمزى الموسيقى موجود؟

- أنا رمزى.

- أهلا وسهلاً. تسمح لى أتكلم معك خمس دقائق؟

- بكل سرور. تفضل.

دخل الرجل وجلس فى البهو وساد الصمت فترة من الزمن. من يكون هذا الرجل؟ ترى هل هو والد إلهام؟ ولماذا أتى؟ هل يعلم شيئاً عن خطاب إلهام؟ وماذا يريد أن يقول؟

ولكن الرجل قطع فترة الصمت قائلاً:

- فرح ابنتى يوم الخميس القادم.

قال رمزى:

- مبروك. ألف مبروك.

ومن تكون ابنته هذه ؟ هل هى إلهام ؟ وما شأنه هو بفرح ابنته ؟ ! ولكنه عرف علاقته بالفرح عندما قال الرجل :

– نود أن تحيى لنا هذا الفرح يا أستاذ رمزى . ابنتى اختارتك أنت بالذات من بين جميع المطربين وأصرت على ذلك .

لم يستطع رمزى أن يخفى الفرحة التى أطلت من عينيه وقال :

– أنا أشكرها على هذه الثقة .

ولكن من هى ابنته ؟ هل هى إلهام ؟ سأله رمزى :

– وأين سيكون الفرح إن شاء الله ؟

فقال الرجل :

– فى منزلنا بالزمالك . وسنرسل لك السيارة فى الثامنة من مساء ذلك اليوم لتقلك إلى المنزل .

ثم أطرق لحظة واستطرد قائلاً :

أما فيما يختص بالأجر فسأترك لك تقدير ذلك . كم يا ترى تطلب أجراً لإحياء ذلك الحفل ؟

احتار رمزى ولم يدر ماذا يقول . هذه أول مرة يطلب منه الغناء فى حفل زواج ولا علم له بالأجر المناسب . فأطرق للأرض ولزم الصمت . فأخرج الرجل محفظة نقوده وسلم رمزى خمسين جنيهاً قائلاً :

– أتعشم أن تكون مائة جنيه أجراً مناسباً . ها هو نصف المبلغ ، وسأسلمك النصف الباقى عقب انتهاء الحفل .

أخذ رمزى الخمسين جنيها دون أن يتكلم ووضعها أمامه على المنضدة وبذل

مجهوداً لكى لا تبدو فى ملامح وجهه الفرحة التى جاشت فى أعماق نفسه . مائة جنيه لكى أغنى ليلة واحدة ! لقد بدأت أبواب الأمل تنفتح أمامى .

وعندما خرج الرجل من منزله تناول رمزى الخمسين جنيهاً من فوق المنضدة وأخذ يعدها ثم وضعها فى أحد الأدراج وجلس يفكر فى أفراد الفرقة الموسيقية الذين سيصطحبهم معه إلى ذلك الحفل . ثم عاد يفكر فى خطاب إلهام . هلى هى العروس ؟ ولماذا يقام حفل زفافها فى منزل بالزمالك ؟ ربما يكون منزل أحد أقاربها . وعاد يفكر فى أفراد الفرقة الموسيقية .

١٣

فى الساعة الثامنة وخمس دقائق من مساء الخميس دق جرس الباب . وعندما فتح رمزى وجد أمامه شاباً عرف أنه سائق السيارة التى ستحمله إلى مكان الحفل . توقفت عند باب حديقة فيلا أنيقة بشارع الجبلاية بالزمالك . فهبط رمزى من السيارة وقاده السائق عبر ممر طويل فى وسط الحديقة انتهى بسلم . أسرع السائق بصعود السلم وضغط على زر جرس الباب . ولما فتح الباب أطل منه خادم أسمر يرتدى جلباباً أبيض وحزاماً من القماش الأحمر . قال الخادم مبتسماً :

– الأستاذ رمزى . أهلاً وسهلاً . تفضل .

دخل رمزى بهو المنزل ، بهو فسيح جدرانه محلاة بنقوش ذهبية وتزينه لوحات رائعة . كان ممتلئاً بالمدعوين رجالا ونساء وفتيات وأطفالاً . تطلع الجميع إلى رمزى الذى حياهم ثم وقف برهة حائراً لا يدرى أين يذهب . وبعد فترة قصيرة رأى والد العروس قادماً نحوه وصافحه بحرارة قائلاً له :

- أهلاً وسهلاً يا أستاذ رمزى . تفضل

وقاده نحو أحد أركان البهو وأجلسه على أحد الكراسى وجلس بجواره . وأراد رمزى أن يطمئن على وصول العازفين فقال لصاحب المنزل :

– ترى هل وصل العازفون ؟

قال والد العروس :

– أجل . وصلوا منذ نحو ربع ساعة وهم هناك فى الحديقة الخلفية حيث سيكون الحفل .

أقبل الخادم الأسمر وقدم لرمزى كوباً من الشربات . وبعد نحو عشر دقائق التفت والد العروس إلى رمزى قائلاً :

– هل تحب أن نبدأ الحفل ؟

– لا مانع مادام العازفون قد حضروا .

صحبه الرجل إلى الحديقة الخلفية فوجدها تتلألأ بالأضواء ورأى المناضد متناثرة فوق بساط من النجيل الأخضر وبين الأشجار وقد جلس حولها عدد كبير من المدعوين . وفى صدر المكان منصة مرتفعة جلس عليها العازفون وتركوا كرسيًّا شاغراً فى الوسط ليجلس عليه رمزى . وفى الاتجاه المضاد كانت العروس جالسة بجوار عريسها وخلفهما وعلى الجانبين عدد هائل من باقات الأزهار .

اعتلى رمزى المنصة فارتفع دوى التصفيق . إنها أول مرة فى حياته يواجه فيها الجماهير . انحنى لهم ليرد تحيتهم . ثم جلس على الكرسى المعد له . واعتلى المنصة شاب ضئيل الحجم ضبط ارتفاع الميكروفون أمام رمزى . وبدأ العازفون يضبطون آلاتهم . وحانت من رمزى التفاتة نحو الجماهير . وإذا بقلبه يشتد خفقانه . فلقد رأى إلهام جالسة مع بعض الفتيات والنساء حول منضدة بالقرب من المنصة ناظرة

إليه وعلى شفتيها ابتسامة وبدت سعيدة مبتهجة . ظل رمزى ناظراً لإلهام واحتار ماذا يفعل . هل يحييها ؟ وأخيراً أومأ برأسه محيياً فردت تحيته وكأنها طفلة صغيرة على وشك أن تقفز فرحاً . أدرك رمزى أن إلهاما كانت على علم بموعد هذا الحفل ولذا كتبت إليه فى خطابها القصير أنها ستراه يوم الخميس فى منزل بالزمالك . وها هو ذا يراها فى مكان لم يكن يخطر على باله أن يراها فيه .

بدأت الفرقة الموسيقية تعزف مقدمة الأغنية ورمزى لا يزال شارد اللب . وانتهت الفرقة من العزف وكان المفروض أن يبدأ رمزى الغناء . ولكنه لم يفعل . فأعادت الفرقة عزف المقدمة . ولما انتهت المقدمة فى هذه المرة بدأ رمزى يغنى أغنيته الأولى :

من طول سؤالى عليك كترت ظنون الحبايب
وازاى رح أشكى إليك وانت ناسينى وغايب ؟

* * *

فضلت وحدى مع الأيام محروم من الود الصافى
لانوم يزورنى ولا أحلام تسامر القلب الوافى
لما الزمان ضمّك لىّ رفرف على القلب حنانك
عرفت معنى الحنيّة وفضِلْت عايش علشانك
ولما طاب الود وطال حرمت ليه عِينى منّك
خليتنى بعد الهجر خيال شارد وحيد يسأل عنّك
وازّاى يفوت يوم يا حبيبى ما اسألش عليك
وانت اللى م الدنيا نصيبى والروح فى إيديك

وطول سؤالى عليك كتّر ظنون الحبايب
وازاى رح أشكى إليك وانت ناسينى وغايب؟

* * *

أسأل عليك كل الأحباب من يوم ما غاب حسنك عنى
وطال عذاب القلب وداب من غير ما حد يطمنى
شافوا الحبايب أحوالى قالوا لى لازم هايم بيه
حفظت فى القلب سؤالى ليبيّن اللى فضلت أداريه
محروم من اللى باحبه ومن سؤالى عليه
وامتى حاسعد بقربه واشكى عذابى إليه ؟
وازاى يفوت يوم يا حبيبى وما اسألش عليك ؟
وانت اللى م الدنيا نصيبى والروح فى إيديك
وطول سؤالى عليك كتّر ظنون الحبايب
وازاى رح اشكى إليك وانت ناسينى وغايب ؟

وعلت صيحات الاستحسان عدة مرات فى أثناء الغناء تطلب إعادة أجزاء من الأغنية . وعندما انتهى من الغناء وقفت إلهام تصفق . وفى فترة الاستراحة من الغناء هبط رمزى من فوق المنصة واتجه نحو إلهام وصافحها كما صافح من كان معها حول نفس المنضدة وأسرعت إلهام فالتقطت أحد الكراسى ووضعته بالقرب منها حول نفس المنضدة ودعت رمزى للجلوس فجلس .

ثم بدأ العازفون يعزفون لحناً من ألحان الرقص وظهرت فجأة فى الحديقة راقصة ذات شعر أشقر لم يدر رمزى من أين أتت . وكأنها خرجت من تحت الأرض .

وأخذت تدور فى أنحاء المكان راقصة على أنغام الموسيقى . تلف وتنحنى وتهتز وتعتدل فى حركات رشيقة جعلت رمزى ينظر إليها مشدوهاً . ثم اتجهت نحو العروس والعريس وأخذت ترقص لهما . وعلى غير انتظار قفزت وجلست على كتفيهما وأخذت تميل إلى الخلف ثم اعتدلت وابتعدت عنهما وأخذت تدور من جديد راقصة فى أنحاء الحديقة . وكما ظهرت فجأة ، اختفت فجأة !

لم تتح لرمزى فرصة الحديث مع إلهام فى أثناء الرقص . وعندما اختفت الراقصة صعد رمزى على المنصة ليغنى أغنيته الثانية :

سابحٌ عند السحابْ بين أحضان المساء
طائر ذاق العذابْ ضلّ فى بحر السماء

* * *

كلما راح يغنى خانه الدمع بكى
لو رأى خلا يواسى أو حبيبا لاشتكى

* * *

ودّع الجوَّ ومالْ بعد أن طال الصراعْ
وهوى فوق الرمال فى أنين والتياعْ

* * *

ضمّه قلبى ولكن طيفه يسكن عينى
يتغذى من دموعى كلما أبكى التجنّى
فإذا جفت عيونى خِفتُ أن يبعد عنى

وقوبلت أغنيته هذه بنفس الحماس والاستحسان الذى أثارته أغنيته الأولى

ووقفت إلهام تصفق وكأنها فى ملعب من ملاعب كرة القدم وقد أحرز الفريق الذى تشجعه هدفا ضد الفريق الآخر !

هبط رمزى من فوق المنصة وجلس حول المنضدة التى تجلس عندها إلهام وفوق الكرسى الذى حرصت إلهام أن يظل شاغراً حتى يعود إليه . وظهرت الراقصة للمرة الثانية وأخذت ترقص . وبعد لحظات التقطت عصا من أحد المدعوين وأخذت تحركها فى أثناء الرقص . ثم ثبتتها فى وضع أفقى فوق ثدييها وهى ماضية فى رقصها وكأن العصا قد التصقت بجسدها بمغناطيس أو بمادة لاصقة ! فألقى لها أحد المدعوين عصا أخرى . فطوحت بالعصا الأولى نحو صاحبها وأحلت العصا الثانية محلها واستمرت فى رقصها والعصا مرتكزة على ثدييها . شدت هذه الحركة انتباه رمزى وأدهشت جميع المدعوين وبدت الراقصة وكأنها ساحرة ! ثم طوحت بالعصا الثانية نحو صاحبها الذى التقطها ثم اختفت الراقصة وكأن الأرض انشقت وابتلعتها !

صعد رمزى إلى المنصة ليغنى أغنيته الثالثة . كانت الأغنية من نوع «السريناده» ، عزفت الفرقة المقدمة الموسيقية للأغنية ثم بدأ رمزى يغنى :

هـايم فى حسنك
أنـــــاجى رسمك
يـــنـــادى بـــاسمك قـــلبى الـــعـــنـــيـل
عيونى تشكى من بُعدك والفكر والروح ويّاكِ
وقلبى محروم من قربك وهوَّ طول عمره معاكِ

* * *

من كتر وجـــدى
يضـــنينى ســـهـدى
وأهيم لوحـــــدى والـــدنـــيـا لـــيـلْ
وكل آمالى فى حبك أسعد عيونى بجمالك
يكفينى من بُعد انظرْلك أنعش خيالى بخيالك
من غير ما ندرى
شـــغـلتِ فـكـــرى
ونمتِ بـــــدرى والـلـيـــل طويـل
ليه بس تتجنّى علىَّ ونور عيونى من طيفك
حرام أصونك فى عينىَّ وتنامى من غير ما تشوفك

* * *

وقفت ساكت ، والليل سكون آخذ نصيبى من الشجون
لما النسيم يخطر عندى أشـكى إلـيـه
يشوف دموعى على خدى أصـعب عـلـيـه
أحلفه يحمل حُبّى ويمر عـلـيكِ
ويبلغك أشواق قلبى الهايم بـــيكِ

* * *

فضلتِ نايمة وأنا حيران ما بين شجونى والأوهام
ضاعت وتاهت أحلامى وتسعدى أنت بالأحلام

كانت عينا رمزى مثبتتين طوال الأغنية فى عينى إلهام التى كانت تنظر إليه

مبتسمة . كان يشعر بأن إلهاما هى الإنسانة الوحيدة التى يعرفها من بين جميع المدعوين . ثم تصور أنه ارتكب خطأ إذ كان من دواعى المجاملة أن ينظر إلى العروس ، ولكنه عاد يقول لنفسه إنه كان من الأصوب عدم النظر نحو العروس حتى لا يثير غيرة العريس ! وأراحت نفسه هذه الفكرة الساذجة .

وحان موعد « البوفيه » فاتجهت نحوه العروس وبجوارها عريسها وخلفهما جميع المدعوين . وقف العريس والعروس أمام كعكة الزفاف المتعددة الطبقات وكأنها إحدى ناطحات السحاب . وأخذ رمزى يدير بصره باحثاً عن إلهام فرآها تتحدث وتضحك مع إحدى صديقاتها وما إن رأته حتى هرولت نحوه ووقفت بجواره . لم تتح له فرصة الحديث مع إلهام فقد تجمعت حوله باقة من الفتيات الجميلات . قالت له إحداهن :

- كنا نريد أن يستمر الغناء حتى الصباح يا أستاذ رمزى .

قال رمزى :

- لا أحب أن أرهقكن بالسهر .

قالت فتاة أخرى :

- إنها متعة يا أستاذ وليست إرهاقا . لم أسمع فى حياتى أجمل من صوتك .

تمنت إلهام أن تكون هى التى قالت هذا ، وشعرت بغيرة لم تعرف لها سبباً .

أتى المدعوون على كل ما كان فوق المائدة من حلوى وفطائر وكأنهم سرب من الجراد انقض على بستان من الفراولة فالتهم الأخضر واليابس وأحاله إلى أرض جرداء . وعندما هم رمزى بالانصراف تقدم نحوه والد العروس وشكره على ما أشاعه فى قلوبهم من بهجة وفى نفوسهم من متعة بصوته الشجى وفنه الرائع فى هذه

الليلة وسلمه ظرفا به باقى الأجر . وضع رمزى الظرف فى جيبه دون أن يفتحه .

وقال له والد العروس :

- السيارة فى انتظارك أمام الباب لتوصيلك إلى منزلك .

شكره رمزى وسارا معاً نحو الباب الخارجى ، وبقى والد العروس عند الباب حتى ركب رمزى وتحركت السيارة . أبصر رمزى إلهاما تسير بمفردها فطلب من سائق السيارة أن يتوقف وعرض على إلهام أن تركب معه فطريقهما واحد . وكالعصفور قفزت إلهام دون تردد وجلست بجوار رمزى ولم تستطع إخفاء سعادتها .

ساد الصمت بينهما فترة من الزمن . كانت إلهام تنتظر أن يبدأ رمزى الحديث ولكنه ظل مطرقاً نحو الأرض . فنظرت إليه وفتحت فمها على وشك أن تحدثه ولكنها أطبقت فمها ولم تتكلم عند ما رأته مستغرقاً فى التفكير . وأخيراً قالت له مبتسمة :

- فيم تفكر ؟

فانتفض رمزى وكأن أحداً أيقظه من نومه بغتة وقال :

- فى أشياء كثيرة .

- لقد كنت تنظر إلىّ طوال أغنيتك الأخيرة .

حقًّا ؟ لم أشعر بذلك . من الطبيعى أن أنظر إليك وحدك فأنت الوحيدة التى أعرفها من بين جميع المدعوين فى الحفل ، بل الوحيدة التى عرفتها فى الدنيا بأسرها .

فاحمرت وجنتا (إلهام) وتحركت شفتاها المبتسمتان ولم تتكلم . قال رمزى :

- لم أفهم خطابك عندما قرأته . كيف عرفت أننى سأكون مطرب الحفل ؟

ترددت (إلهام) لحظة قبل أن تقول :

- العروس صديقتى . وأنا التى أقنعتها بأن تكون أنت مطرب الحفل .

قال رمزى وقد شعر بشىء من خيبة الأمل :

– إذن فأنت صاحبة الفضل . أشكرك من كل قلبى على هذا الشعور وأتمنى ألا تكون العروس قد ندمت على اقتناعها برأيك .

– كن مطمئناً من هذه الناحية . لقد أعجبت بك العروس والعريس وجميع المدعوين . لقد كنت رائعاً .

فهزته الفرحة وقال :

– هل أعجبك غنائى ؟

– أعجب به كل من سمعك .

ثم اختفت ابتسامة شفتيها وقالت وفى حديثها رنة حزن :

– لقد كثر المعجبون بك .

– ألا يسعدك أن يعجب بى أكبر عدد من الناس ؟

يسعدنى ويشقينى .

– ولماذا يشقيك ؟

– عندما تعجب فتاة بإنسان لا تحب أن يشاركها الإعجاب به أحد .

– ولكن الفنان الذى لا يعجب به سوى فتاة واحدة لابد أن يكون فناناً فاشلاً . وليس المهم من يعجب بى بل المهم من أعجب أنا به .

لم تجد إلهام ما تقوله . فساد الصمت بينهما ودون أن تشعر بمرور الوقت وجدت السيارة تقف أمام باب المنزل .

فهبطت من السيارة وهبط بعدها رمزى . ودخلا العمارة . كان المصعد فى الدور

الأرضى ، فدخلا وأغلق رمزى باب المصعد وضغط على الزر فأخذ المصعد يرتفع عن الأرض . وخرجا من المصعد فى الدور الخامس . فحياها رمزى واتجه نحو شقته واتجهت هى نحو شقتها . وبينما هو يحاول فتح باب شقته هرولت إلهام نحوه وقالت :

- عندى مفاجأة لك .

قال رمزى بلهفة :

- ما هى المفاجأة ؟

- ستعرفها فى حينها .

وأسرعت نحو شقتها وفتحت الباب بمفتاح كان فى حقيبتها واختفت داخل الشقة وأغلقت الباب وتركت رمزى حائراً .

عندما دخل رمزى شقته وجد الخادم نائماً . فخلع ملابسه ولبس المنامة واستلقى فى الفراش يفكر فى أحداث تلك الليلة وفى تلك المفاجأة التى حدثته عنها إلهام .

ترى ما هى هذه المفاجأة ؟ هل هى هدية ترغب فى تقديمها لى ؟ وما هى هذه الهدية ؟ إنها فتاة جميلة . لم أكن أحلم أننى فى يوم من الأيام سأتحدث مع فتاة جميلة مثلها . لم أكن أتصور أن بالمدينة كل هذا العدد الضخم من الفتيات الجميلات اللاتى رأيتهن فى الحفل . ولكن إلهام أجملهن جميعاً وأخفهن ظلا . السيارة التى ركبتها فاخرة ومريحة . المدينة مملوءة بالسيارات الفاخرة . لم أكن أعيرها اهتماماً . كنت أخشى أن تدهمنى إحدى تلك السيارات . أخشى أن يكون كل هذا حلماً . هل من المعقول أن يكون حلماً ؟ لم تكن أحلامى من هذا النوع . كانت أحلامى من نوع آخر . كلا . ليس حلماً . إنه حقيقة . كيف تمكنت تلك الراقصة من تثبيت العصا فوق ثدييها ؟ أول مرة فى حياتى أرى راقصة . ترى هل استمتع

الناس بالراقصة أكثر من استمتاعهم بغنائى ؟ كان حفلاً رائعاً ، لابد أنه كلفهم مئات الجنيهات . يوجد أغنياء كثيرون . لم أكن أعلم عنهم شيئاً . كنت أعجز فى بعض الأحيان عن الحصول على لقمة الخبز . يوجد مساكين كثيرون فى الدنيا . ترى من الذى سكن فى الغرفة التى كنت أعيش فيها فوق السطح ؟ ربما يكون ذكر بط آخر .

لم يشعر متى غلبه النوم . ولكنه شعر بالخادم يوقظه قائلاً :

– قم يا أستاذ رمزى . بقينا الظهر ، وفى البهو شخص ينتظرك منذ ساعة .

فتساءل رمزى وهو نصف نائم :

– من هو ؟

– بنت حلوة !

فانتفض رمزى قافزاً من الفراش وقد طار نومه ، وأسرع بارتداء ملابسه وخرج إلى بهو المنزل فإذا به يرى إلهاما جالسة فى أحد الأركان . ولما رأته لم تحاول مصافحته بل ظلت جالسة ناظرة إليه مبتسمة وقد شحب وجهها . تعجب رمزى من وجودها فى منزله ولكنه فرح لرؤيتها ، وبدا عليه الارتباك ، فقال لها مبتسماً :

– أهلاً وسهلاً . خطوة عزيزة .

جلس بالقرب منها ، وساد السكون فترة بدت فى خلالها إلهام مطرقة للأرض وكأنها تفكر تفكيراً عميقاً . قطع رمزى فترة السكون قائلاً :

– كنت أفكر طوال الليل فى المفاجأة التى وعدتنى بها .

قالت إلهام وهى لا تزال مطرقة للأرض وقد احمرت وجنتاها :

– ستعرفها الآن .

قال رمزى بلهفة :

– ما هى يا ترى ؟

– جئت أطلب يدك !

بدت الدهشة على وجه رمزى وقال :

– تطلبين يدى ؟ ! لمن ؟

– لى . أنا معجبة بك وأريد أن أخطبك لنفسى . فهل تحبنى كما أحببتك ؟

كان هذا آخر ما يتوقع أن يسمعه منها . قال بدون تفكير وقد أذهلته المفاجأة :

– طبعاً أحبك .

قالت إلهام وهى لا تزال مطرقة للأرض تعبث بأصابعها بحركة عصبية :

– أنا لا أصدق .

– ولماذا لا تصدقين ؟

– أنت لا تعرفنى المعرفة الكافية لتحبنى .

لم يدر رمزى ماذا يقول . وبعد فترة تفكير قصيرة نظر إليها مبتسماً وقال :

– قد يحدث الحب من أول نظرة . ولقد أحببتك منذ رأيتك لأول مرة ، عندما تقابلنا فى المصعد .

فأطرقت إلهام إلى الأرض فترة من الوقت ؟ ثم نظرت إلى رمزى وقالت :

–إن كنت صادقاً فى حبك كما تقول ، فهل تقبل أن تتزوجنى ؟ !

كان رمزى فى أعماق نفسه يتوق للحياة الزوجية ويتمنى أن يصادف الفتاة التى يرتبط معها بذلك الرباط المقدس . ولكنه لا يدرى لماذا صدمته كلمة « الزواج » عندما خرجت من بين شفتى إلهام . أى نوع من الفتيات هذه التى تدخل منزل

شاب لم يسبق لها أن التقت به سوى مرة أو مرتين وتطلب منه الزواج ؟ ! إنه لا يعلم عنها شيئاً . وبدأت تساوره الظنون ، فلم يدر ماذا يقول ، وظهرت عليه الحيرة ولزم الصمت . فقالت إلهام :

قد يبدو طلبي هذا غريباً في نظرك . فمنذ بدء الخليقة والرجل هو الذي يختار الأنثى التي تعجبه وتروق له . ولكن هذه الأنثى المسكينة المغلوبة على أمرها لم تمنح الفرصة مطلقاً لاختيار الرجل الذي يعجبها ويحلو في عينيها . . !

فكر رمزي لحظة قصيرة ثم قال :

- للأنثى حق رفض طلب الرجل الذي لا تريده .

فقالت إلهام على الفور :

- إذا منحوها حق الرفض فهي محرومة من حق الاختيار . وشتان بين حق الرفض وحق الاختيار . الأول سلبي أما الثاني فإيجابي . وحتى حق الرفض قد تحرم منه الأنثى في كثير من الأحيان .

فأطرق رمزي للأرض ولزم الصمت ولم يدر ماذا يقول . فقالت إلهام :

– من الواضح أنك لم تكن تفكر في الزواج ، ومع ذلك تدعي أنك تحبني . فما هو مصير الحب في نظرك إن لم يتوجه الزواج ؟

قال رمزي وهو شارد اللب :

– الحب شيء ، والزواج شيء آخر .

قالت إلهام في ارتباك :

– هل تريد إقناعي بأن في نيتك أن تحبني حبًّا سرمديًّا لا يكلل بالزواج ؟ !

– أنا في الواقع لا أحاول إقناعك بأي شيء . فما هي إلا أفكار دارت في رأسي .

وأراد رمزي أن يغير مجرى الحديث فقال :

– أراك تخرجين كل صباح وفى يدك حقيبة كتب ، إلى أية مدرسة تذهبين ؟

قالت إلهام وهى مطرقة للأرض :

– إلى معهد التمثيل . أنا طالبة فى هذا المعهد .

قال رمزى بدهشة :

– معهد التمثيل ؟ ! لم يخطر ذلك على بالى .

قالت إلهام دون أن تلتفت نحوه :

– ولماذا لم يخطر على بالك ؟

– لست أدرى ، كنت أعتقد أنك تلميذة فى مدرسة ثانوية .

– انتهيت من دراستى الثانوية والتحقت بمعهد التمثيل ، وأنا على وشك التخرج فى ذلك المعهد . ومنذ رأيتك وأنا . . .

– وأنت ماذا ؟

فى هذه اللحظة دق جرس التليفون ، فقام رمزى ليرد عليه . تناول سماعة التليفون وقال :

– آلو . . أفندم .

فقال الصوت المنبعث من الطرف الآخر :

– حضرتك الأستاذ رمزى عبد الحميد ؟

– نعم . أنا رمزى عبد الحميد .

– هل توافق على الغناء فى حفل « أضواء المدينة » الذى ستقيمه الإذاعة فى سينما « ريفولى » بعد غد ؟

فرح رمزى بهذا العرض . ولكنه تعجب . كيف يطلب منه الاستعداد فى هذه الفترة القصيرة للغناء فى حفل كبير كهذا ؟ ولماذا لم يطلب منه ذلك قبل الحفل بمدة كافية ؟ فقال للمتكلم :

– ألا ترى أن الوقت ضيق ولا تكفى هذه الفترة القصيرة للاستعداد على أحسن وجه للغناء لأول مرة فى حياتى فى حفل أضواء المدينة ؟

– أقول لك بكل صراحة إن أحد المطربين الذى كان مقرراً اشتراكه فى الحفل اعتذر اليوم لمرض مفاجئ ، ورأت الإذاعة إنقاذاً للموقف أن تحل أنت محله ، وهى فرصة لا ينبغى أن تضيعها وسيذاع الحفل فى الراديو كما تعلم . وستغنى فى الحفل أغنية واحدة . فما رأيك ؟

فأجاب رمزى على الفور :

– وهو كذلك .

وعندما انتهت المكالمة التليفونية وعاد رمزى ليخبر إلهاما بمضمون المكالمة اكتشف أنها غادرت المنزل دون أن يشعر بخروجها .

أين ذهبت ؟ أخشى أن أكون قد جرحت شعورها . أنا لا أحب أن أجرح شعور أى إنسان . ترى ماذا كانت تريد أن تقول ؟ إنها لم تكمل الجملة التى قالتها . كنت أحب أن أخبرها أننى سأغنى فى حفل أضواء المدينة . لم أكن أتصور أن أغنى فى هذا الحفل . إنها فرصة ذهبية لا ينبغى أن أتركها تفلت من يدى . إلهام جاءت تطلب يدى . شىء عجيب لم يحدث له مثيل . هل من المعقول أن تطلب الفتاة يد الشاب الذى يعجبها ؟ ظروفى لا تسمح لى الآن بالزواج . يجب أن أفكر فى مستقبلى . سأتصل الآن بالفرقة الموسيقية لإجراء بروفات الأغنية .

١٤

فى يوم الحفل كان رمزى قد استعد للغناء ، ولكنه شعر برهبة لم يشعر بها من قبل . لقد سبق له أن غنى فى الإذاعة ، ولكن ذلك كان أمام الميكروفون وليس أمام أعداد هائلة من البشر . كما سبق له أن غنى فى حفل زفاف ، ولكن الحفل لم يكن مذاعاً . ولكن فى هذه المرة سيغنى أمام الجماهير الكثيرة ، وفى نفس الوقت سيذاع فى جميع أنحاء البلاد وخارج حدودها .

تقدم المذيع على مسرح (ريفولى) وأعلن أن الأستاذ «رمزى عبد الحميد سيغنى» وانفرجت الستائر عن رمزى واقفاً وأمامه الميكروفون وخلفه أفراد الفرقة الموسيقية . وبدأ يغنى .

قوطعت أغنيته مرات كثيرة بأصوات هادرة تطلب منه إعادة غناء بعض أجزائها . وفى أثناء الغناء حانت منه التفاتة فوجد إلهاما جالسة وبجوارها سيدة تذكر أنه رآها مرتين فى مصعد المنزل فتأكد أنها لابد أن تكون والدتها . كانت إلهام فى هذه المرة مطرقة للأرض يبدو عليها الحزن .

وعندما انتهى الغناء دوى التصفيق فى جميع أنحاء المكان وكأنه صوت انفجار بركان . ظل رمزى ينحنى للجماهير عدة مرات . وقبل أن تقفل الستائر رأى رمزى بين الجماهير القريبة من المسرح وجهاً تذكر أنه رآه من قبل . إنه وجه الرجل ذى الجرح العميق الذى فى جبهته ! وتعجب رمزى . لماذا يتعقبه ذلك الرجل فى كل مكان يذهب إليه ؟

ولما عاد رمزى إلى منزله فى ذلك المساء ظل ساهراً غير شاعر برغبة فى النوم ، وصورة الجماهير التى ملأت مقاعد دار السينما ماثلة أمام عينيه . ومن خلال مئات الوجوه التى كانت تنظر إليه وهو على خشبة المسرح لم يطبع فى ذاكرته سوى وجه واحد ، وجه إلهام . ذلك الوجه الجميل الحزين الغامض .

لماذا ذهبت إلى الحفل ؟ هل كانت تعلم أنى سأغنى فيه؟ وكيف علمت ذلك ؟ لم يطلب منى الغناء إلا فى آخر لحظة ولم يكن من المقرر أن أغنى . لقد غنيت لأن أحد المطربين المشتركين فى الحفل اعتذر عن الغناء . ربما تكون أذناها قد التقطت بعض الكلمات فى أثناء حديثى فى التليفون فهمت منها أنى سأغنى فى ذلك الحفل .

نقلت أجهزة الراديو الحفل إلى آلاف البيوت . بدأ نجمى يعلو ويسطع . إن إلهاما تحبنى . وتود أن تتزوجنى . ولكن كيف تجرؤ فتاة على الحضور إلى منزلى لتطلب يدى ؟ شىء عجيب لم يحدث له مثيل ! من المفروض أن يتقدم الشاب ليخطب الفتاة ويطلب منها الزواج . ولكن لم أسمع فى حياتى عن فتاة تتقدم إلى شاب طالبة الزواج منه . من هى إلهام هذه ؟ قد تكون فتاة ساذجة . وقد تكون فتاة خبيثة . لست أدرى . أرى أن التفكير فى الزواج الآن سابق لأوانه . أريد أن أبنى مستقبلى قبل كل شىء وأعيش كالطائر المغرد الطليق الذى يطير من فنن إلى فنن . لا أحب

الحياة داخل قفص ولو من ذهب . لست متأكداً حتى هذه اللحظة إذا كنت أحب إلهاماً حبًّا يجعلني أرتبط معها برباط مدى الحياة . إنني أرتاح لرؤيتها وأتوق للجلوس معها . ولكن هل هذا هو الحب ؟ إنني أرتاح لرؤية أية أنثى جميلة . وما هو الحب ؟ الحب عاطفة قوية سامية تجعل الإنسان لا يرى في الدنيا سوى المخلوق الذي يحبه . ترى هل أشعر بهذه العاطفة نحو إلهام ؟ لست أدري . الحب قد ينقض على الإنسان في لحظة خاطفة ، وقد ينمو متمهلاً مع الأيام كما ينمو الهلال ليصبح بدراً . وهل تحبني إلهام حقًّا ؟ أم هو مجرد إعجاب بفنان تتوقع له مستقبلاً متألقاً ؟

كانت هذه الأفكار تدور في رأس رمزي وهو مستلق على فراشه . وأخيراً شعر برغبة في النوم . فأطفأ النور ونام .

* * *

مضت أيام ثلاثة . وفي صباح اليوم الرابع حينما كان سائراً في طريقه إلى معهد الموسيقى اشترى إحدى المجلات وأخذ يتصفحها ، فإذا به يفاجأ بشيء لم يكن يخطر له على بال . رأى صورته وهو يغني على مسرح « ريفولي » تملأ نصف صفحة من صفحات هذه المجلة وبجوارها مقال بلا إمضاء يتحدث عنه . يقول كاتب المقال «إن رمزي عبد الحميد سيصبح نجم الموسم ، فهو فنان ذو موهبة أصيلة نادرة وصوت ذهبي » .

ظل رمزي يقرأ المقال ويعيد قراءته عدة مرات . . فشعر بالسعادة وجعلته النشوة يسرع الخطى . واعتقد أن كل من يمر بهم من الناس سيتعرفون عليه ويشرئبون بأعناقهم لرؤيته ويتجمهرون حوله ، فصورته تملأ صفحة المجلة . ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث . كان يسير ولا يبدو أن فرداً واحداً قد تعرف عليه . فشعر بحزن

وخيبة أمل . كيف لا يعرفه الناس بعد أن نشرت المجلة صورته ؟ وأخيراً أقنع نفسه بأن صور الأشخاص وأسماءهم لا تعلق بذاكرة الناس بسهولة . فكم من صور يراها الإنسان فى الصحف وإذا رأى أصحابها لا يتعرف عليهم . وكم من أسماء يذيعها الراديو ولا تعلق بذاكرة الناس . مئات الأسماء تتدفق من الراديو فى برنامج « ما يطلبه المستمعون » ولا يعلق منها اسم واحد فى ذاكرة المستمعين . إذ أن هذه الأسماء لا تهم سوى أصحابها أو بعض أقاربهم ، أما باقى الناس فلا يعيرونها أدنى اهتمام . مئات الصور يراها الناس فى الصحف ، ومئات الأسماء يسمعونها من الراديو ولا يهتم بها أحد . لابد أن تتكرر الصورة مئات المرات . ويتردد نفس الاسم مئات المرات لتعلق بعض الشىء بذاكرة الجماهير . لقد أدرك رمزى أن الطريق إلى الشهرة طويل ، طويل جداً ، فذاكرة الناس تحفظ الأسماء بصعوبة وتنساها بسهولة .

ووصل إلى معهد الموسيقى . فدخل المعهد . وأجرى تجارب بعض الأغانى الجديدة التى كانت الإذاعة قد طلبت منه تلحينها وغناءها . وانتهى من تلك التجارب وأصبح مستعداً للذهاب إلى الإذاعة فى الموعد المحدد يوم السبت القادم لتسجيلها . وفى أثناء عودته سمع إحدى أغنياته تنبعث من جهاز راديو صغير الحجم فى أحد أكشاك بيع السجائر . فوقف أمام هذا الكشك ينصت لأغنيته ، واضطر لشراء علبة سجائر ليبرر سبب وقوفه . أخرج من العلبة سيجارة وأشعلها وأخذ يدخنها وهو منصت للأغنية . كانت هذه أول سيجارة يدخنها فى حياته .

ولما انتهت الأغنية أراد أن يسمع اسمه يخرج من بين شفتى بائع السجائر فسأل البائع :

– ترى من الذى كان يغنى هذه الأغنية ؟

– مطرب جديد لم أنتبه لاسمه !

وسار مطرق الرأس نحو محطة السيارات العامة . وعندما وصلت السيارة انحشر فيها بين أكداس من الأجسام البشرية ، ولم يتعرف عليه أحد . ولكن الشىء الذى أثلج صدره أن أحد الباعة الجائلين قفز إلى السيارة وهو يردد إحدى أغانيه ، ومر أمام رمزى وداس على قدمه فتألم .

* * *

مرت عشرة أيام لم ير رمزى فى خلالها إلهاما . فلقد تعود أن يراها فى كثير من الأحيان من خلال النافذة عند عودتها إلى منزلها بعد الظهر . وفكر فى الذهاب إلى شقتها ليسأل عنها ، فقد تكون مريضة . ولكنه تردد فى الذهاب ، إذ بأية صفة يدخل منزلها ليسأل عنها ؟ إنه لا يعلم عنها الشىء الكثير . ولا يعلم شيئاً عن عائلتها . قد لا يرحبون بزيارته . بل إن إلهاما نفسها قد لا ترتاح لزيارته لها فى منزلها . وهو غير متأكد من عاطفته نحوها ، ولا يفكر فى الزواج فى الوقت الحاضر ، وبينما تدور فى رأسه هذه الأفكار دق جرس التليفون . فأسرع بالتقاط السماعة ، فإذا فى الطرف الآخر من الخط صوت نسائى يقول :

– منزل الأستاذ رمزى عبد الحميد ؟

– نعم . أنا رمزى .

– أريد مقابلتك لأمر هام . متى يمكننى أن أراك ؟

– وما هو هذا الأمر الهام ياترى ؟

– أمر يتعلق بمستقبلك . ستعرفه عندما نلتقى ، متى نتقابل ؟

- كما تشائين . مساء اليوم إذا أردت .

وأين نتقابل ؟

فى منزلى . إذا شئت .

فضحكت ضحكة رقيقة وقالت :

- أفضل أن يكون اللقاء فى منزلى أنا . ألديك مانع ؟

ففكر رمزى قليلا ثم قال :

- لا مانع لدى .

فقال الصوت النسائى :

- أنا أسكن فى الفيلا رقم ١٦ بشارع مظهر بالزمالك . وسأنتظرك اليوم . الساعة السابعة . إلى اللقاء .

وانتهت المحادثة التليفونية . وجلس رمزى وقد وضع رأسه بين يديه .

من تكون هذه السيدة أو الفتاة التى تحدثت إلىّ فى التليفون ؟ وماذا تريد منى ؟ ما هو الشىء الهام الذى يتعلق بمستقبلى ؟ هل أذهب إلى منزلها فى الموعد الذى حددته أو أتجاهلها ؟ ولماذا لا أذهب ؟ إننى أشكو من الوحدة . فعلى الرغم من سلم النجاح الذى بدأت أتسلقه إلا أننى أشعر بوحدة قاتلة . فأنا لا أعرف فى هذه المدينة الكبيرة سوى خادمى محمد وإلهام التى لا أكاد أعرف عنها شيئاً وبعض العازفين فى الفرقة الموسيقية التى تصاحبنى فى أثناء الغناء الذين تربطنى بهم صلة العمل . أما فيما عدا ذلك فدنياى خالية من الأصدقاء والمعارف . إننى أسير بين زحام البشر وكأننى فى صحراء جرداء . فقد يعيش إنسان بين ملايين الناس ويشعر بالوحدة فى حين أنه لا يشعر بالوحدة وهو فى صحراء مع بعض الأصدقاء . وأنا

لا أصدقاء لى ، فلماذا لا أذهب فى الموعد الذى حددته لى هذه الفتاة المجهولة ؟

* * *

فى الساعة السابعة وخمس دقائق من مساء ذلك اليوم كان رمزى واقفاً أمام باب الفيلا رقم ١٦ بشارع مظهر بالزمالك يضغط على زر الجرس . فتحت له الباب فتاة سمراء ترتدى ثوباً أبيض وكأنها ممرضة فى مستشفى . ابتسمت الفتاة ابتسامة عريضة كشفت عن أسنان ناصعة البياض وكأنها ومضات البرق فى ليلة مظلمة ، وقالت :

– الأستاذ رمزى ؟

– أجل .

– تفضل .

ودخل البهو فى الطابق الأرضى وأخذ يدير بصره فى أنحاء المكان . ما هذه الفخامة ؟ جميع الجدران مكسوّة بالخشب الثمين . والآثاث المتناثر فى أنحاء البهو رائع كأنه فى قصر أحد الملوك . والصور الزيتية المعلقة على الجدران والتحف والتماثيل التى فى الزوايا والأركان تدل على أن مبدعيها من كبار الفنانين .

شعر رمزى برهبة . وانتبه على صوت الخادمة السمراء تقول له مشيرة إلى أحد الكراسى الوثيرة التى بالبهو :

– تفضل اجلس . سيدتى ستأتى حالا

فجلس رمزى على ذلك الكرسى المواجه للسلم الخشبى الأنيق المؤدى إلى الدور العلوى للفيلا . وما هى الا لحظات حتى أبصر سيدة رائعة الجمال فى نحو الخامسة والأربعين ترتدى ثوباً أورجوانيا تهبط السلم وقد انبعث منها أريج عطر زكى . وقف

رمزى استعداداً لمصافحتها ، وأقبلت نحوه وقد انفرج ثغرها عن ابتسامة رقيقة وقالت وهى تصافحه :

– أهلا وسهلا يا أستاذ رمزى .

– أهلا بك

– تفضل

فجلس رمزى وجلست بالقرب منه . وسادت فترة صمت قصيرة قطعتها تلك السيدة عندما قالت :

– لقد أعجبت بك عندما رأيتك فى حفل « أضواء المدينة » بسينما « ريفولى » ، وأعجبنى صوتك . لم أسمع فى حياتى صوتا أجمل من صوتك ولا ألحانا أعذب من ألحانك . وسمعت صوتك فى الراديو عدة مرات . وأعتقد أن فناناً مثلك لابد أن يوضع فى المكان اللائق به . أنت فى نظرى أعظم موسيقى أنجبته بلادنا ، وأتوقع لك مستقبلا رائعاً .

استولى على رمزى خجل شديد فلم يدر ماذا يقول . وبعد فترة قصيرة قال :

– أشكرك من كل قلبى على هذا الشعور النبيل .

ومدت السيدة يدها إلى صندوق صغير مطعم بالصدف على مائدة بجوارها وفتحته فإذا هو مملوء بالسجائر . قدمت الصندوق لرمزى قائلة :

– تفضل سيجارة .

فقال رمزى :

– أشكرك . أنا لا أدخن .

فقالت السيدة وقد ارتفع حاجباها فى دهشة :

– لا تدخن ؟ ولماذا لا تدخن ؟

فلم يدر رمزى ماذا يقول . وبعد فترة صمت قصيرة قال :

– أخشى أن يؤثر التدخين على صوتى

فضحكت السيدة ضحكة رقيقة وقالت :

– تعجبنى شدة محافظتك على صوتك . أما أنا فليس لى صوت جميل كصوتك أحافظ عليه .

وأخرجت سيجارة وأشعلتها وجذبت منها نفساً طويلا وأخذت تنفث الدخان . وفى هذه اللحظة أقبلت الخادمة السمراء ذات الرداء الأبيض تدفع أمامها منضدة صغيرة تسير على أربع عجلات دقيقة ، عليها إبريق وفناجين وآنية من الفضة وكعكة كبيرة وشطائر كثيرة .

قطعت السيدة جزءاً كبيراً من الكعكة ووضعته فى طبق من الفضة ووضعت بجواره بعض الشطائر وناولت الطبق لرمزى الذى أخذه منها شاكراً ، ثم صبت له فنجاناً من الشاى وسألته :

– كم قطعة من السكر ؟

– ثلاث قطع .

فوضعت ثلاث قطع من السكر فى فنجان الشاى وأخذت تحرك الملعقة فى الفنجان حتى ذاب السكر . ثم وضعت الفنجان على منضدة صغيرة أمام رمزى

تصور رمزى نفسه فى هذه اللحظة وكأنه فى قصر من قصور ألف ليلة . قصر من القصور الخيالية . وبعد فترة صمت قالت السيدة :

– نتحدث الآن فى الموضوع الذى من أجله طلبت منك الحضور .

فنظر إليها رمزى وفى أعماق نفسه لهفة لمعرفة هذا الموضوع . واستمرت السيدة تقول :

أنا ولله الحمد غنية . لدى من الأموال ما لايعد ولا يحصى . وأريد أن أنفق بعض ما لدى من مال فى سبيل تدعيم مستقبلك ، فأنت تستحق كل خير ورعاية

فتعلثم رمزى وغمغم قائلا :

– أشكرك من كل قلبى على هذا الشعور وأتمنى أن أكون أهلا لذلك .

واستمرت السيدة تقول :

– لقد فكرت فى إنتاج فيلم سينمائى غنائى . كتبت أنا قصته ، وسأعهد به لأحد كبار المخرجين لإخراجه . وستكون أنت بطل هذا الفيلم .

مفاجأة مذهلة ! هل أنا فى حلم ؟ وهل سأصحو من هذا الحلم الجميل فأجد أن ما سمعته فى هذه اللحظة لم يكن سوى أضغاث أحلام ؟ إن هذا أجمل من أن يكون حقيقة . وقفزت فى ذهنه لحظات اليأس المظلم التى مرت به فى ذلك اليوم الذى كان قد صمم فيه على الانتحار ، وحديث ذلك الرجل الغريب الأطوار الذى وجده فى حجرته فى ذلك اليوم وكأنه هبط من السماء . وحال بينه وبين الانتحار واشترى رأسه بألفين من الجنيهات ! ورنت فى أذنيه فى تلك اللحظة كلمات ذلك الرجل وهو يقول : «قد تكون لديك موهبة لم تتح لها الفرصة لتظهر وتكتشف . ما رأيك فى أنك موسيقى موهوب ؟ أرأيت كيف كنت سبباً فى إسعاد إنسان لم تره عيناك ؟ منذ ذلك الحين وأنا أحرص على سماع أنغامك التى تعزفها بالناى قبل أن أنام . أنغام حزينة ولكنها جميلة . قد لا أكون مبالغاً إذا أخبرتك أنها

أجمل أنغام سمعتها فى حياتى » .

وانتزعه من ذكرياته وأفكاره صوت السيدة وهى تقول :

– هذا الفيلم سيدعم شهرتك ويظهر موهبتك ، فما رأيك ؟

– سأكون عاجزاً عن رد مثل هذا الجميل .

فضحكت السيدة وقالت :

– أنا لا أنتظر منك رد الجميل ، فأنا لا أعتبر هذا جميلا أسديه إليك ، بل أنت المتفضل . لقد وهبك الله أقصى ما يمكن أن يهبه لإنسان ، جعلك فناناً ذا موهبة والموهبة لا تقدر بكل ما فى الدنيا من أموال . وأنا أشعر بسعادة لا حدود لها عندما أكون سببا فى رفع إنسان ذى موهبة أصيلة إلى أعلى درجات المجد . نفس الشعور الذى تشعر به الأم عندما ترى ابنها وقد تبوأ أعلى درجات المجد والشهرة ولا تنتظر منه شكرا أو جزاء . وأنا لم أنجب أطفالا . كان زوجى مليونيراً . توفى وترك لى ثروة هائلة لا أعرف كيف أنفقها .

لم يستطع رمزى السيطرة على مشاعره فانسابت دموعه على خديه . فأخرج منديلا وصار يجففها . وتعمدت السيدة صب فنجان آخر من الشاى حتى لا تشعر رمزى بأنها رأت دموعه . ثم قالت :

– سأعطيك القصة لتقرأها ، وإذا أعجبتك فسوف يبدأ العمل فى الفيلم على الفور . وسيكون فى الفيلم خمس أغان .

قالت ذلك وهى غير ناظرة إليه حتى لا تحرجه عندما تراه يبكى . ثم قامت ودخلت إحدى الحجرات وعادت ومعها ظرف كبير سلمته لرمزى قائلة :

– هاهى القصة . اقرأها واتصل بى لتخبرنى عن رأيك فيها . وستجد اسمى

ورقم تليفونى بداخل هذا الظرف . وكن متأكداً من أننى أحب أن أراك . بيتى مفتوح لك على مصراعيه فى أى وقت تشاء .

قال رمزى بصوت متهدج .

– لست أدرى كيف أشكرك .

فضحكت السيدة وقالت :

– أنا التى أشكرك . أشكرك من صميم قلبى .

فقام رمزى وصافح هذه السيدة . ووجد نفسه ينحنى ويقبل يدها . وغادر المنزل وهو فى خجل من دموعه التى مازالت تنساب من عينيه . وعندما نظر إليها وهو يغادر باب الحديقة ، وجدها تبكى !

* * *

كان أول شىء فعله رمزى بعد أن ابتعد عن منزل هذه السيدة أن فتح الظرف الذى سلمته له باحثا عن اسمها . إنه لا يعرف اسمها حتى الآن . وفى لهفة قرأ الاسم فوجده « صفاء شاكر » .

* * *

ألقت صفاء جسدها المتعب على أحد كراسى البهو بعد أن غادر رمزى منزلها . وبدا وجهها شاحباً . نادت خادمتها بصوت ضعيف قائلة :

– يازعفرانة . زعفرانة

أقبلت الخادمة مسرعة . فابتدرتها السيدة قائلة :

– اطلبى الدكتور أيمن يازعفرانة . لقد عاودنى الألم .

فهرولت زعفرانة نحو التليفون وطلبت الدكتور أيمن . وهو الطبيب المشرف على علاج صفاء . ثم جلست على الأرض بجوار سيدتها وأمسكت بيدها ونظرت إليها فى صمت . ثم قالت لسيدتها :

– هل الألم شديد فى هذه المرة أيضاً يا سيدتى ؟

فقالت صفاء وعضلات وجهها تتقلص من الألم :

– بدأت أشعر بالألم عندما كنت أتحدث مع رمزى . ولكننى كتمت ألمى حتى لا يشعر بعذابى . لا أحب أن أُشْعِرَ أحداً بعذابى .

وبعد نحو عشر دقائق دق جرس الباب . أسرعت زعفرانة وفتحته ، فرأت الدكتور أيمن وفى يده حقيبته ، وهو رجل وقور فى نحو الستين من عمره . يضع أمام عينيه نظارة ذات عدسات سميكة لا يوجد حولها إطار .

أقبل الطبيب نحو صفاء التى لم تتحرك من مكانها وجلس بجوارها وسألها :

– متى شعرت بالألم فى هذه المرة ؟

قالت صفاء بصوت خافت :

– منذ نحو نصف ساعة . ألم شديد فوق طاقة البشر .

ثم خبأت عينيها بيدها وأجهشت بالبكاء . فحمل الطبيب حقيبته واتجه مسرعاً نحو قطعة أثاث بجوار الجدار . وضع الحقيبة فوقها وفتحها وأخرج منها حقنة ملأها بسائل امتصته الحقنة من زجاجة دقيقة الحجم ، وأسرع نحو صفاء وتناول يدها ، وغرس فيها إبرة الحقنة ودفع السائل فى دمها . أمسك يدها وأخذ يعد نبض القلب . ثم أسند يدها برفق فوق الكرسى الذى تجلس عليه . وسادت فترة صمت . ثم التفت نحو صفاء وقال :

- أتعشم أن يكون الألم قد تلاشى .

- بدأت تخف حدته ، ولكننى مازلت أتألم .

سيزول تماماً بعد لحظات .

فالتفتت صفاء إليه والدموع تملأ عينيها وقالت :

- سيزول الآن ليعود مرة أخرى . أنا تعبت . تعبت من الحياة !

وانهمرت الدموع من عينيها ، وسادت فترة صمت . ثم التفتت للطبيب قائلة :

- يادكتور أيمن ، أنا شجاعة لا أخشى الموت ، ولكننى لا أطيق العذاب . أريد أن أعرف بكل صراحة ، متى سأرتاح من هذا العذاب ؟ كم عاماً أو كم شهراً ، أو كم يوماً سيمتد بى العمر على سطح هذه الدنيا الفانية ؟

أطرق الطبيب فى حزن ولزم الصمت . فعادت صفاء تقول :

لم تجب عن سؤالى يادكتور : تأكد أننى لن أحزن لو أخبرتنى أننى سأغادر الدنيا غداً ، أو بعد ساعات . ولكننى أحب أن أعرف . لا أحب أن يغتالنى الموت على غرة دون أن أستعد للقائه . هناك أشياء أحب أن أنتهى منها قبل أن أموت . هذا هو كل ما يهمنى .

فنظر إليها الطبيب وقال :

أنت تسألينى عن شىء لا يعرفه إلا الله .

- ولكننى أسألك عن رأيك الخاص كطبيب خبير بمثل هذه الأمراض . عندما زرتنى أول مرة أخبرتنى أن الجراحة لا لزوم لها ، وفهمت من ذلك أن المرض قد سرى فى جسدى وانتشر وأصبحت السيطرة عليه مستحيلة .

قال الطبيب بعد فترة صمت :

– قد تحدث معجزة .

– ولماذا تحدث معجزة من أجلى ؟ أنا لا أستحق أن تحدث من أجلى معجزة .

وأراد الطبيب أن يغير مجرى الحديث فقال :

– يخيل إلى أن الألم قد زال الآن .

قالت صفاء وقد أدركت أنه لا يرغب فى الاستمرار فى مثل هذا الحديث :

– نعم . لا أشعر فى هذه اللحظة بأى ألم . شكراً لك يا دكتور .

وقامت ومدت إليه يدها مصافحةً ، فصافحها ، ثم اتجه نحو الباب .

١٥

عكف رمزى على قراءة القصة التى أعطتها له صفاء . إنها قصة امرأتين فى حياة موسيقى ذى موهبة أصيلة نادرة . الأولى تزوجها فكانت سبباً فى تحويل حياته إلى جحيم لا يطاق . قتلت موهبته وألقت به فى هاوية اليأس والتشرد والضياع . وانفصلت عنه عندما أفل نجمه وخبا ضوؤه . وتزوج الثانية فانتشلته من ظلام اليأس والشقاء وأعادت إليه ثقته بنفسه ودفعته من جديد إلى قمة المجد .

أعجبت رمزى القصة ، فأدار قرص التليفون واتصل بصفاء وأخبرها بذلك فطلبت منه الحضور إلى منزلها .

فتحت له الباب الخادمة السمراء زعفرانة وقادته إلى غرفة جلوس لم يكن قد رآها فى الزيارة السابقة . وبعد لحظات أقبلت صفاء مبتسمة ، وجلست بالقرب منه وقالت :

– هل أعجبتك القصة حقاً ؟

– إنها قصة رائعة .

فأشعلت صفاء سيجارة وسحبت من خلالها نفساً طويلا ثم نفثت الدخان وقالت :

- إنها قصة حياتى !

فبدت الدهشة على وجه رمزى وقال :

- هل كان زوجك فناناً ؟

فابتسمت صفاء وقالت :

- كلا . لم يكن فناناً . كان من رجال الأعمال . ولكننى جعلته فى القصة موسيقيًّا لتصبح أنت بطل الفيلم . وعلى العموم قد يكون من المستحسن تغيير بعض الأشياء عندما نحول الحياة إلى قصة . فهى ليست سرداً تاريخياً . بل فكرة تعبر عنها قصة .

فنظر إليها رمزى وعلى فمه ابتسامة وقال :

- وما هى القصة الحقيقية ياترى ؟

قالت صفاء :

- أنا لا أذكر أبى . فلقد توفى وأنا دون الثانية من عمرى . وتوفيت والدتى وأنا فى نحو الخامسة . كان والدى موظفاً فقيراً لم يترك لى ما أستعين به على مواجهة معركة الحياة . عطف علىَّ أحد أصدقاء أبى فأخذنى أعيش فى منزله . كانت له زوجة شريرة حولتنى إلى خادمة أمسح الأرض وأنظف الأثاث وأحضر لهم ما يلزمهم من الأسواق . ولكن زوجها كان رجلا فاضلا لم يشأ أن يحرمنى من التعليم على الرغم من معارضة زوجته فى ذلك . وكان لهذا الرجل ابن وحيد يدرس الهندسة . أحببته . أحببته من كل قلبى . فلقد كان عطوفاً . وتزوج هذا الابن بعد أن أصبح

مهندساً ، وظل يصعد سلم المجد والثروة بخطى سريعة . ولكن زوجته قوضت أركان حياته حتى أشرف على حافة الجنون. فأهمل عمله وتشرد وتركته وهو حطام. وتوفى والده بأزمة قلبية حزناً على ما آل إليه مصير ولده . ولحقت والدته بأبيه بعد أقل من عام . فى هذه الفترة العصيبة أحبنى هذا الرجل ، وتزوجنى . هيأت له كل أسباب السعادة وأخذت بيده أعينه على تسلق سلم النجاح حتى بلغ قمة المجد والثروة فى سرعة الصاروخ .

ثم أطرقت للأرض برهة وسحبت نفساً من سيجارتها وقالت :

– إننى أمتلك موهبة من نوع غريب . فى مقدورى أن أدفع أى إنسان إلى قمة المجد .

ثم توقفت عن الحديث ولمعت الدموع فى عينيها وقالت :

ولكن ، بنفس السرعة التى وصل إليها زوجى إلى قمة الثروة ، فقدته ، فقدته فى لحظة . فى لحظة رهيبة . فى حادث طائرة .

كان رمزى مطرقاً للأرض وهو ينصت لقصة صفاء . ثم التفت إليها وقال :

ولكن القصة التى قرأتها نهايتها سعيدة .

فابتسمت صفاء ، وقالت :

– لابد للخيال أن يلعب دوراً .

قال رمزى :

– الحقيقة والخيال كلاهما رائع .

وسادت فترة صمت قطعتها صفاء عندما قالت :

– ترى من هو المخرج الذى ترشحه لإخراج هذا الفيلم؟

فابتسم رمزى وقال :

– أعتقد أنك أقدر منى على اختيار المخرج .

قالت صفاء بعد فترة تفكير قصيرة :

– يخيل إلى أن عاطف صلاح هو أصلح مخرج لهذا الفيلم . إنه من أقدر المخرجين على تدريب الوجوه الجديدة . وأنا أرى أن يكون جميع أبطال الفيلم رجالا ونساء من الوجوه الجديدة . إننى أجد لذة فى تهيئة فرصة الشهرة والمجد لأى إنسان .

فنظر إليها رمزى وقال :

– أنت سيدة عظيمة ذات قلب كبير .

ضغطت صفاء على أحد الأزرار بجوارها ، فدق جرس أقبلت على أثره الخادمة زعفرانة مسرعة . طلبت منها صفاء أن تحضر لها التليفون ودفتر التليفون .

قالت وهى ترفع السماعة وتدير القرص :

– سأتصل بعاطف صلاح .

وحملت الأسلاك صوت فتاة عند الطرف الآخر من الخط تقول :

– آلو .

فقالت صفاء :

– الأستاذ عاطف موجود ؟

– لا

– هل تعرفين أين ذهب ؟

– كلا . لا أعرف .

– أريد الاتصال به لأمر هام . فمتى أستطيع أن أجده بالمنزل ؟

– قبل العاشرة صباحا .

– أشكرك .

وضعت السماعة فى مكانها وقالت لرمزى :

– سأتصل به غداً قبل العاشرة صباحاً ، وسأتصل بك .

* * *

فى الساعة التاسعة وخمس دقائق من صباح اليوم التالى اتصلت صفاء تليفونياً بمنزل المخرج فوجدته فى منزله . أخبرته بالموضوع فقال لها إنه سيكون عندها بعد نحو ربع ساعة كما اتصلت برمزى وطلبت منه الحضور .

بعد نحو ربع ساعة كان المخرج يضغط على زر جرس الفيلا . فتحت له الخادمة السمراء وقادته إلى حجرة الجلوس . رحبت به صفاء . وجلس المخرج منتظراً منها أن تبدأ الحديث . وبعد فترة قصيرة قالت صفاء :

– أعتقد أنك استمعت إلى صوت رمزى عبد الحميد وهو يغنى .

فقال المخرج مبتسما وهو مطرق للأرض :

– لم تتح لى فرصة الاستماع إلى غنائه ، ولكننى قرأت عنه فى إحدى الصحف .

قالت صفاء :

– إن صوته أجمل صوت سمعته فى حياتى . وعلاوة على ذلك فهو فنان أصيل ، يلحن أغانيه كما قام بتلحين أغان لبعض المطربين .

– يوسفنى أننى لم أستمع إليها .

– جميع ألحانه رائعة . وسيغنى فى الفيلم خمس أغان ويضع موسيقى الفيلم وألحانه .

قال المخرج :

– أعتقد أن رمزى لم يسبق له التمثيل .

– كلا . سيكون هذا أول أفلامه .

فأطرق المخرج إلى الأرض وقد بدا عليه الارتباك ، ثم قال وفى حديثه رنة سخرية :

وفى أول فيلم سيكون بطلا فى التمثيل والموسيقى والغناء ؟ !

قالت صفاء :

– لن تندم على ذلك . أنا أعرف كيف أختار .

لقد أعجبك صوته ، ولكن هل أنت واثقة من قدرته على التمثيل ؟ الموسيقى والغناء شىء والتمثيل شىء آخر .

أنا واثقة منك أنت . واثقة فى قدرتك على تدريبه على التمثيل .

فأطرق المخرج وبدا وكأنه يفكر تفكيراً عميقاً ثم قال :

– سأبذل كل جهدى .

ثم أردف قائلا :

– ليس كل موسيقى أو مطرب صالحاً للتمثيل ، ومن الناس من لا يصلح للتمثيل إطلاقاً مهما تلقى من تدريب وتعليم . لابد من وجود بذور الموهبة . لابد من البذرة لكى تنمو الشجرة . لاشىء يأتى من العدم . الله وحده هو القادر على خلق أشياء من العدم .

فأطرقت صفاء إلى الأرض وأخذت تفرك يديها فى حركة عصبية ثم قالت :

– لقد كتبت القصة من أجله ، لكى يصبح نجماً ساطعاً . وإذا لم يصلح

للبطولة فلن تكون لدى أية رغبة فى إنتاج هذا الفيلم .

– على أية حال سوف أرى . قد يكون قادراً على التمثيل . وسأكون مسئولا عن نجاح الفيلم أو فشله . وإذا وجدت أن مستواه فى التمثيل لا يرقى إلى المستوى الذى ينبغى أن يتوفر فى البطل فلن أجازف بسمعتى . فى هذه الحالة سأجد نفسى مضطراً للاعتذار عن إخراج الفيلم .

وفى هذه اللحظة دق جرس الباب . فأسرعت زعفرانة وفتحته فوجدت أمامها رمزى . قادته إلى غرفة الجلوس .

عندما دخل الغرفة قامت صفاء وصافحته . كما وقف المخرج وصافحه وقدمت كلاً منهما للآخر . وجلس الجميع . وساد الصمت وظلت صفاء مطرقة للأرض واضعة ساقاً فوق ساق وأخذت تهز ساقها فى حركة عصبية . وفى هذه الأثناء دخلت زعفرانة تدفع أمامها عربة الشاى . وعندما انتهوا من شرب الشاى وتناول الفطائر والحلوى سأل المخرج :

– هل يمكن أن أطلع على القصة ؟

كانت القصة موضوعة داخل ظرف على منضدة بجوار صفاء . ناولت الظرف للمخرج قائلة :

هاهى القصة وأتمنى أن تعجبك .

قال المخرج :

– هل يمكن أن أسمع منك ملخصها ؟

سردت صفاء ملخص القصة للمخرج فقال :

الموضوع جميل . من مؤلفها ؟

قالت صفاء :

– أنا التى كتبتها .

فأخرج المخرج القصة من الظرف وأخذ يتصفحها ثم قال :

– ولكن القصة لا تزال بدون عنوان . فماذا تقترحين عنواناً لها ؟

فكرت صفاء قليلا ثم قالت :

– أرى أن يكون عنوانها « البعث » .

فأطرق المخرج لحظة ثم قال :

– عنوان جميل يعبر عن موضوع القصة . فالزوجة الثانية بعثت الفنان للحياة من جديد بعد أن تركته الزوجة الأولى وكأنه أنقاض منزل قوضه زلزال عنيف . سأقرؤها الليلة وإذا احتاجت لبعض التعديلات فسوف أتشاور معك فيها .

ثم قال موجها حديثه لرمزى :

– أنا ذاهب الآن إلى ستديو مصر للإشراف على بعض عمليات المونتاج والدوبلاج فى الفيلم الذى انتهيت من تصويره ، فهل من الممكن أن تأتى معى لإجراء بعض الاختبارات فى التمثيل ؟

قال رمزى :

– بكل سرور

* * *

لو أن عرافة تنبأت لى منذ سنوات أننى فى يوم من الأيام سأركب بجوار مخرج سينمائى من أعظم المخرجين فى بلادنا والسيارة تنطلق بنا نحو ستوديو مصر لاتهمتها بالغباء ولاعتبرت تنبؤها ضربا من الهذيان . ولكن هأنذا ذاهب إلى الاستديو بصحبة

المخرج عاطف صلاح لإجراء اختبارات فى التمثيل . هل من المعقول أن أصبح كوكباً سينمائيا ؟ هل سأجتاز الاختبار بنجاح ؟ صفاء شخصية غريبة . إنها تدفع بى نحو المجد . ولكن لماذا تفعل ذلك ؟ شخصيتها يكتنفها الغموض . لقد هيأت لى فرصة لم أكن أحلم بها . هل هذه هى الأهرام ؟ إن أكبرهم هرم خوفو . لماذا لم أفكر فى زيادة منطقة الأهرام . هل يصدق أحد أننى أراها الآن لأول مرة فى حياتى بينما يأتى السياح لرؤيتها من أقصى البلاد ؟ ! أخشى أن تسقط بنا السيارة فى هذه الترعة . إنها أكثر اتساعا من ترعة قريتى . لم تكن بهذا الاتساع . كنت أجلس على شاطئ الترعة وأذاكر . كنت أحب المذاكرة والقراءة . جلست على شاطئ الترعة أبكى عندما ماتت أمى . كانت ستدعو لى بالتوفيق والنجاح فى اختبار التمثيل هذا . كانت تدعو لى كثيراً فى صباح كل يوم من أيام الامتحان . كنت أتمنى أن تكون على قيد الحياة . هى وأبى وأختى . . . هل تفرح الأرواح وتحزن كما يفعل الأحياء ؟ ربما . من يدرى ؟

وانتزع رمزى من أفكاره وذكرياته صوت المخرج عندما قال :

– هل تعرف السيدة صفاء منذ زمن طويل ؟

– كلا . لم أرها إلا منذ أيام قلائل .

قال المخرج وكأنه يحدث نفسه :

– شىء غريب .

– وما وجه الغرابة فى ذلك ؟

– إنها مهتمة بك اهتماماً كبيراً . قالت لى إنها تنتج هذا الفيلم من أجلك . حسبْت أنها تمت إليك بصلة القرابة . أو بينكما صداقة وطيدة . هل أنت الذى

اتصلت بها ؟

– كلا . هى التى اتصلت بى ولم تكن تربطنى بها أية صلة أو معرفة .

ثم لزم المخرج الصمت وحرك عجلة القيادة فانحرفت السيارة إلى اليسار واجتازت باب الاستديو . توقفت السيارة وهبطا منها وسار رمزى بجوار المخرج وقد لزما الصمت .

هل هذا هو الاستديو الذى تصنع فيه الأفلام ؟ ما هذا ؟ بيوت من الطين ؟ هل من المعقول أن يكون فى هذا المكان بيوت مبنية بالطين ؟ إنها حارة تذكرنى بالحارة التى نشأت فيها فى قريتى . هذا المنزل يشبه منزلنا تماما .

وظل سائرا بجوار المخرج صامتاً لا يعلم إلى أين هو ذاهب . وحانت منه التفاتة نحو الحارة فوجد الجهة الخلفية لمنازلها خاوية جرداء لا يبدو منها سوى ألواح من الخشب ومساحات من الخيش .

يبدو أن أحد مناظر الفيلم تدور أحداثه فى قرية . إذ صور من الجهة الأمامية بدا مثل قريتنا . ولكنه من الخلف لا يدل على أى شىء أهكذا تصور المشاهد فى السينما ؟ شىء عجيب .

واستمر سائراً مع المخرج ملتزماً الصمت . اجتازا معاً أحد الأبواب . سارا فى ممر طويل . وصلا إلى غرفة صغيرة . رجل جالس أمام منضدة عليها جهاز به شاشة صغيرة الحجم تبدو فيها مشاهد وتنبعث منها أصوات وموسيقى . ظل رمزى واقفاً عند باب الغرفة ودخل المخرج وتبادل مع الرجل الجالس أمام الشاشة حديثاً قصيراً ثم عاد إلى رمزى وقال :

هيا بنا نلتقط لك بعض الصور .

اجتازا ممرًّا آخر واتجها معاً نحو اليمين ثم خرجا من باب المبنى ودخلا مبنى آخر . سارا معاً فى دهليز واتجها إلى اليسار ثم وصلا إلى غرفة متوسطة الحجم بها بعض الكراسى والستائر . قال المخرج لرمزى :

– اجلس هنا وسأعود إليك .

عاد المخرج بعد لحظات وبصحبته رجل قصير مستدير الوجه يحمل فى إحدى يديه آلة تصوير وتحت إبط المخرج دفتر كبير الحجم .

التقط الرجل لرمزى عدة صور من زوايا مختلفة . قال المخرج للمصور :

– أرجو أن يتم التحميض والطبع فى الحال ليتسنى لى رؤيتها الآن .

غادر المصور الغرفة وبقى المخرج مع رمزى . فتح المخرج الدفتر الذى كان تحت إبطه وأخذ يتصفحه . ثم طلب من رمزى قراءة بعض الحوار الذى كان فى إحدى صفحاته .

أخذ رمزى يقرأ الحوار . قال المخرج :

– لا تقرأه بهذه الطريقة . أريد منك أن تقرأه متقمصا شخصية صاحب هذا الحديث . إنه رجل اكتشف خيانة زوجته بعد زواج دام عشرين عاما . ستقرأ أنت الحوار الخاص بالرجل وسأتلو أنا الحوار الخاص بالزوجة .

وقف المخرج بجوار رمزى ناظراً إلى الصفحة المفتوحة أمامه وبدأ رمزى الحوار متقمصاً شخصية الزوج والمخرج يرد عليه متقمصا شخصية الزوجة . وبعد فترة لم يدرك رمزى طولها قال المخرج :

– يكفى هذا .

طوى المخرج الدفتر ووضعه تحت إبطه وسارا معاً فى ممرات عديدة ووصلا إلى

غرفة . دخل المخرج الغرفة وبقى رمزى عند بابها ، وبعد لحظات خرج المخرج . وفى يده مظروف متوسط الحجم لا يدرى رمزى ما بداخله . وسارا معاً فى اتجاهات كثيرة ثم خرجا من أحد الأبواب فوجد رمزى نفسه أمام الحارة التى رآها عند دخوله الاستوديو . استقلا السيارة التى انطلقت بهما نحو المدينة . نظر رمزى إلى اليسار فرأى أهرام الجيزة وأبا الهول .

لماذا يلزم الصمت ؟ لماذا لا يخبرنى عن نتيجة الاختبار ؟ ما الذى بداخل هذا الظرف ؟ هل هى الصور التى التقطها لى المصور ؟ لماذا لا يطلعنى عليها ؟ لماذا لا ينطق ؟ إننى فى شدة الشوق لمعرفة نتيجة التصوير ونتيجة الاختبار . ألا يدرك شدة لهفة إنسان مثلى ينتظر معرفة مصيره ؟ هل أسأله ؟ كلا لن أسأله . ولكن لماذا لا أسأله ؟

– ترى هل اجتزت الاختبار بنجاح ؟

– لست أدرى !

ليس يدرى ؟ ومن الذى يدرى إذن . لابد أننى فشلت فى الاختبار . لاداعى لأن أصبح كوكباً سينمائياً . يكفى أن ألحن وأغنى وأؤلف موسيقى يعجب بها الناس .

وقطع المخرج فترة الصمت التى طالت عندما قال :

– هل تنوى الذهاب إلى منزلك الآن يا أستاذ رمزى ؟

– أجل

– سأوصلك إلى المنزل . أين تسكن ؟

ذكر له رمزى عنوانه وانطلقت السيارة نحو هذا العنوان ، ووقفت أمام باب عمارة رمزى . فشكر المخرج وغادر السيارة ودخل من باب العمارة . كان المصعد عند

الطابق الأرضي فدخله رمزى وضغط على الزر الذى يوصله إلى الدور الذى يسكن فيه وتحرك المصعد إلى أعلى .

عندما دخل شقته فوجئ بوجود الخادم محمد يرقص بطريقته الخاصة على أنغام موسيقى تنبعث من الراديو . وعندما رأى رمزى ارتبك وأسرع بفك الحزام الذى كان قد لفه حول وسطه ووقف ناظراً إلى رمزى مبتسماً ببلاهة . طلب منه رمزى أن يعد له فنجانا من القهوة فأسرع بتلبية طلب سيده واختفى داخل المطبخ .

١٦

فى مساء اليوم نفسه أوقف المخرج سيارته أمام منزل صفاء. قال لها :

– لقد قرأت القصة وأعجبتنى . واختبرت قدرة رمزى على التمثيل والتقطنا له عدة صور فوتوغرافية .

ثم أطرق للأرض . قالت صفاء بلهفة :

– وما رأيك فيه ؟ هل اجتاز الاختبار بنجاح ؟

ظل المخرج مطرقاً للأرض فترة من الزمن وعينا صفاء مصوبتان نحوه تكادان تخترقان أعماقه . رفع المخرج رأسه ونظر إلى صفاء التى أطل القلق من عينيها وقال :

– شكله وسيم وجذاب فى جميع الأوضاع ولكن . . .

قالت صفاء وقد شحب لونها :

– ولكن ماذا ؟

– ولكنه ضعيف فى التمثيل

– من الممكن تدريبه

– أخشى أن يحتاج تدريبه إلى وقت طويل . من الأفضل اختيار بطل غيره ، وفى هذه الحالة سوف يقوم رمزى بوضع الموسيقى التصويرية للفيلم وتلحين الأغانى .

أشاحت صفاء بوجهها وأخذت تعبث بحافة الكرسى فى حركة عصبية ثم قالت :

– أنا أختلف معك فى هذا الرأى . ما من أحد لا يستطيع التمثيل لو أحسن تدريبه . كلنا نمثل . من منا لم يمثل ويحسن التمثيل فى لحظة من لحظات حياته ؟

– ولكن نجاح الفيلم يتوقف إلى حد كبير على قدرة البطل على التمثيل .

– أنا واثقة كل الثقة من قدرتك على أن تجعل منه كوكباً ناجحاً . أنا أيضاً يهمنى نجاح الفيلم ، وسيكون رمزى أحد عوامل هذا النجاح . عن إذنك لحظة .

وقامت وصعدت السلم ثم هبطت وفى يدها ظرف . جلست ثم فتحت الظرف وأخرجت نسختين من العقد ، سلمتهما للمخرج قائلة :

هاهو ذا العقد ، وإذا وافقت على ما فيه أرجو أن تضع إمضاءك على النسختين . قرأ المخرج العقد وعلم أن أجره على إخراج الفيلم سيكون ستة آلاف جنيه يتسلم نصف المبلغ عند إمضاء العقد والنصف الباقى عند الانتهاء من التصوير وإعداد الفيلم للعرض ، كما نص على أن يكون رمزى هو البطل ، وبطلتا الفيلم من الوجوه الجديدة ، فأخرج قلمه فى صمت ووضع إمضاءه وسلم صفاء إحدى النسختين واحتفظ بالنسخة الأخرى ، وقبل أن ينتهى من وضع العقد فى محفظته امتدت له يد صفاء بالشيك فأخذه ووضعه مع العقد

وقبل أن يهم المخرج بالقيام سألته صفاء :

- ألديك فكرة عن الوجوه النسائية التى ستعمل بالفيلم ؟

قال المخرج بعد لحظة تفكير :

– لدى فكرة عن الفتاة التى ستحطم الفنان ولكنى سأواصل البحث عن الفتاة الأخرى التى سترفعه إلى المجد . مثل هذه الفتاة لابد أن تكون ذات صفات خاصة .

* * *

كتب المخرج سيناريو الفيلم بنفسه واتفق مع الشاعر الكبير أحمد سامى على اختيار مواضع الأغانى وكتابة كلماتها . ولما انتهى الشاعر من كتابة الأغانى سلمها المخرج لرمزى لتلحينها

عكف رمزى على تلحين الأغانى ، فكان يقضى النهار بطوله وشطراً من الليل مكباً على التلحين وأهمل الطعام فشحب لونه وغارت عيناه .

وفى صباح أحد الأيام بينما كان مشغولا بتلحين إحدى أغانى الفيلم دق الجرس . فأسرع وفتح الباب ، فوجد إلهاما . لم يكن قد رآها منذ حفل أضواء المدينة ، وتعجب من قدومها إليه فى ذلك الصباح المبكر . كانت فى يدها صحيفة أعطتها لرمزى قائلة وفى صوتها لهفة ورنة فرح :

– أرأيت هذا ؟

نظر رمزى إلى الصحيفة فأبصر شيئاً غريباً . رأى صورته تملأ نصف مساحة إحدى صفحات هذه الصحيفة اليومية الكبرى ومعها إعلان عن فيلم « البعث » إعلان ضخم عن ذلك الفيلم الذى يستعد لبطولته مكتوب هكذا :

« قريباً على شاشة السينما التحفة الرائعة « البعث » بطولة رمزى عبد الحميد وإخراج عاطف صلاح »

ولم يذكر الإعلان أية أسماء أخرى . شعر رمزى بالفرحة والنشوة تسريان فى جسده ، ورفع رأسه عن الصحيفة ليشكر إلهاما على هذه البشرى التى حملتها إليه فى

ذلك الصباح الجميل ، لكنه لم يجدها . كانت قد اختفت ولا يدرى هل دخلت شقتها أو هبطت سلم العمارة .

أسرع رمزى إلى التليفون واتصل بالمخرج ليشكره على هذا الإعلان ، ولكنه وجده خالى الذهن ولا علم له به . لم يكن قد اطلع على صحف الصباح وأكد لرمزى أنه لا علاقة له بهذا الإعلان .

وبعد نحو ساعة دق جرس التليفون فى منزل رمزى ، فالتقط السماعة وسمع صوتاً رقيقاً يقول :

- صباح الخير .

- صباح النور . من حضرتك ؟

- أنا صفاء ، ألا تعرف صوتى ؟

قال رمزى بلهفة :

- أهلا وسهلا ، صباح الخير .

فضحكت صفاء ضحكة رقيقة وقالت :

- هل قرأت صحف الصباح ؟

- قرأت صحيفة واحدة ، وشاهدت الإعلان .

- ستجد الإعلان نفسه فى جميع صحف الصباح والمساء وفى جميع المجلات بلا استثناء .

صاح رمزى فى فرح :

- غير معقول : فى جميع الصحف والمجلات ؟

فضحكت صفاء وقالت :

– ما رأيك فى الإعلان ؟ هل أعجبك ؟

– إعلان رائع

– أنا التى أرسلته للصحف والمجلات ، وسيتكرر ظهوره فى جميع الصحف لألفت إليك الأنظار .

قال رمزى وقد تهدج صوته من فرط التأثر :

– اشكرك من كل قلبى . أشكرك جزيل الشكر .

ضحكت صفاء وقالت :

لا شكر على واجب .

– ولكن لماذا لم تذكرى اسمك فى الإعلان وأنت مؤلفة القصة ؟

ضحكت صفاء وقالت :

لقد أنتجت الفيلم من أجلك ولا يهمنى مطلقاً أن أكون مؤلفة . وماهى أخبار الألحان ؟

– أتممت تلحين ثلاث أغان .

– أدعو لك بالتوفيق ، وأحب أن تسمعنى ألحانك فى منزلى عندما تنتهى منها . لابد أنها ستكون رائعة . أنا مشتاقة لسماعها .

فاحتار رمزى ولم يدر ماذا يقول ، وبعد فترة قصيرة قال :

– ستكون رائعة بفضل تشجيعك لى .

ضحكت صفاء ضحكتها الرقيقة وقالت :

– أنت صاحب الفضل . إلى اللقاء .

لماذا توليني صفاء كل هذا العطف وكل هذا الاهتمام ؟ لماذا تدفع بى نحو الشهرة

والمجد بكل ما تملك من قوة ؟ هل كل هذا لأنها مؤلفة القصة ؟ لا أظن . هل تهدف لغرض معين ؟ هل ترمي شباكها حولي لتتزوجني ؟ إنها تكبرني بأعوام كثيرة ، ولكن هذا لا يمنع فهي لا تزال رائعة الجمال .

شعر رمزي بشيء من الارتباك

إلهام فتاة جميلة وفقيرة ، وصفاء امرأة ناضجة ، لديها من الأموال ما لا يعد ولا يحصى . يمكنها أن تنتج فيلما كل شهر لو أرادت . يمكنها أن تجعل اسمي على كل لسان . إنني في أشد الحاجة إليها .

ثم وجد نفسه يقارن بين صفاء وذلك الرجل الغريب الأطوار الذي اشترى رأسه .

كلاهما منحاني شيئاً . الرجل الغريب منحني ألفين من الجنيهات ، وصفاء منحتني الشهرة والمجد .

وعند ذلك قفزت في ذهنه فكرة حزينة حجبت كل ما عداها من أفكار .

إن صفاء حتى الآن لم تسلمني العقد الخاص بي ، ولم آخذ منها حتى هذه اللحظة مليماً واحداً وأنا بطل الفيلم . لماذا لم تمنحني ولو جزءاً من الأجر ، إنها لم تفاتحني في هذا الموضوع . ما هدفها من ذلك ؟ ربما يكون في نيتها استغلالي بلا أجر . إذا كان الأمر كذلك فسأكون ضحية استغلال بشع . إن ذلك الرجل الغريب منحني المال بلا مقابل . لا شك أنه رجل طيب خير أراد مساعدتي بطريقة مستترة فاخترع مسألة شراء رأسي ليوهمني أنه أخذ مني شيئاً في مقابل المال الذي أعطاه لي ، ومسألة شراء رأسي مسألة وهمية بلا شك ، فهأنذا أحيا حاملا رأسي فوق كتفي ولم ينقص مني شيء . إنه نوع من الإحسان المستتر . لقد أعطاني ألفين من

الجنيهات بلا مقابل فى واقع الأمر ، فهو لم يأخذ منى شيئاً حقيقيًّا . ولكن هذه المرأة ، صفاء ، تنوى استغلالى بلا مقابل ، فهى لم تمنحنى مليماً واحداً حتى الآن .

ولكن يكفى أنها مهدت أمامى فرصة المجد والشهرة ليتألق نجمى ويصبح اسمى على كل لسان .

واختلطت الأفكار فى رأسه وأصبح وكأنه يسير فى ضباب يحجب عن عينيه حقيقة الأشياء ، فلم يعد فى استطاعته التمييز بين الأبيض والأسود .

* * *

انتهى من تلحين جميع أغانى الفيلم وتدوينها على الورق ، فتناول سماعة التليفون ليزف للمخرج هذه البشرى . ولكن المخرج لم يكن فى منزله فى تلك اللحظة فشعر بشىء من الضيق ، وتذكر أن صفاء كانت قد طلبت منه سماع الأغانى بعد الانتهاء من تلحينها فاتصل بها تليفونيًّا فطلبت منه الحضور إلى منزلها فى الحال . وضع العود داخل جرابه الأحمر وقبض عليه من رقبته بقوة وكأنه يخشى على الألحان أن تهرب منه ، وترك المنزل متوجهاً إلى منزل صفاء .

وبينما هو يهم بالخروج من باب العمارة ، أبصر الرجل ذا الجبهة المجروحة يحاول الاختفاء عن عينى رمزى خلف كشك لبيع الحلوى والمثلجات بالقرب من المنزل ، فلم يعره اهتماماً ووقف فى انتظار تاكسى ، فلم يجد تاكسيًّا . سار بضع خطوات ونظر إلى الخلف فإذا بالرجل يسير خلفه . فى هذه اللحظة مر تاكسى أشار إليه رمزى فتوقف ، وركبه متوجهاً نحو منزل صفاء .

هبط رمزى من التاكسى عند باب فيلا صفاء ، وبينما هو يعطى السائق أجره

حانت منه التفاتة فوجد تاكسيًا آخر يقف بالقرب منه يطل منه الرجل ذو الجبهة المجروحة

دخل رمزى منزل صفاء وجلس فى البهو فى انتظار قدومها . بعد نحو خمس دقائق أقبلت وعلى شفتيها نفس الابتسامة الرقيقة . صافحته وجلسا معاً فى الصالون الداخلى . التفت إليها وقال :

– أنت أول من يسمع ألحان الفيلم ، إذا استثنينا خادمى محمدا الذى استمع إليها بحكم وظيفته

ضحكت صفاء وقالت :

– أنا أحسد خادمك الذى سمعها قبلى . أنا فى شدة الشوق لسماع ألحانك .

أخرج رمزى العود من جرابه وأخذ يداعب أوتاره ويضبط أنغامه فترة من الوقت ثم قال :

ها هو اللحن الأول .

وغنى الأغنية الأولى ثم الثانية ثم الثالثة ثم الرابعة ثم الخامسة . كانت صفاء فى هذه الأثناء صامتة تصغى إلى الألحان بكل جوارحها . وعندما انتهى من الغناء نظر إليها فإذا بها تمسح دموعاً انسابت على خديها وقالت :

– لم أسمع فى حياتى أجمل من هذه الألحان . أنت فنان أصيل . فنان عظيم .

وقامت وغابت نحو خمس دقائق وعادت وفى يدها ظرف أبيض سلمته لرمزى قائلة :

– فى هذا الظرف نسختان من العقد لإمضائهما ، وشيك بمبلغ عشرة آلاف جنيه . وهذا المبلغ هو مقدم الأجر ، أما باقى الأجر فهو جميع أرباح الفيلم !

قال رمزى وهو غير مصدق لما تسمعه أذناه :

– عشرة آلاف جنيه علاوة على جميع أرباح الفيلم لى أنا ؟ !

ثبتت صفاء نظرها فى عينى رمزى لحظة ثم قالت :

– أنت تستحق أكثر من ذلك . أنت لا تعرف قدر نفسك ، ولكننى أعرف قدر الناس ولست فى حاجة لمزيد من المال وأرجو أن يظل الأجر الذى ستتقاضاه سرا بيننا .

اغرورقت عينا رمزى بالدموع وهم بالقيام فسألته صفاء :

– إلى أين أنت ذاهب ؟

– إلى منزلى .

– كلا . لا تخرج الآن . تعال معى .

أمسكت يده فى رفق وقادته إلى غرفة ما أن دخلها حتى اتسعت عيناه من الدهشة واستولى عليه الذهول .

كانت الغرفة تبدو وكأنها ممتدة إلى مالا نهاية ! شعر كأنه يسير فى غابة تزدحم بالأشجار الباسقة ، وأخذ يدير بصره فى أنحاء الغرفة . كان سقفها فى لون السماء وفى هذه السماء طيور تنعكس عليها الأضواء . جداران متقابلان من جدرانها من البلّور ، وفوق مرآة أحد الجدارين رسوم بارزة متعددة الألوان ، وكأنها إحدى تحف ميكل أنجلو تبدو فيها الأشجار والحيوانات البرية . وهذا المنظر ينعكس على المرآة التى تملأ الجدار المقابل فتبدو الغابة فى المرآة وكأنها ممتدة إلى نهاية الكون !

وتحت كل مرآة بوفيه فاخر وفى وسط الغرفة مائدة للطعام من الأبنوس يلتف حولها عدد كبير من الكراسى الفاخرة وعلى المائدة ألوان من الطعام كثيرة . وبالغرفة

نافذة عريضة مغلقة .

جلست صفاء عند رأس المائدة وطلبت من رمزى الجلوس بالقرب منها :

– تفضل يا أستاذ رمزى . أريد أن تمنحنى شرف العشاء معى فى هذه الليلة .

أنا رمزى عبد الحميد الذى كنت على وشك الانتحار منذ أشهر قلائل ليأسى من الحياة عندما فشلت فى كل عمل وعزت علىّ لقمة العيش أجلس فى هذه الغرفة الفاخرة وأمامى ألوان من الطعام لم ترها عيناى من قبل وفى جيبى شيك بعشرة آلاف جنيه ؟

أخشى أن يكون كل هذا حلماً . ولكنه لا يمكن أن يكون حلماً . لا بد أنه حقيقة ، إذ أن أحلامى لم تكن من هذا النوع . فالإنسان يحلم بأشياء يعرفها . وما أراه الآن لا يرقى إليه خيالى ولا فى الأحلام .

وجلس رمزى وهو لا يزال فى ذهول .

إنه شرف عظيم لى لم أكن أحلم به . شرف عظيم . يوجد بعض التشابه فى تسلسل الأحداث . فلقد دعانى الرجل الغريب للغداء فى منزله بعد أن اشترى رأسى وأعطانى ألفين من الجنيهات ثمناً له . وهذه المرأة أعطتنى عشرة آلاف جنيه ثم دعتنى لتعشاء معها . إنه نفس الشيء . ولكن لا وجه للمقارنة بين روعة هذه الغرفة الفاخرة وحجرة الرجل الغريب المزينة جدرانها برءوس الحيوانات المحنطة .

ورن جرس ، أقبلت على أثره الخادمة السمراء مسرعة . طلبت منها السيدة أن تفتح النافذة ومن خلال تلك النافذة رأى رمزى حديقة خلفية رائعة الجمال . ودون أن يشعر أخذ يقارن بين الحياة التى كان يحياها فى غرفته الكئيبة القديمة الأثاث فوق سطح المنزل والحياة التى تحياها هذه السيدة فى ذلك القصر الفاخر .

خيل إليه كأنها نوع آخر من البشر لا يمت له بأية صلة . .

الحياة هنا تطيل العمر . يخيل إلى أنني لو عشت فى هذا القصر سأحيا إلى الأبد .

كان من بين ألوان الطعام التى قدمتها له صفاء ما لم تره عيناه من قبل . فأخذ يأكل فى حذر كما تفعل القطة عندما يقدم لها لون من الطعام لم تألفه وعندما تتذوقه تجده لذيذ الطعم فتقبل عليه بشهية .

انتهى من تناول الطعام . فلما أراد الانصراف قالت صفاء :

– ولماذا لا نقضى بعض الوقت معاً فى الحديقة ؟

– بكل سرور .

خرجا معاً إلى الحديقة التى يغمرها بالضوء عدد من المصابيح المتعددة الألوان متناثرة بين فروع الأشجار . جلسا على مقعدين متقابلين بينهما مائدة تحت إحدى الأشجار . وساد الصمت فترة من الزمن قطعته صفاء عندما قالت :

– إننى أحيا هنا حياة رتيبة لا بهجة فيها ولا سرور . يكاد يقتلنى الملل !

ترى ماذا يكون شعورها لو قدر لها أن تعيش فى الغرفة التى كنت أعيش فيها فوق سطح العمارة بجوار ذكر البط ؟ ماذا تريد أكثر من ذلك ؟ !

لاحظت صفاء شرود ذهنه فقالت :

– فيم تفكر ؟

– فى الدنيا

– مالها الدنيا ؟

– عجيبة .

– كيف ؟

– لم أكن أتصور أن مثلك يشكو من الملل .

– ولماذا لا تتصور ذلك ؟

– لديك كل ما يتمناه أى إنسان . كل أسباب السعادة . المال والجمال والحياة الرغدة المترفة .

- أتظن أن هذه الأشياء التى ذكرتها هى كل مقومات السعادة ؟

– وماذا تكون السعادة إذن ؟

– الإنسان لا يسعد بما لديه ولكنه يشقى لما هو محروم منه .

– وما هو الشىء الذى ترين أنك محرومة منه ؟

– أشياء كثيرة .

- مثل ماذا ؟

يكفى أننى لن يذكرنى بعد موتى فرد واحد من البشر . لم يعد لى فى الدنيا أحد . أنسيت أننى فقدت زوجى وأقضى حياتى وحيدة بلا زوج ولا ولد ؟ ما أقسى أن يعيش الإنسان ثم يموت وكأنه لم يكن ، لا يذكره إنسان فى الوجود .

- آسف إذا كنت قد أثرت فى ذهنك ذكريات حزينة .

– إن هذا القصر الذى يبدو لعينيك فاخراً أصبح بالنسبة لى شيئاً عادياً . لم يعد يبعث فى نفسى ذرة من السعادة ، بل أصبحت أراه وكأنه مقبرة كبيرة ! فالسعادة ليست فى رؤية الشىء الواحد مراراً وتكراراً .

– السعادة فى نظرى هى عدم الشعور بالألم أو العذاب .

– وما يدريك أننى لا أتعذب ولا أتألم ؟

– عذاب المترفين يختلف عن عذاب الفقراء .

قالت صفاء وفى صوتها رعشة حزن :

– لا فرق بين عذاب وعذاب . قد تختلف الأسباب ولكن العذاب هو العذاب فى جميع الحالات . ثم من يدريك أننى لا أتعذب عذاباً مريراً يفوق عذاب أى إنسان ؟

قال رمزى مندهشاً :

– تتعذبين ؟ ! من ماذا ؟

– حياة أى إنسان تشبه جبل الثلج الذى يطفو فى الماء ، ما يبدو منه للعيون جزء ضئيل ، أما الجزء الأكبر فتغمره المياه وتخفيه عن الأبصار .

أطرق رمزى للأرض فترة قصيرة قبل أن يقول :

– يخيل إلىّ أن فى حياتك سرًّا لا أعرفه.

عند ذلك همت صفاء بأن تقول شيئاً ، لكنها آثرت الصمت ، ثم خبأت عينيها بيدها وأجهشت بالبكاء .

شعر رمزى بخجل شديد جعل العرق ينفصد من جبينه واقترب منها وأخذ يربت على كتفها برفق :

– أنا متأسف . أخشى أن أكون قد جرحت شعور أرق وأنبل إنسانة رأيتها فى حياتى

أخرجت منديلا مسحت به دموعها وتكلفت الابتسام ثم قالت :

– ليس هناك ما يدعو للأسف . أنا الآسفة على ما بدر منى . لقد عكرت صفو هذه اللحظات الجميلة . أرجو أن تغفر لى بكائى . لم أستطع السيطرة على مشاعرى

ثم قامت وأمسكت يد رمزى برفق وسارت به نحو السلم الخلفى المؤدى إلى

المنزل . صعدا السلم ، ثم وقفت فى البهو ومدت يدها وصافحته .

– أتعشم أن أراك قريباً . فى أية لحظة تشاء .

غادر رمزى منزل صفاء وهو يشعر بحزن عميق .

لم أكن أتصور أن امرأة وهبها الله كل هذا الجمال والمال من الممكن أن تبكى ! إنها تشكو من الملل ! ومن الوحدة ! ولكن صفاء فى إمكانها أن تملأ حياتها بهجة ومتعة . لماذا فرضت على نفسها هذه العزلة القاسية ؟ فى جيبى شيك بمبلغ عشرة آلاف جنيه . إنها ثروة لم أكن أحلم بها . فى إمكانى الآن أن أشترى سيارة فاخرة . صفاء وهبتنى أيضا جميع أرباح الفيلم الذى أضطلع ببطولته . ستهبط علىّ آلاف أخرى من الجنيهات . لماذا تخصنى بكل هذا العطف والتشجيع ؟ لماذا تمنحنى كل هذه الأموال الطائلة ؟ لو أنها أعطتنى ألفاً من الجنيهات فقط فى مقابل دورى فى هذا الفيلم لاعتبرت نفسى أسعد السعداء ! لابد أن فى الأمر سرًّا . هل من المعقول أن يكون كل هذا لوجه الله ؟

تمنى رمزى فى هذه اللحظة أن يجد صديقاً مخلصاً يستطلع رأيه فى تلك الأشياء التى تحيّر فكره . ولكنه هو أيضاً وحيد .

١٧

اشترى رمزى سيارة بيضاء جميلة المنظر . وعن طريق عمال الجراج حصل على سائق يتولى قيادتها . إذ أن أعصابه لا تحتمل قيادة السيارات . كان هذا السائق نحيل الجسم أسمر البشرة قصير القامة ، وأصبح رهن إشارته ، ينقله بالسيارة إلى أى مكان يشاء .

وحين كان رمزى جالساً فى منزله يقرأ أحد الكتب بعد شراء السيارة بثلاثة أيام ، دق جرس التليفون ، وسمع صوت المخرج يقول :

– أين كنت يا أستاذ رمزى ؟ طلبتك بالتليفون عدة مرات وفى كل مرة يخبرنى خادمك أنك خارج المنزل .

– أنا متأسف . لم يذكر لى الخادم شيئاً عن ذلك . هأنذا الآن موجود بالمنزل وطوع أمرك .

– هل انتهيت من قراءة سيناريو وحوار الفيلم ؟

وحفظته عن ظهر قلب .

– شيء عظيم . أرجو أن تكون فى ستديو مصر غداً فى العاشرة صباحاً . سيبدأ تصوير الفيلم .

– سأكون فى الاستديو غداً فى الموعد .

فى التاسعة صباحا انطلقت سيارة رمزى تحمله إلى ستديو مصر . وجد المخرج واقفاً فى البلاتوه يراقب عمال الإضاءة المنهمكين فى إعداد المصابيح الكهربائية الضخمة التى تسلط الأضواء على غرفة صالون أنيقة ، وبالغرفة نافذة عريضة تطل على حديقة . وفى أحد أركان الصالون بيانو فاخر وفتاة جميلة جالسة على أحد كراسى الصالون تحتسى الشاى فى كوب من الزجاج . كان مصور الفيلم يحرك آلة التصوير الضخمة فوق قضيبين من الحديد وينظر من خلال عدساتها إلى إحدى زوايا الصالون . وعندما دخل رمزى أقبل عليه المخرج مصافحاً :

– أهلا ياأستاذ رمزى . كنت أخشى أن تتأخر عن الموعد .

وقبل أن يتكلم رمزى أمسك المخرج ذراعه وقاده نحو الفتاة الجالسة تحتسى الشاى وقدمه إليها قائلا :

– الأستاذ رمزى ، بطل الفيلم .

نهضت الفتاة ومدت يدها لرمزى لتصافحه وبصرها مثبت على وجهه :

– أهلا وسهلا .

ثم التفت المخرج إلى رمزى وقال :

– هذه هى زوجتك الأولى « بهيجة » التى ستحول حياتك إلى جحيم وتقذف بك من قمة المجد إلى هاوية اليأس والضياع ، الآنسة عفاف .

فضحكت عفاف كما ضحك رمزى وقال :

– ياساتر يارب . تشرفنا يا سيدة بهيجة ، أقصد يا آنسة عفاف .

قالت عفاف مبتسمة :

– إنها مهمة قاسية يا أستاذ رمزى . كنت أود أن أكون أنا التى أرفعك إلى قمة المجد ولكن ما باليد حيلة .

فابتسم المخرج وقال لعفاف :

– أرجو أن يوفقك الله كل التوفيق فى تحطيم حياته .

فضحك الجميع ، وقال رمزى :

– آمين يارب .

أخذ رمزى يدير عينيه فى أنحاء البلاتو ويتأمل الديكور ثم التفت إلى المخرج :

– ولكن أين الزوجة الثانية «عايدة» التى ستأخذ بيدى وتعيد لى الثقة فى نفسى وترفعنى من جديد إلى قمة المجد ؟

– الزوجة الثانية لا تزال فى عالم الغيب ، لم أعثر عليها حتى الآن !

بدت الدهشة على وجه رمزى :

– هل تبدأ التصوير وإحدى الشخصيات الرئيسية فى الفيلم مازالت فى عالم الغيب ؟ !

– منتجة الفيلم ، السيدة صفاء ، تصر على أن تكون الشخصيات الرئيسية من الوجوه الجديدة . ولقد ظننت أننى عثرت على ضالتى المنشودة ولكن . . .

قال رمزى فى لهفة :

– ولكن ماذا ؟

– فى نحو الثامنة من صباح اليوم دق جرس التليفون فى منزلى ، وإذا بوالد هذه

الفتاة يمطرنى بوابل من الشتائم ويخبرنى أن ابنته اتصلت بى بدون علمه وأنه لا يقبل مطلقا أن تعمل ابنته فى السينما . . . بعد أن بذلت مجهوداً مضنياً لتدريبها .

بدا الوجوم على وجه رمزى :

– وما العمل الآن .

– سأواصل البحث وأمرى إلى الله .

قفزت فى رأس رمزى فكرة :

– أنا أعرف فتاة تصلح لهذا الدور ولن تحتاج إلى تدريب .

– من هذه الفتاة ؟

– فتاة تدعى « إلهام » .

بدا الاهتمام على وجه المخرج :

– هل أنت متأكد قبل كل شىء من أن والدها سيسمح لها بالتمثيل فى السينما ؟

– كل التأكيد ، فهى طالبة بمعهد التمثيل .

– وهل هى جميلة ؟

– أجمل من رأيت فى حياتى . وأعتقد أنها أصلح من يؤدى هذا الدور .

شعر المخرج أن حملا ثقيلا قد أزيح من فوق صدره :

– ومتى أراها ؟

– فى أى وقت تشاء . إنها تسكن معى فى نفس العمارة .

– هل يمكننى أن أراها غداً هنا فى الاستديو الساعة العاشرة صباحاً لأجرى لها الاختبارات اللازمة ؟

– أعتقد ذلك .

كانت عفاف قد انتهت من عمل المكياج اللازم ، فذهب رمزى إلى غرفة المكياج ثم عاد إلى « البلاتو » بعد أن أتم عمل المكياج . جلس مساعد المخرج وعلى يمينه رمزى وعلى يساره عفاف ، وانضم إليهم شاب يرتدى جلبابا أبيض . إنه الشاب الذى سيقوم بدور خادم رمزى فى الفيلم . بدأ مساعد المخرج يراجع معهم الحوار اللازم للمشهد المعد للتصوير . وعندما انتهى من مهمته اتجه نحوهم المخرج وألقى عليهم بعض الإرشادات :

– هيا يارمزى . ستجلس الآن على كرسى البيانو وتبدأ فى عزف أحد ألحانك الجديدة ، وفى أثناء العزف سيدخل خادمك ليخبرك أن بالباب فتاة معجبة بك تصر على مقابلتك ، ثم تدخل عفاف وفى يدها « الأوتوجراف » .

هل حفظتما الحوار جيداً ؟

فأومأ رمزى برأسه ، وقالت عفاف :

– حفظناه .

بعد إجراء عدة « بروفات » بدون تصوير ، صاح المخرج قائلا :

– الأنوار

فتوهجت جميع المصابيح القوية المحمولة على الأخشاب فى مستوى أعلى من مستوى الديكور وبدا الصالون وكأنه يسبح فى ضوء النهار . جلس رمزى أمام البيانو متأهبا للعزف ثم صاح المخرج قائلا :

– كلاكيت

فأسرع شاب منحنياً أمام آلة التصوير حتى لا تظهر صورته فى المشهد وفى يده خشبة الكلاكيت التى وضعها أمام عدسات آلة التصوير وقال :

- «البعث» ١٤ أول مرة .

ثم أطبق خشبتى الكلاكيت فأحدث انطباقهما صوتاً ، ثم انسحب خارج المشهد . بدأ رمزى العزف على البيانو ، ثم أقبل عليه الخادم من باب الغرفة قائلا :

- ياسيدى شريف ، فتاة بالباب تصر على مقابلتك .

فقال له رمزى (واسمه فى الفيلم شريف) وهو مستمر فى العزف :

- دعها تدخل .

فدخلت إلهام (واسمها فى الفيلم عفاف) مطرقة للأرض فى حياء وفى يدها الأوتوجراف فتوقف رمزى عن العزف والتفت إليها قائلا :

- ما الذى أستطيع أن أفعله لك يا آنسة ؟

- لا أطمع فى أكثر من توقيعك على الأوتوجراف . إن أملى فى الحياة منذ أعوام أن أراك وأن تكتب لى فى الأوتوجراف سطراً واحداً . سطراً واحداً فقط .

فقام رمزى وجلس بجوارها قائلا :

- أهذا كل ما تريدين ؟ شىء بسيط . ناوليني الأوتوجراف .

سلمته عفاف الأوتوجراف ، فأخرج رمزى قلمه قائلا :

- هاهو السطر الذى تريدينه . . . أتمنى لك من صميم قلبى السعادة والتوفيق »

وهاهو توقيعى : «شريف مختار» .

- أنا متشكرة . متشكرة جداً يا أستاذ .

وصاح المخرج قائلا :

- «ستوب» .

فأطفئت الأنوار العالية وأقبل المخرج على رمزى وعفاف قائلا :

– رائع . . هائل . . لم أكن أتصور أن تؤدى اللقطة بهذه الروعة من أول مرة . ولكن سأعيد اللقطة لأنك ياعفاف لم تنظرى إلى رمزى مطلقاً فى أثناء حديثك معه . ينبغى أن تسترق النظر إليه بين لحظة وأخرى فأنت معجبة به أشد الإعجاب وليس من المعقول أن تظلى مطرقة للأرض طوال المشهد .

وأعيد المشهد ست مرات حتى رضى عنه المخرج . وبدأ الاستعداد للقطة التالية وتوقف التصوير نحو ساعة حتى تم الاستعداد . وانتهى مساعد المخرج من مراجعة الحوار . فى ذلك المشهد يقف رمزى ناظرا من خلال نافذة الصالون إلى إحدى أشجار الحديقة منصتاً لزقزقة العصافير بعد أن تم زواجه من بهيجة (عفاف) ثم تدخل عفاف الغرفة فيقول لها رمزى :

– ما أجمل الصباح . الطيور تستقبله بهذا التغريد الجميل . أنا أحب القيام من نومى مبكراً لأسمع تغريد الطيور . إنه موسيقى . إنه صوت الحياة .

فتقول عفاف فى غضب وانفعال :

– أنا لا أحب تغريد الطيور . إنها تقلق منامى وتزعجنى . هل لديك عمل اليوم ؟

– أجل . سأذهب لإجراء التجارب الموسيقية للبالية .

فتصيح عفاف فى تبرم وصبر نافد .

– موسيقى . . موسيقى . كل يوم موسيقى . ألا تستريح من الموسيقى بضعة أيام ؟ أريد أن أخرج معك للنزهة . إننى أختنق .

يرد عليها رمزى فى هدوء :

لاتنسَىْ أننى موسيقى ولا عمل لى سوى الموسيقى . وهى التى تتيح لنا هذه الحياة الرغدة .

فتصرخ عفاف وتقذف بإحدى أوانى الأزهار فتكسرها :

– سأجن . سأموت . سأختنق . لقد سئمت هذه الحياة المملة القاتلة .

وينتهى المشهد عند هذه الجملة وبعد ثلاث « بروفات » بدأ التصوير . ولكن التمثيل فى هذه المرة لم يكن فى مستوى الأداء فى « البروفات » . كان رمزى يتلعثم . وتخرج الكلمات من بين شفتى عفاف لا حرارة فيها ولا تعبير . وأعيد تصوير هذا المشهد ست عشرة مرة حتى رضى عنه المخرج الذى جلس غاضباً عابساً يضرب كفًّا بكف ويقول :

– لست أدرى ما الذى حدث لكما . كان المفروض أن يحدث هذا التلعثم وهذا الخطأ فى اللقطة الأولى لا فى اللقطة الثانية :

وتم تصوير ستة مشاهد أخرى فى ذلك اليوم تدور جميع أحداثها فى غرفة الصالون ويضطلع ببطولتها رمزى وعفاف (الزوجة الأولى فى الفيلم) .

١٨

ذهب رمزى إلى منزله فى مساء ذلك اليوم مرهقاً فارتمى على الفراش بملابسه الكاملة . ثم تذكر أن المخرج كان قد طلب منه رؤية إلهام فى الاستديو غداً . فقفز من الفراش وأصلح هندامه واتجه نحو شقة إلهام وضغط على زر جرس الباب . بعد فترة قصيرة فتحت إلهام الباب وما أن رأت رمزى حتى بدت عليها الدهشة الممزوجة بالفرح :

– أستاذ رمزى ؟ أهلا وسهلا .

– أريد أن أتحدث معك فى أمر هام .

– تفضل . تفضل . ادخل .

دخل رمزى بهو المنزل ، وقادته إلهام إلى غرفة الصالون . كان الصالون من الطراز القديم المذهب . جلس رمزى على أحد الكراسى وخرجت إلهام من الغرفة مهرولة وغابت فترة من الزمن . فى أثناء تلك الفترة أخذ رمزى يدير بصره فى أنحاء الصالون .

رأى على أحد الجدران صورة متوسطة الحجم لرجل وسيم وفى طرف الصورة لاحظ وجود شريط أسود . فاستنتج رمزى أن هذا الرجل هو والد إلهام وأنه قد توفى . وعلى جدار آخر شاهد صورة لإلهام وبعض الصور الزيتية لمناظر طبيعية .

عادت وفى يدها صينية عليها كوب به شراب مثلج . وضعت الصينية على منضدة أمام رمزى . وفى حين كان رمزى يحتسى عصير الليمون المثلج دخلت الغرفة سيدة فى العقد الخامس من عمرها صافحت رمزى . فقالت إلهام :

– هذه والدتى .

– أهلا وسهلا . تشرفنا يا هانم .

وجلست السيدة بجوار ابنتها إلهام صامتتين تنتظران أن يسمعا من رمزى ما يفسر لهما سبب تلك الزيارة المفاجئة . وبعد أن أطرق رمزى للأرض فترة من الزمن التفت إلى إلهام وقال :

– لقد رشحتك أمس للأستاذ عاطف صلاح المخرج للقيام بدور من الأدوار الرئيسية فى فيلم «البعث» الذى أضطلع ببطولته .

فقفزت إلهام وكأنها طفلة صغيرة فى العاشرة من عمرها وقالت فى لهفة وفرح :

– أنا أمثل دوراً رئيسيًّا فى فيلم سينمائى ؟ ومعك فى نفس الفيلم ؟ !

شعرت إلهام بأن قلبها على وشك أن ينطلق من صدرها من الفرحة والانفعال . قالت والدتها والفرحة تطل من عينيها :

– ومتى سيبدأ تصوير هذا الفيلم ؟

– لقد بدأ التصوير اليوم .

ثم التفت إلى إلهام وقال :

– والمخرج يرجو حضورك إلى ستديو مصر غداً فى العاشرة صباحاً لعمل الاختبارات اللازمة .

قالت والدة إلهام :

– إلهام ليست فى حاجة لأى اختبار ، فهى فى معهد التمثيل وترتيبها الأولى فى جميع سنوات دراستها .

قال رمزى :

– لابد من عمل الاختبارات لأى ممثل أو ممثلة لم يسبق لها التمثيل فى السينما . وأنا متأكد من أن إلهاما ستجتاز الاختبار بنجاح باهر .

قالت إلهام وقد شعرت بنشوة :

– وماهو موضوع الفيلم ؟ وما دورى فيه ؟

فقص عليها رمزى ملخصاً لموضوع الفيلم وأخبرها أنها ستكون الزوجة الثانية للفنان التى ستأخذ بيده وتعيد إليه مجده .

فلم تستطع إلهام إخفاء الفرحة التى ملأت قلبها :

– أنا متشكرة . أشكرك من كل قلبى لتذكرك لى وترشيحى لتمثيل هذا الدور فى الفيلم .

– سأنتظرك الساعة التاسعة والنصف من صباح الغد لنذهب إلى الاستديو معاً .

* * *

كان المخرج واقفا فى فناء الاستديو يتحدث مع مصور الفيلم . وعندما شاهد رمزى قادماً وفى صحبته إلهام تقدم نحوهما مبتسماً وصافحها . قال رمزى :

– هذه إلهام

وعندما دخلوا باب مبنى الاستديو التفت المخرج لإلهام وقال :

– تعالَىْ معى يا آنسة إلهام إلى غرفة المكياج .

انتهت إلهام من المكياج فصحبها المخرج إلى غرفة لإجراء الاختبارات وذهب رمزى إلى البلاتو . كانت عفاف فى انتظاره فجلس بجوارها ، وحياه مساعد المخرج وجلس بجوارهما يشرح لها اللقطة التى سيبدأ تصويرها . بعد فترة أقبل المخرج وفى صحبته إلهام فقفز رمزى نحو المخرج وقال فى لهفة :

– مارأيك فى إلهام ياأستاذ عاطف ؟ هل اجتازت الاختبارات بنجاح ؟

– إنها رائعة .

أسند المخرج الدور لإلهام فأدته على أحسن وجه ولم يبق سوى عدد قليل من اللقطات وينتهى تصوير الفيلم . كانت إلهام تذهب إلى الاستديو يوميًّا بصحبة رمزى فى سيارته البيضاء الفاخرة . فى ذلك اليوم ذهبا معاً إلى الاستديو كالعادة ، كان من المقرر تصوير الست لقطات الباقية من الفيلم . خمس منها تشترك فيها إلهام ولقطة واحدة لرمزى بمفرده وهو يغنى إحدى أغنيات الفيلم على المسرح بمصاحبة فرقة موسيقية ضخمة أمام عدد هائل من الجماهير .

أدت إلهام أربع لقطات بمصاحبة رمزى ولم يبق بالنسبة لها سوى لقطة واحدة وهى اللقطة التى سينتهى بها الفيلم (إذ أن تصوير اللقطات لايتبع التسلسل الطبيعى لأحداث الفيلم) تدور أحداث هذه اللقطة فى غرفة النوم فى منزل رمزى بعد أن ارتفع إلى قمة المجد مرة أخرى وتمكن من شراء منزل جديد أنيق بفضل زوجته الجديدة إلهام (واسمها فى الفيلم عايدة) التى أعادت له الثقة فى نفسه .

لهذه الغرفة نافذة تطل على شجرة بحديقة المنزل . بدأ التصوير . بدت إلهام

ساهمة. يقول لها شريف :

– فيم تفكرين ؟

فتقول إلهام :

– أنصت لتغريد العصافير . إنه صوت جميل . صوت الربيع .

فيرد عليها رمزى قائلا :

– إنها أجمل موسيقى فى الدنيا .

فتقول إلهام :

– انظر إلى الشجرة التى كانت جافة كقطعة من الخشب الميت فى الخريف . من كان يصدق أن تلك الخشبة الجافة تمتلىء بالأوراق الخضراء من جديد ؟ !

فيقول رمزى :

– دبت فيها الحياة .

– أريد أن أسمع قطعتك الموسيقية الجديدة . أنا لا أشبع من سماعها . عندما أسمعها يخيل إلى أننى تناولت وجبة دسمة .

فيقوم رمزى ويحضر جهاز تسجيل وينصتان معاً للقطعة الموسيقية . وعندما تنتهى تقول إلهام :

– جميلة جداً ، رائعة . ماذا ستسميها ؟

فيقول رمزى بعد لحظة تفكير :

– سأسميها . . سأسميها . . « البعث »

وينتهى تصوير هذه اللقطة . وبعد نحو ساعة كان الاستعداد قد تم لتصوير اللقطة التى سيغنى فيها رمزى أغنية « القرنفل » على المسرح . كانت الأغنية قد سبق

تسجيلها وسوف يذاع التسجيل فى أثناء التصوير وعلى رمزى أن يحرك شفتيه مع كلمات الأغنية . أضيئت الأنوار ، وأعطى المخرج إشارة بدء التصوير وبدأت الفرقة الموسيقية تعزف مقدمة الأغنية . كانت إلهام جالسة خارج إطار التصوير تنظر إلى رمزى فى لهفة وإعجاب . وبدأ رمزى يغنى أغنية القرنفل :

مين اللى زيّه فى بهجته ماحْلى عبيره وصحبته
أزهاره زى الكاس تِسكِر عيون الناس
ساكن منصان فوق الأغصان
ساحر فتان صاحى ونعسان
بتحبى الخيال يارمز الجمال يازهر القرنفل
بتسبى العيون ياتاج الغصون يازهر القرنفل

* * *

شوفوا الندى مشغول بهواه من حبُّه فيه بيبوس خده
ويقَضّى طول الليل ويّاه مين اللى يقدر على بُعده
والورد هايم بيحبه سهران ونايم يحلمْ به
والنسمة بتلاعب عوده يحلى هواها بوجوده
بتحبى الخيال يارمز الجمال يازهر القرنفل
بتسبى العيون ياتاج الغصون يازهر القرنفل

* * *

بين الزهور آمر ناهى ع الروض سلطان
وفى الرياض لونك زاهى أشكال وألوان

رقة ودلال فى لفْتَتك فتنة وجمال فى لفّتك
أشوفك أسبح فى الأحلام وتمر على بالى الأيام
بتحيى الخيال يارمز الجمال يازهر القرنفل
بتسبى العيون ياتاج الغصون يازهر القرنفل

* * *

أول جمالك مافتنّى يوم ماالحبيب كان مواعدنى
فَرَد حبيبى منديله فضلت أقطّف وادّى له
باسك وضمك على صدره وقلبه قال لك على سره
من يومها حسنك بان ليّ وزاد جمالك فى عينّى
بتحيى الخيال يارمز الجمال يازهر القرنفل
بتسبى العيون ياتاج الغصون يازهر القرنفل

كان الغناء واللحن فى قمة الروعة . وكان الاستديو فى تلك اللحظة يضم عدداً من الزوار بهرتهم روعة أداء رمزى لهذه الأغنية . كانت جميع العيون متجهة نحوه . وعند هذا الجزء من الأغنية ترنح وسقط على المسرح فاقد الوعى !

لم يكن سقوط رمزى على المسرح ضمن نص السيناريو . كان من المفروض أن يستمر فى الغناء بضع لحظات أخرى ثم تصعد على المسرح طفلة فى نحو التاسعة من عمرها تقدم له باقة من أزهار القرنفل . ولكن بدا واضحاً للجميع أن رمزى سقط حقيقة لاتمثيلا عندما توقف التصوير وساد الارتباك وبدا الفزع على وجه المخرج ومعاونيه وجميع عمال الاستديو . وصدرت من إلهام صرخة رعب ثم قفزت على المسرح بوجه شاحب وعينين زائغتين واحتضنت رمزى وأخذت رأسه بين يديها فإذا

به فى حالة إغماء . صاح المخرج مخاطباً مساعده .

– مالك لاتتحرك ؟ ! أسرع واستدع الطبيب .

فانطلق المساعد يعدو نحو الباب « باب البلاتو » وقفز المخرج فوق المسرح . كل هذا تم فى ثوان معدودة .

كانت إلهام مازالت محتضنة رأس رمزى ، ثم أسندت رأسه على فخذها وأخذت تربت على خديه برفق كى يفيق . فى هذه اللحظة قفز إلى المسرح أحد العمال وفى يده زجاجة نوشادر . اختطفتها إلهام من يده وأخذت تمررها أمام أنف رمزى . وبعد فترة طويلة بدأ رمزى يفتح عينيه .

كان وجه إلهام الجميل ونظراتها الحزينة القلقة أول مارآه رمزى عندما فتح عينيه . فى هذه اللحظة شعر بشىء عجيب لم يشعر به من قبل . شعر بحب عنيف لإلهام . رأى فى نظراتها رقة وحنانا يشبه ذلك الحنان الذى كان يراه فى عينى أمه منذ زمن بعيد .

ساعدته إلهام على الجلوس ، ثم أخذ يتلفت حوله . لقد أدرك أنه سقط على المسرح قبل الانتهاء من أداء دوره . نظر إلى إلهام وقال :

– أنا آسف ، لقد أتلفت المشهد . سأعيد تمثيله من جديد .

قال المخرج :

– لاتفكر الآن فى شىء من هذا ياأستاذ رمزى . صحتك أغلى من كل شىء .

تقدم المخرج وساعد رمزى حتى وقف على قدميه ثم صحبه برفق حتى هبط من فوق المسرح وأجلسه على أحد الكراسى وبعد فترة قصيرة قال رمزى :

أصبحت الآن على مايرام . سأقوم وأعيد تمثيل المشهد فكل دقيقة هنا لها ثمن .

عند ذلك حضر الطبيب بصحبة مساعد المخرج الذى كان محتقن الوجه يجفف عرقه . أخذوا رمزى إلى غرفته بالاستديو حيث فحصه الطبيب فحصاً دقيقاً . كانت إلهام واقفة بجواره فسألت الطبيب بلهفة :

– ماذا به يادكتور ؟

– لاشيء سوى الإرهاق الشديد وأنيميا حادة . تلزمه راحة تامة لمدة أسبوعين على الأقل .

ذهب رمزى إلى المستشفى وتوقف العمل فى الفيلم . وفى مساء ذلك اليوم كانت إلهام جالسة على كرسى بجوار سريره وسمعا نقراً على باب الغرفة . ثم فتح الباب ودخلت صفاء تحمل فى يدها باقة من الأزهار . فانتفض رمزى وحاول القيام من سريره ، ولكن صفاء وضعت يدها على كتفه قائلة :

– أرجوك ، لاتتحرك .

وضعت يدها على جبين رمزى وباقة الأزهار لاتزال فى يدها الأخرى وقالت :

– بلغنى أنك قلق لتوقف العمل فى الفيلم . أنت تعلم أن المال لايهمنى . تهمنى صحتك . فى استطاعتى أن أدفع إيجار الاستديو لعدة سنوات ، لالعدة أيام . كن واثقا من ذلك .

ثم وضعت باقة الأزهار على منضدة بجوارها وجلست على أحد الكراسى والتفت إليها رمزى وقال :

أشكرك على هذا الشعور الجميل ، أشكرك من كل قلبى .

لم تكن صفاء قد رأت إلهاما قبل تلك اللحظة ، وشعر رمزى أنها تنظر إلى إلهام نظرة تساؤل ثم قالت :

– من هذه الفتاة الجميلة ؟ أختك ؟ أم إحدى قريباتك ؟

– لا إخوة لى ولا أقارب . إنها إلهام ، إحدى بطلات الفيلم . إنها الزوجة الثانية التى سترفع الفنان من جديد إلى قمة المجد .

– ماشاء الله . إنها رائعة الجمال . لقد أحسن المخرج الاختيار .

فابتسمت إلهام وأطرقت للأرض وقد توردت وجنتاها ، والتفت رمزى نحو إلهام وقال :

– ألاتعرفين ياإلهام السيدة صفاء منتجة الفيلم ومؤلفة قصته ؟

فانتفضت إلهام واقفة وصافحت صفاء بحرارة قائلة :

– أهلا وسهلا . كنت أتمنى أن أراك . لقد حدثنى عنك الأستاذ رمزى كثيراً .

قالت صفاء مبتسمة :

– وماذا قال لك الأستاذ رمزى عنى ياترى ؟

– قال لى إنك أعظم وأرق سيدة رآها فى حياته .

– لاتصدقيه . إنه يبالغ فى مدحى .

قال رمزى :

– أنا لاأبالغ . تأكدى أننى مهما قلت فلن أستطيع التعبير عما أكنه لك من احترام وإعزاز . .

فابتسمت صفاء وقالت :

– أشكرك من كل قلبى ، وكل ماأرجوه من الله أن يمنعك بالصحة فى أقرب وقت .

لقد تحدثت مع مدير المستشفى وأخبرته أننى سأتولى دفع جميع نفقات علاجك حتى تسترد صحتك كاملة . الصحة هى أغلى شىء فى الوجود .

واغرورقت عيناها بالدموع .

١٩

استرد رمزى صحته وعاد إلى منزله ، وأصرت صفاء على ضرورة بقائه فى المنزل أسبوعا آخر يستريح فيه قبل استئنافه العمل فى الفيلم . ولما انتهى الأسبوع استأنف العمل فأعاد تمثيل مشهد الأغنية .

انتهى العمل فى الفيلم وأصبح معداً للعرض . وظل رمزى يترقب موعد عرضه بقلب يخفق فرحاً وخوفاً فى نفس الوقت . إنه لايدرى كيف ستقابل الجماهير أول فيلم يضطلع ببطولته .

هذا الفيلم سيقرر مستقبلك الفنى يارمزى . ستخضع لامتحان عسير أمام عدد هائل من الجماهير . الجماهير لاترحم .

ولم يكن ذهن رمزى مشغولا بالتفكير فى الفيلم وحسب فى تلك الفترة . كان مشغولا بشىء آخر لايقل عنه أهمية فى نظره . كان مشغولا بالتفكير فى إلهام . فمنذ تلك اللحظة التى أفاق فيها من إغمائه بعد سقوطه على المسرح أصبح يعتقد أنه لن يستطيع الحياة بدونها . كان يفكر فيها فى يقظته ويراها فى أحلامه . لم يعد يتحرج

من زيارتها فى منزلها . فكان يزورها ويقضى معها الساعات الطوال دون أن يشعر بمرور الزمن . وكانت إلهام عندما تراه تبدو كطفلة صغيرة تقفز فرحاً ومرحاً . كانت ترى فى نظراته كل معانى الحب . ولكنه لم يعترف لها بهذا الحب ، كانت تقول لنفسها :

– ماقيمة الكلمة إذا كانت العيون تعبر عنها ؟

وبين حين وآخر كان يفكر فى صفاء .

إنها ملاك هبط من السماء ، ولكنها بالنسبة لى لغز محير . ترى هل تحبنى وتطمع فى الزواج منى على الرغم من فارق السن بيننا ؟ ولماذا اختصتنى بكل هذا العطف وهذا السخاء ؟ إننى أكن لها كل مودة وإجلال واحترام وعرفان بالجميل . ولكننى لا أشعر حيالها بذلك النوع من الحب الذى يشدنى نحو إلهام . هل حقيقة لاتنتظر منى صفاء جزاء ولاشكراً كما تقول ؟ إن لكل شىء دافعا . فما الذى يدفعها لمعاملتى تلك المعاملة غير العادية وغير الطبيعية ؟

حين كانت تدور فى رأسه هذه الأفكار فى صباح أحد الأيام قبل موعد عرض الفيلم بيوم واحد دق جرس التليفون وترامى إلى أذنه صوت صفاء تخبره أنه مدعو للعشاء فى منزلها فى ذلك اليوم وتطلب منه أن يحضر معه إلهاما !

وصل رمزى وفى صحبته إلهام إلى منزل صفاء . وعندما دخلا البهو فوجئا بوجود المخرج وعفاف ، وفهم من صفاء أن هذا العشاء بمناسبة عرض الفيلم غداً .

كانت صفاء بادية البهجة والمرح فى تلك الليلة ، وسألت المخرج عما يتوقعه لهذا الفيلم من نجاح ، فأكد لها أن الفيلم سيلاقى نجاحاً منقطع النظير ، والدعاية له قوية . وأخبرها أن عدداً كبيراً من النقاد ورجال الصحافة دعوا لمشاهدته فى عرض

خاص وأجمعوا على أنه من أجمل الأفلام التى شاهدوها طوال حياتهم .

وبينما الجميع فى قمة البهجة وفى شوق ولهفة لرؤية الفيلم غداً فى دار العرض ، حدث شىء عجيب لم يكن فى الحسبان !

تجهم وجه صفاء ، وتفصد العرق من جبينها وأفلتت منها صرخة ألم خافتة لم تستطع كتمانها وألقت بجسدها على أحد الكراسى وقد تقلصت عضلات وجهها . كانت فى صراع عنيف مع ألم فوق طاقة البشر . يداها ترتعشان وجسدها يتلوى . ثم قامت مترنحة واعتذرت للمدعوين قائلة إنها شعرت بألم مفاجىء وإنها سوف تستدعى الطبيب ، وصعدت إلى غرفة نومها !

بدا الوجوم على وجوه المدعوين وقد لاذوا بالصمت ، وبعد فترة قصيرة دخل الدكتور أيمن يحمل حقيبته وصعد إلى الطابق العلوى . وعندما شاهدوا الطبيب يهبط السلم بعد نحو ربع ساعة اندفعوا نحوه يسألونه عن صحتها .

وقف الطبيب فترة صامتاً مطرقاً للأرض ، ثم قال :

– لقد تحسنت صحتها الآن ، وهى ترجوكم أن تنتظروها فهى قادمة إليكم بعد قليل . وبعد نحو عشرين دقيقة رأوها تهبط السلم وخلفها خادمتها زعفرانة . كانت تحاول أن ترسم على شفتيها ابتسامة وكان وجهها شاحبا وخطواتها بطيئة وقبل أن تهبط آخر درجة من درجات السلم وقف الجميع متطلعين إليها فقالت :

– أرجو المعذرة . كانت وعكة بسيطة ومرت بسلام . متأسفة إذا كنت قد سببت لكم أى ضيق .

وبعد أن تناولوا العشاء الفاخر الذى أعدته لهم صفاء تمنى الجميع لها الصحة

والعافية وبينما هم يصافحونها فى طريقهم للخروج من المنزل ، توقف المخرج وقال لصفاء :

- كم كرسياً تودين حجزها فى حفلة العرض الأولى ؟

- كرسى لى وكرسى لزعفرانة وواحد للطباخ وكرسى لسائق السيارة وثلاثة لباقى الخدم .

- أتمنى أن أراك غداً فى أحسن صحة .

شكرته صفاء ، وانصرفوا . وانطلقت سيارة رمزى وفى صحبته إلهام .

* * *

عندما أطفئت الأنوار استعداداً لعرض الفيلم شعر رمزى بقلبه وقد أسرعت دقاته . كان مرهف السمع لكل إشارة أوملاحظة تصدر من الجماهير . وكانت تحنين منه من آن لآخر التفاتة نحو صفاء فيراها تجفف دموعها بمنديلها .

وانتهى العرض . واكتشفت الجماهير وجود رمزى وعفاف وإلهام فأخذ التصفيق يدوى وتعالت الهتافات . وعند باب السينما احتشدت الجماهير فى انتظار خروج أبطال الفيلم الذين كانوا يشقون طريقهم بصعوبة بين الأجساد المتلاحمة . وفى وسط الجموع المحتشدة رأى رمزى وجها مألوفاً له . رأى ذلك الرجل المجروح الجبهة يتفرس فى وجهه ويعترض طريقه فأزاحه من أمامه ومضى يشق طريقه بين أمواج من الأجساد البشرية .

وتعرفت الجماهير على الطفلة التى قدمت أزهار القرنفل لرمزى بعد انتهائه من الأغنية فى الفيلم فى مشهد لم يستغرق سوى بضع ثوان . فحملوا الطفلة على الأعناق وساروا بها يخترقون الزحام .

أما صفاء ، مؤلفة الفيلم ، فلم يتعرف عليها أحد من هذه الجماهير الهادرة ، فأخذت تشق طريقها فى الزحام منكسة الرأس ، لايعرفها أحد ولايشعر بوجودها إنسان .

كان رمزى يشعر بنشوة عندما تلاحقه الجماهير وتطلب إمضاءه ، ولكنه بعد فترة بدأ يحس بشىء من الضيق . أصبحت الجماهير ترصد حركاته وسكناته . لم يعد فى استطاعته السير فى الشوارع والوقوف أمام واجهات المحال التجارية كما كان يحلو له أن يفعل . لقد حرم نفسه من متعة السير بجوار النيل بعد الغروب وفى يده كوز ذرة مشوى يلتهمه بشهية كما كان يفعل فيما مضى . وانهالت عليه العروض من شركات سينمائية كبيرة تطلبه بطلا لأفلامها . أصبح جرس تليفونه لايكف عن الرنين ليلاً ونهاراً ، وكان معظم المتحدثين فتيات معجبات به . ولم يكن يمر يوم دون أن يصله عدد من رسائل المعجبين والمعجبات يطلب بعضهن صورته وإمضاءه .

كان من حين لآخر يستقل سيارته بصحبة إلهام ويذهبان لقضاء بعض الوقت فى كازينو غير مألوف لعامة الجماهير . كان قد استقر رأيه على اختيار إلهام شريكة لحياته ، ولكن شيئا فى أعماق نفسه كان يؤجل تنفيذ عقد القران .

كان يشعر بالخوف من شىء غامض لايعرفه يمنعه من الإقدام على هذه الخطوة .

كان حائراً بين صفاء وإلهام . يخيل إليه أن صفاء تطمع فى الزواج منه ويخشى أن يتغير شعورها نحوه لو تزوج غيرها ، وهو حريص على ألا يجرح شعور صفاء ، ولكنه يحب إلهاما حباً عنيفاً . كانت هذه الأفكار تحيره وتشغل باله .

فى أحد الأيام ، وهو فى نشوة النجاح والشهرة ، اكتشف أنه لم يتصل بصفاء

ولو عن طريق التليفون منذ أكثر من شهرين ولم تتصل هى به . فشعر بشىء من الخجل . ماذا ستقول عنه صفاء ؟ فأسرع نحو التليفون وأدار رقم تليفونها . ظل الجرس يرن فى أذنه فترة طويلة دون أن يرد عليه أحد . وفى حين كان يهم بوضع السماعة فى مكانها سمع صوت فتاة تقول :

- آلو . من حضرتك ؟

– أنا رمزى .

– حضرتك تريد سيدتى صفاء ؟

– أجل .

– سيدتى صفاء مريضة بالمستشفى .

– فى المستشفى ؟ منذ متى ؟

– منذ أكثر من ثلاثة أسابيع .

– فى أى مستشفى ؟

– فى مستشفاها .

– مستشفاها ؟ ! وهل للسيدة صفاء مستشفى ؟

– أجل . مستشفاها الذى تبرعت ببنائه للفقراء .

– أين هذا المستشفى وماسمه ؟

– دار الشفاء بمصر الجديدة .

وضع رمزى سماعة التليفون وهو شارد الذهن . خرج واستقل سيارته واتجه نحو محل لبيع الأزهار ، اشترى باقة رائعة وانطلق بسيارته نحو مصر الجديدة .

عندما دخل من باب المستشفى تعرف عليه كل من رآه فالتفوا حوله ، ولكنه

كان شارد اللب لايشغل تفكيره سوى صفاء . شعر بعطف شديد على هذه المرأة الوحيدة فى الحياة .

كان باب غرفتها موصداً . طرق الباب طرقات خفيفة ، ففتحت له الباب إحدى الممرضات التى كانت بالغرفة ، فدخل الحجرة . كانت صفاء نائمة وبجوارها ممرضة أخرى مشغولة بإعطائها حقنة تحت الجلد .

وضع باقة الأزهار على منضدة صغيرة ونظرت إليه صفاء وابتسمت .

انتهت الممرضة من إعطائها الحقنة وخرجت من الغرفة كما خرجت خلفها الممرضة الأخرى وبقى رمزى بمفرده مع صفاء فجلس على كرسى بجوار سريرها .

كان وجه صفاء شاحباً وعيناها غائرتين وقد انطفأ بريقها . أمسك رمزى بيد صفاء وقال :

– سلامتك . لم أعرف شيئاً عن مرضك ودخولك المستشفى إلا اليوم من زعفرانة عندما اتصلت تليفونيا بالمنزل .

أغمضت صفاء عينيها وتلاشت ابتسامتها وقالت :

– لم أرك منذ مدة طويلة .

– لماذا لم تتصلى بى تليفونياً عند ذهابك للمستشفى ؟

انحدرت دمعة من عين صفاء وقالت :

– آثرت أن أموت فى هدوء . لم أشأ أن أعكر صفو حياتك وأفسد عليك نشوة النجاح والشهرة فى هذه الأيام . لست أدرى لماذا يعترينى دائما المرض ويفاجئنى الألم فى أوقات غير مناسبة ؟ !

أطرق رمزى إلى الأرض وهو لايزال واضعاً يدها بين يديه وقال :

– بل ستعيشين وستعودين إلى منزلك فى كامل صحتك . أنا متأسف ، كان من الواجب أن أتصل بك فى خلال هذه المدة .

سادت فترة صمت ، ثم قال رمزى :

– من أى شىء تشكين ؟

– أشكو من مرض أليم ، عذبنى كثيرا .

– أى مرض هذا الذى يجرؤ على الاقتراب من هذا الجسد الجميل ؟

ابتسمت صفاء ابتسامة باهتة وقالت :

– لكل شىء نهاية .

– أجل ، لكل مرض نهاية مهما يطل .

قالت صفاء بصوت خافت :

– من أقسى الأشياء أن يكون الإنسان على علم بموعد نهايته .

– كيف تتحدثين عن النهاية وأنت فى عنفوان الشباب ؟ !

– كل ماأطلبه من الله الآن أن يريحنى من هذا العذاب . ولكل أجل كتاب .

ثم أجهشت بالبكاء .

٢٠

نسى رمزى الفيلم والشهرة والأضواء ولم يعد يفكر إلا فى صفاء . شعر بعاطفة قوية تربطه بهذه السيدة التى ترقد مريضة وحيدة بالمستشفى . كان يحمل باقة من الأزهار ويذهب لزيارتها كل يوم .

وفى إحدى الليالى حين كان مستغرقاً فى النوم أيقظه رنين جرس التليفون . التقط السماعة وسمع صوت رجل يقول :

-- حضرتك الأستاذ رمزى عبد الحميد الفنان ؟

- أجل .

- نرجو حضورك إلى مستشفى دار الشفاء حالا .

لم يستفهم رمزى عن سبب استدعائه للمستشفى ، بل وضع السماعة وارتدى ملابسه وأيقظ سائق السيارة وانطلق نحو المستشفى .

كانت الساعة الثالثة صباحاً والشوارع ساكنة وخالية من المارة . وعندما لاح لعينيه مبنى المستشفى شعر بالكئاب . كان عدد من نوافذ المستشفى مضيئاً . ونظر نحو

نافذة اعتقد أنها نافذة غرفة صفاء . قفز من السيارة ولم يشعر بنفسه إلاوهو أمام غرفتها . كان باب الغرفة مفتوحاً فاندفع من الباب . رأى صفاء نائمة على السرير وفى الغرفة ثلاث ممرضات وأحد الأطباء . نظر إليه الطبيب وقال :

– أهلا أستاذ رمزى .

قال رمزى بلهفة :

– ماذا حدث ؟ مالها صفاء ؟

خلع الطبيب نظارته ومسح دمعة انحدرت من عينيه وقال :

– السيدة صفاء توفيت منذ عشر دقائق . كانت تريد أن تراك قبل أن تموت .

فترنح رمزى وارتمى فوق أحد الكراسى وانخرط فى بكاء عنيف مكتوم . عندما تمالك نفسه وضع رأسه بين كفيه وأطرق للأرض فى حزن عميق وغادرت الممرضات الغرفة .

كان وجه صفاء يبدو كتمثال من الشمع . سحب الطبيب الملاءة على وجهها وجلس بجوار رمزى وقال :

ظلت تصارع الموت فى لحظاتها الأخيرة لتبقى على قيد الحياة حتى تراك . كانت تسأل عنك بلهفة وعيناها مثبتتان نحو باب الغرفة فى انتظار قدومك . يبدو أن أمراً هاماً كانت تود أن تفضى به إليك .

قال رمزى وهو لايزال مطرقاً للأرض :

- كنت أتمنى أن أراها . لقد شعرت نحو هذه السيدة بعاطفة لم تشاركها فيها سوى أمى . إنها أنبل وأرق امرأة عرفتها فى حياتى . أشعر بعد موتها بأننى فقدت شيئاً عزيزاً لايمكن تعويضه . ترى ماذا كانت تريد أن تقول لى ؟

– ربما يكون شيئا ذا علاقة بهذا الخطاب .

وقام الطبيب وفتح درجاً صغيراً فى الكمودينو المجاور لسريرها وأخرج منه ظرفا متوسط الحجم سلمه لرمزى قائلا :

– طلبت منى أن أسلمك هذا الخطاب .

تناول رمزى الخطاب قائلا :

– متى كتبت هذا الخطاب ؟

– لست أدرى . ولكن يخيل إلى أنها كتبته الليلة الماضية . كان فى زيارتها هنا محاميها الخاص ومكث عندها نحو ساعة ، وعندما ينست من قدومك طلبت منى أن أسلمك هذا الخطاب .

فتح رمزى الظرف وأخرج منه الخطاب بلهفة وقرأه . كان الخطاب صورة من وصيتها أنها توصى بأن تدفن بجوار زوجها وابنها فى مقبرة ذكرت مكانها فى مقابر الغفير ، وتوصى بجزء من ثروتها للمستشفى وجزء لبناء مدرسة وحددت قدراً من المال يعطى لخادمتها زعفرانة ولباقى الخدم . أما باقى ثروتها وقصرها بالزمالك فقد أوصت بهما لرمزى تقديراً منها لفنه ولكى تتيح له فرصة النجاح والازدهار والتألق !

لم يستطع رمزى قراءة باقى الوصية ، فلقد انسابت الدموع من عينيه . قال الطبيب .

– مسكينة هذه السيدة . كان لها ابن وحيد فقدته فى ظروف أليمة وهو فى نحو العاشرة من عمره .

– الذى يحيرنى ، لماذا ظلت صفاء بدون زواج على الرغم من هذا المال وهذا الجمال ؟ !

- لسببين . السبب الأول أنها أصيبت بصدمة عصبية عنيفة عقب وفاة ابنها والسبب الثانى . . أنها كانت تعلم أن حياتها لن تمتد لأكثر من عامين أوثلاثة على الأكثر . . !

- لماذا ؟

كانت مريضة بالسرطان . لم يكن هناك أمل فى علاجها بعد أن انتشر فى جسمها . لقد طلب يدها بعد وفاة زوجها عدد كبير من علية القوم ، ولكنها رفضت فكرة الزواج . لم تشأ أن تتزوج لتموت بعد عام أوعامين وآثرت أن تعيش وحيدة . . معذبة .

- وكيف مات ابنها ؟

- هى التى قتلته !

صاح رمزى :

- هى التى قتلته ؟ ! مستحيل !

- كانت فيما مضى يحلو لها أن تقود سيارتها بنفسها . وكان من عادتها أن تدخل الجراج بمؤخرة السيارة لتكون مقدمتها نحو الباب . وفى أحد الأيام كان ابنها واقفاً بجوار الجدار الخلفى للجراج دون أن تنتبه لذلك . وحين ترجع بالسيارة إلى الخلف سمعت صرخة . كانت صرخة ابنها . وعندما أسرعت نحو مصدر الصرخة وجدته جثة هامدة محشورة بين السيارة وحائط الجراج . فأصيبت بنوبة قضت بسببها عامين فى مستشفى للأمراض العقلية . كانت تعتقد أن ابنها خرج من المنزل ولم يعد . فكانت ترسل من يبحث عنه فى كل مكان على أمل أن تجده ! فكانوا يتظاهرون بالبحث عنه لإرضائها . وعندما كانوا يعودون إليها بدونه تنتابها حالة هستيريا

وصراخ . ونشرت فى الصحف صورته على أنه تائه وطلبت البحث عنه مقابل مبالغ هائلة من المال .

وعندما يئست من العثور عليه انطوت على نفسها تبكيه ليلا ونهاراً .

وعندما خرجت من مستشفى الأمراض العقلية زهدت فى الحياة واحتقرت المال ، لأن المال كما كانت تقول ، عجز عن إرجاع ابنها إليها .

كان ابنها رقيقاً ، ينظم الشعر ويعزف على الجيتار . لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره عندما مات . كانت تقول لى فى فخر إن ابنها سيصبح موسيقيًّا عظيماً . وعندما رأتك لأول مرة فى حفل أضواء المدينة ، طلبتنى بالتليفون لتقول لى والفرحة تملأ قلبها :

- لقد عثرت على ابنى !

كانت ملامح وجه ابنها تشبه ملامحك إلى حد بعيد . كانت تشعر كأنك ابنها الذى عاد إليها .

- أكانت تعتقد أننى ابنها فعلا ؟

- كلا . لقد شفيت وأدركت حقيقة ماحدث لابنها ، ولكن ملامح وجهك الشديدة الشبه بملامح ابنها هزتها هزة عنيفة .

٢١

انتهت إجراءات تشييع جثمان صفاء إلى مقره الأخير . ووقف رمزى على حافة المقبرة ينظر إلى ذلك الجسد الملفوف بالحرير وهو يهبط إلى الحفرة المظلمة فى باطن الأرض .

شعر فى هذه اللحظة شعوراً قوياً بأن كل مافى الحياة عبث ، وأن الموت ليس النهاية بل البداية ، فالحياة تشبه المقدمة الموسيقية القصيرة التى تسبق الأغنية ، أما الموت فهو الأغنية الطويلة التى لانهاية لها . شعر كأن روح صفاء تحوم فوقهم فى هذا المكان وتنظر إلى الأحياء نظرة رثاء . ثم نظر إلى المشيعين ، وتصور أن كل واحد منهم سيلاقى نفس المصير فى يوم من الأيام . إنهم موتى يشيعون موتى . فشعر بعطف شديد على جميع البشر .

٢٢

بعد تنفيذ وصية صفاء أصبح رمزى مالكاً لقصرها بشارع مظهر بالزمالك كما أصبح مالكاً لعدد من العمارات وأحد مصانع النسيج وآلاف الجنيهات . ولقد نصت الوصية على ضرورة احتفاظه بجميع خدم المنزل ، إذا أرادوا البقاء ، وأن يصرف لهم مرتبات عالية حددتها وأن يحسن معاملتهم .

ظل رمزى متردداً فى الانتقال إلى ذلك القصر مفضلا البقاء فى شقته المجاورة لشقة إلهام ولكن لكى لايترك الخدم يعيشون فى ذلك القصر بمفردهم ، قرر الانتقال إليه .

وفى حفل عائلى بسيط تم عقد قرانه على إلهام وانتقلا معا إلى قصر صفاء . وعندما دخل القصر فى هذه المرة شعر باكتئاب . كان الوجوم يخيم على وجه زعفرانة ، أما باقى الخدم فكانت وجوههم خالية من أى تعبير .

أخذ رمزى يتجول فى القصر ، وقفزت إلى ذهنه ذكريات لقائه مع صفاء ، واكتشف بالقصر حجرات كثيرة لم يكن قد رآها من قبل ، ومن بينها غرفة جدرانها

وردية اللون ، معلق على أحد جدرانها صورة كبيرة الحجم لطفل استنتج رمزى أنها صورة الابن الوحيد لصفاء الذى فقدته ودهش للتشابه الواضح بين ملامحه هو وملامح هذا الطفل . أى إنسان يراها قد يعتقد أنها صورة رمزى عندما كان فى هذه السن !

وفى أحد أركان الغرفة رأى « الجيتار » الذى كان يعزف عليه ذلك الابن ، شعر فى هذه اللحظة بالألم يعتصر قلبه عندما تصور أن صفاء كانت تعيش فى هذا القصر ترزح تحت أعباء ذكرياتها الحزينة .

أصبح القصر فى نظر رمزى مع مرور الأيام شيئاً عاديًا . لم يعد يشعر بروعته وجماله كما شعر بذلك عندما دخله لأول مرة . وفى إحدى الليالى استيقظ فى الساعة الرابعة صباحا على أثر حلم عجيب . رأى نفسه فى منزل جميل على قمة جبل تكسوه الأشجار يشرف على بحيرة رائعة الجمال . وبينما يطل من إحدى النوافذ ليمتع نظره بالمنظر الساحر الخلاب إذا به يسمع صراخاً لعدد كبير من البشر لايراهم .

أخذ هذا الصراخ يعلو شيئا فشيئاً حتى أصبح يصم الآذان . ومن خلال الصراخ المدوى رنت فى أذن رمزى كلمة « البركان » . واكتشف أن ذلك المنزل الجميل الذى هو فيه يقع فوق قمة بركان ، وهذا البركان قد بدأ يثور ويلقى بحممه . فانطلق يعدو والحمم تلاحقه . ثم رأى المنزل وقد نسفه البركان وتناثرت أجزاؤه فى كل مكان . وفى الصباح قص هذا الحلم على زوجته إلهام فابتسمت وقالت :

- أضغاث أحلام .

٢٣

مضت تسعة أعوام منذ وفاة صفاء ، فى أثنائها اضطلع رمزى ببطولة ستة عشر فيلماً سينمائياً اشتركت إلهام معه فى بطولة سبعة منها ، فشعر كأن صنبوراً يصب فى بيته ذهباً بدلا من الماء . كانت الأموال تتدفق عليه وأصبح اسمه على كل لسان . وفكر فى إنشاء شركة لإنتاج الأفلام . فاختار شقة فى عمارة فاخرة فى وسط القاهرة ، أثثها أثاثاً أنيقاً لتكون مقر الشركة . ولم يقتصر نشاطه على الأفلام التى ينتجها بل كان يقوم ببطولة أفلام لشركات أخرى .

وفى أحد الأيام ، بعد تلك الأعوام الطويلة ، وهو فى قمة مجده ، حين كان جالساً أمام مكتبه بمقر الشركة دخل عليه أحد كبار المنتجين فى الحقل السينمائى وقدم له عقداً لبطولة أحد الأفلام . قرأ رمزى العقد ثم التفت إلى المنتج وقال :

– آسف . لا يمكننى إمضاء هذا العقد !

فظهرت الدهشة على وجه المنتج وقال :

– هل ترفض ياأستاذ رمزى عقدا بمبلغ عشرة آلاف جنيه للفيلم الواحد ؟

– أحد بنود العقد ينص على احتكار مجهودى لمدة خمس سنوات . وأنا لاأحب أن يحتكرنى أحد . أريد أن أظل حراً . لا أقبل أن أبيع نفسى لمدة خمس سنوات مهما يكن الثمن .

– هل هذا هو قرارك النهائى ؟

– أجل .

وانصرف المنتج حزيناً . وفى هذه اللحظة دق جرس التليفون فالتقط رمزى السماعة :

– آلو .

فسمع صوت زوجته إلهام تقول :

– أرجو ألاتنسى نفسك كالعادة . أنا فى انتظار حضورك إلى المنزل مبكراً اليوم . لقد دعوت بعض الأصدقاء فى هذه المناسبة السعيدة .

– مناسبة سعيدة ؟ أى مناسبة سعيدة هذه ؟

– دائما تنسى . أنسيت أن اليوم هو عيد ميلادك ؟

– لاتقلقى . سأحاول الحضور مبكراً .

وماكاد يضع سماعة التليفون حتى دخلت السكرتيرة تقول :

– بالبهو رجل يريد مقابلتك .

– من هو ؟

– لم يشأ أن يذكر اسمه .

- وماذا يريد ؟

– لست أدرى . ولكنه مصمم على مقابلتك .

- فليدخل .

ودخل رجل فى نحو الستين من عمره . نحيل ، ذو لحية بيضاء تبرز من ذقنه قال له رمزى :

- تفضل . تفضل اجلس .

جلس الرجل مطرقاً للأرض يداعب لحيته ، ثم نظر إلى رمزى وقال :

- هل تذكرنى ياأستاذ رمزى ؟

حاول رمزى أن يتذكره فلم تسعفه ذاكرته ، فقال للرجل :

- الواقع أننى لاأتذكر أننى تشرفت برؤيتك قبل هذه اللحظة .

ابتسم الرجل ابتسامة باهتة وقال :

- قد تكون الأيام قد غيرت ملامحى بعض الشىء . وهذه اللحية لم تكن موجودة عندما تقابلنا منذ سنوات ، هل تذكرتنى الآن ؟

قال رمزى وقد بدأ صبره ينفد :

- يؤسفنى أننى لاأتذكر أننى رأيتك قبل هذه اللحظة . وعلى أية حال ماذا تريد ؟

قال الرجل ناظراً إلى رمزى بطرف عينه وعلى فمه ابتسامة :

- حاول أن تتذكرنى ياأستاذ رمزى . انظر إلىّ جيداً . ارجع بذاكرتك عدة أعوام فقد تتذكر أننا تقابلنا فى يوم من الأيام فى حجرة حقيرة على سطح منزل ، وكان يسكن بجوارك ذكر بط فى ذلك اليوم تمت بيننا صفقة بيع وشراء . كيف لاتذكرنى ياأستاذ رمزى عبد الحميد ولى أملاك عندك ؟ ! أنسيتنى بهذه السرعة ؟ هل أنستك الشهرة وأنساك المجد الشخص الذى كان السبب فى كل هذه الشهرة

وكل ذلك المجد ؟ الرجل الذى اشترى رأسك بألفى جنيه .

أضاءت ذاكرة رمزى فقال :

– نعم نعم . تذكرت . أهلا وسهلا . سلامات . وحشتنى .

وضغط رمزى على زر الجرس فدخل فراش أمره رمزى قائلا :

عصير ليمون للبك .

لاداعى . لقد قامت سكرتيرتك الجميلة بالواجب وأحضرت لى عصير الليمون . أنا سعيد لأنك تذكرتنى ، مع أنك طوال هذه السنين كنت فى ذاكرتى . لم أنسك لحظة واحدة .

– وأين كنت طوال هذه السنين ؟

– كنت مشغولا بتتبع أخبارك . كل حركة من حركاتك وسكناتك كنت على علم بها . كل قرش دخل جيبك أولمسته يدك أوأضيف لحسابك فى البنك كنت على علم به . كنت أراقبك مراقبة دقيقة أرأيت مبلغ إعزازى لك ؟

– مراقبتى ؟ ألم يكن لديك مايشغلك طوال هذه السنين سوى مراقبتى وإحصاء ماأحصل عليه من مال ؟

– وهل يوجد فى الدنيا ماهو أمتع من ذلك ؟ إنه عمل شاق . ولكنه لذيذ . أليس كذلك ؟

– ولكن لماذا أرهقت نفسك بمراقبتى تلك المراقبة الشديدة ؟

– من الطبيعى أن يهتم الإنسان بإيراد أملاكه .

– أنا لاأفهم شيئاً . وماعلاقة مراقبتك لى بإيراد أملاكك ؟

– لاتفهم شيئاً ؟ ! إنها كارثة لو كنت لم تفهم ماأرمى إليه . رجل فى مثل

ذكائك لابد أن يفهم هذا الكلام الواضح .

قال رمزى وقد احتقن وجهه غضباً :

– ماذا تريد أن تقول ؟ تكلم بصراحة بلا لف ولادوران .

قال الرجل بهدوء مثير للأعصاب :

– يا أستاذ . . يافنان . . ياعظيم . . يامن تملأ صورك وأخبارك جميع الصحف والمجلات . يامن أصبح اسمه على كل لسان . يامعبود الجماهير . . أنت تعلم جيداً أننى فى يوم من الأيام رأيتك وأنت واقف على كرسى حقير فى غرفة حقيرة فوق سطح منزل . كنت ممسكاً بحبل مدلى من سقف الغرفة وقد وضعت رأسك هذا داخل عروة الحبل لتضع حداً لحياتك التعسة . . كنت فى هذه اللحظة بائساً ويائساً من الحياة لاتملك قوت يومك . وكنت تعتقد أنك إنسان فاشل لاتصلح لأى شىء . ولكننى كان لى رأى آخر دفعنى لشراء رأسك هذا . وسجلنا البيع والشراء تسجيلا رسمياً . وسلمتك مبلغ ألفى جنيه ثمنا لرأسك الذى أصبح ملكى بموجب العقد الرسمى المسجل فى مكتب الحكومة . وكنت أنت سعيداً مغتبطاً بهذه الصفقة . ثروة لم تكن تحلم بها هبطت عليك من السماء فى لحظة يأس . ثم افترقنا وذهب كل منا فى طريقه . وبررت بوعدى فلم أزعجك برؤية وجهى طوال هذه المدة . أليس كذلك ؟ لقد صحت فراستى . كنت أتوسم فيك العبقرية . هل تذكر عندما قلت لك فى ذلك اليوم إننى تاجر وإننى لم أعقد فى حياتى صفقة خاسرة ؟

وضحك الرجل الغريب ضحكة طويلة مدوية . بدأ رمزى يشعر بدوار خفيف ولكنه تمالك نفسه وقال للرجل :

- ماذا تعنى بقولك إنك لم تخسر فى حياتك ؟ ماعلاقة ذلك بى ؟ إذا كنت

تريد استرداد الألفى جنيه التى أعطيتها لى فى ذلك اليوم فلامانع لدى . أنا على استعداد لأن أكتب لك فى هذه اللحظة شيكا بهذا المبلغ ونفسخ ذلك العقد الذى بيننا .

– ألفا جنيه ؟ ! ألفا جنيه ياحضرة الفنان العظيم ؟ ! !

– وماذا تريد إذن ؟

فى هذه اللحظة دخلت السكرتيرة تخبر رمزى أن أحد الصحفيين يرغب فى إجراء حديث معه لنشره فى الصحيفة ، فرد عليها رمزى قائلا :

– أنا متأسف . قولى له إننى مشغول الآن بأمر هام وليتفضل بالحضور فى وقت آخر . ثم التفت إلى الرجل وقال :

– ماذا كنت أقول ؟ آه . . أود أن أعرف ماذا تريد منى بالضبط .

فوضع الرجل الغريب ساقاً على ساق ونظر إلى رمزى بطرف عينه مبتسما تلك الابتسامة الخبيثة وقال :

– الأمر الذى حضرت من أجله غاية فى البساطة ولايستحق كل هذا الحوار ويتلخص فى الآتى :

أنا أمتلك رأسك هذا الذى فوق كتفيك . أمتلكه منذ أعوام طويلة . منذ لحظة إمضاء عقد بيعه لى . والرأس كما تعرف ، وأنت سيد العارفين ، يوجد بداخله المخ . والمخ هو مركز كل تفكير وكل إدراك . هل يمكن لأى إنسان أن يفكر فى شىء أويدرك أى شىء بدون المخ ؟

– كلا طبعاً .

– إذن فنحن متفقان .

– متفقان على ماذا ؟

– متفقان على أن رأسك مادام قد أصبح ملكى ، منذ ذلك التاريخ ، فأنا بطبيعة الحال صاحب الحق الوحيد فى الحصول على إيراده !

– وماهو هذا الإيراد ياترى ؟

– إيراد رأسك ، الذى هو ملكى ، هذا الإيراد عبارة عن جميع الأموال التى حصلت عليها عن طريق استخدامك لمخك أوأى شىء آخر من محتويات الرأس طوال هذه المدة ، من يوم إمضاء عقد بيع الرأس حتى هذه اللحظة ، وهذا الإيراد يعتبر دفعة أولى تليها بطبيعة الحال دفعات ودفعات طالما أنت على قيد الحياة . أليس كذلك ؟

قال رمزى وهو يحاول أن يكبح جماح غضبه :

– قل لى ، ماالذى تريد أن تصل إليه ؟

قال الرجل بانفعال وقد بدأ يفقد سيطرته على أعصابه :

– لقد شرحت لك بوضوح تام الشىء الذى أود أن أصل إليه . لقد جئت لآخذ إيراد أملاكى . كل قرش حصلت عليه طوال هذه المدة أنا صاحب الحق فيه . إذا لم يكن لك هذا الرأس الذى هو ملكى ، لما أمكنك الحصول على مليم واحد . أليس هذا واضحاً ؟

– ألم تأخذ فى الاعتبار تعبى وشقائى ومجهودى ومعاناتى طوال هذه السنين ؟ وموهبتى أليس لها أى ثمن ؟ هذا شىء غير معقول طبعاً . لقد تعبت وعانيت وسهرت وعملت طوال هذه السنين .

قال الرجل وقد استعاد هدوءه :

لم يحدث بيننا أى اتفاق بشأن هذه الأشياء التى ذكرتها . الشىء الذى اتفقنا عليه هو أن رأسك أصبح ملكى . ونتيجة لهذه الملكية يصبح كل مايدره هذا الرأس من مال ملكاً لى ومن حقى أنا وحدى .

قال رمزى محاولا أن يكون هادئاً :

- أنا لم أفكر فى الموضوع بهذه الطريقة .

- وماذا كنت تظن ؟ هل كنت معتقدا أننى أعطيتك الألفى جنيه بدون مقابل ؟ أحسبتنى معتوها أبعثر أموالى وألقى بها على الأرض ؟ لو لم أعطك هذه النقود لكنت فى عداد الأموات منذ سنوات عديدة . لقد أنقذت حياتك ومنحتك فرصة المجد والشهرة التى تنعم بها الآن . ألاتعترف بذلك ؟

- لقد منحتنى المال ولكنك لم تمنحنى الموهبة . الموهبة من عند الله .

- ومن الذى اكتشف موهبتك ؟ أنت نفسك لم تكن مدركاً لها ولامعترفا بوجودها . كنت تعتقد أنك إنسان فاشل لاتصلح لأى شىء ولاتمتلك أية موهبة من أى نوع . لولا نقودى لماتت موهبتك ودفنت معك منذ أمد بعيد .

كل ماكان ينقصنى مبلغ ألفى جنيه لأصبح إنساناً وفناناً . لوكنت أمتلك ذلك المبلغ فى ذلك الوقت لما وجدت نفسى فى هذا الموقف . هذا الرجل يطالبنى الآن بضريبة أفدح من أى ضريبة . ضريبة الفقر .

ثم قال محدثاً الرجل الغريب :

- كيف ترفض أن تأخذ فى الاعتبار المجهود الشاق الذى بذلته طوال هذه السنين ؟ كان من الممكن أن آخذ منك الألفى جنيه وأنفقها على الملاذ والشهوات بلا ثمرة .

– كل هذا الكلام لافائدة منه الآن . أنا أريد إيراد أملاكى .

– كما قلت لك ، أنا على استعداد لأن أرد إليك نقودك التى أخذتها منك . بل أردها مضاعفة ، مارأيك لوأعطيتك عشرة آلاف جنيه بدلا من الألفين ؟

– عشرة آلاف جنيه ؟ ! ولاعشرة أمثالها ياأستاذ . أنا أعرف إيرادى بالقرش ولاأتنازل عن مليم واحد من إيرادى . أنا على علم بكل شىء ، بما فى ذلك الأموال التى أغدقتها عليك السيدة صفاء والتى تضمنتها وصيتها . أنا لى الحق فى هذه اللحظة فى أكثر من مليون جنيه ، الحساب مثبت عندى بالقرش والمليم . هذا هو إيرادك الصافى حتى الآن بعد استبعاد الضرائب .

وكيف عرفت ثروتى ؟

– لى أعوان كثيرون فى كل مكان . فى البنوك وفى مصلحة الضرائب وفى أماكن كثيرة أخرى لاتخطر لك على بال .

– هل من أعوانك رجل مجروح الجبهة ؟

– أجل . وكثيرون غيره .

– وماعلاقة رأسى بالأموال التى منحتها لى السيدة صفاء ؟

– لو لم تصبح فناناً لما سنحت لصفاء فرصة رؤيتك . لقد رأتك وعرفتك لأنك أصبحت فناناً . وعندما كتبت وصيتها ذكرت فيها أنها أوصت لك بكل هذه الثروة « تقديراً لفنك » . ورأسك هو الذى أتاح لك فرصة الفن . وبناء على ذلك ، فرأسك أيضاً هو الذى أتاح لك فرصة الحصول على ثروة صفاء شاكر . أليس كذلك ؟

قال رمزى متهكما :

– وماذا تريد منى أيضاً ؟

– السيدة حرمكم . إلهام !

فانتفض رمزى وقال :

– مالها زوجتى ؟ هل اشتريت رأسها هى أيضاً ؟

– كلا . لم أشتر رأسها . ولكن السيدة حرمكم تقع أيضاً فى نطاق أملاكى !

– شىء جميل . وكيف تفسر لى هذا أيضاً ؟

– ألم تتزوجها عن حب ؟ لقد استخدمت مخك عندما أحببتها وعندما فكرت فى الزواج منها . أليس كذلك .

– الحب بالقلب وليس بالمخ وأنت لم تشتر قلبى .

قال الرجل الغريب بحماس وانفعال :

– من قال هذا ؟ من قال إن الحب بالقلب ؟ هذا كلام أغان كالأغانى التى تغنيها ياأستاذ ولكن من الوجهة العلمية الحب مصدره المخ . كل العواطف والانفعالات مصدرها المخ . القلب ماهو إلامضخة تدفع الدم للدوران فى أنحاء الجسم ، ولاتنس أن المخ أيضاً هو المسيطر على حركات القلب .

قال رمزى وقد نفد صبره :

– اسمع . لقد أطلت بالى عليك أكثر من اللازم . إن لم تخرج من هنا فوراً فسأتصل بالشرطة وأطلب منهم أن يلقوا بك فى مستشفى للأمراض العقلية . أنت رجل مخبول معتوه ، وأضعت وقتى الثمين سدى . اغرب عن وجهى .

قام الرجل وقال فى هدوء :

– أنا مجنون ؟ أنا معتوه ؟ كلا ياأستاذ رمزى ، لست مجنوناً ولامعتوهاً .

أناصاحب حق . وبينى وبينك القضاء ، المحكمة .

صاح رمزى فى ذعر :

– المحكمة ؟ !

قال الرجل وهو يغادر الغرفة :

– أجل . إلى اللقاء فى ساحة العدالة !

٢٤

عندما وصل رمزى إلى منزله فى ذلك اليوم كانت زوجته إلهام منهمكة فى إعداد حفل عيد ميلاده كما اعتادت أن تفعل كل عام منذ تزوجته . لم يكن قد حضر أحد من المدعوين وعندما رأت إلهام زوجها فزعت لمنظره . بدا وكأن عشر سنوات قد أضيفت إلى عمره . كان مطرقا للأرض مكتئباً على غير عادته ، فأسرعت إليه تسأله :

– مالك ياحبيبى ؟ ماذا حدث ؟

لزم رمزى الصمت وظل مطرقا للأرض . لم يشأ أن يذكر لها شيئاً عن لقائه مع ذلك الرجل الغريب الذى اشترى رأسه . قال بعد فترة تفكير :

– كنت أحب أن نبقى بمفردنا هذا المساء . لم يكن هناك مايدعو لإقامة حفل عيد ميلادى فلست طفلا صغيراً .

اغرورقت عينا إلهام بالدموع وقالت :

– ولماذا لم تخبرنى برغبتك هذه ؟ إننى أحاول الترفيه عنك وإشاعة البهجة فى

حياتك على قدر طاقتى . .

قال رمزى وقد أدرك أنه جرح شعور زوجته :

أنا آسف . اعذرينى . لست فى حالة طبيعية . لقد حدث اليوم شىء جعل الدم يغلى فى رأسى .

قالت إلهام وقد شحب وجهها :

ماذا حدث ؟

فقص عليها رمزى قصة ذلك الرجل الغريب وكيف اشترى رأسه ومطالبته له الآن بكل ماجمع من ثروة طوال حياته .

ضحكت إلهام وقالت :

كيف تسمح لرجل مجنون كهذا أن يعكر عليك صفو حياتك ؟ هل من المعقول أن يصدق أحد مثل هذا الكلام الفارغ . من ذا الذى يجرؤ على جرح شعور فنان من أعظم فنانى الدولة ؟ إن كلمة واحدة منك كفيلة بإلقاء هذا المعتوه فى مستشفى الأمراض العقلية .

فى هذه اللحظة دق جرس الباب ، فأسرعت زعفرانة لفتحه . قالت إلهام :

هاهم المدعوون قد بدأوا يحضرون . انس الآن كل شىء عن هذا الحادث التافه وهيا لاستقبالهم .

كان أول من حضر المطرب عبد الحميد سالم ، فاستقبله رمزى ورحبت به إلهام . وتوالى قدوم المدعوين نساء ورجالا حتى امتلأ بهم البهو . كان منهم المطربون والمطربات والصحفيون والأطباء والمحامون والفنانون والفنانات من أصدقاء رمزى وزوجته .

حاول رمزى طوال الحفل أن يبدو مرحاً سعيداً باذلاً فى سبيل ذلك جهداً كبيراً . وغنى بعض المطربين والمطربات أحدث أغانيهم ، ولكن رمزى ظل شارد الذهن لايكاد يسمع أويرى شيئاً مما يدور حوله ، مازال يرن فى أذنه حديث ذلك الرجل الغريب ويخشى تسرب هذه الأنباء إلى الصحف .

ستكون فضيحة كبرى . ماذا سيقول الناس عندما يعلمون أن نجمهم المتألق يعيش برأس مستعار سبق أن باعه فى لحظة يأس وبؤس وعوز وقبض ثمنه ؟ ! ماذا سيحدث عندما تثار القضية فى المحكمة وتتحدث عنها الصحف ؟ ثم الأدهى والأمر أن المحكمة قد تأخذ بوجهة نظر الرجل الغريب وتحكم له بتسلم جميع الأموال التى حصلت عليها طوال هذه المدة ، فنى يد الرجل عقد صريح يثبت ملكيته لرأسى !

كانت هذه الأفكار تعربد فى رأس رمزى طوال الحفل ويرزح تحت وطأتها وكأنها صخرة تجثم على صدره ، فلم يستطع الصبر عليها وشعر برغبة ملحة فى التنفيس عن نفسه والإفضاء بهواجسه وأحزانه لأحد أصدقائه الأوفياء .

كان من بين المدعوين فى ذلك الحفل الأستاذ عبد العظيم فرحات المحامى الذائع الصيت ، وهو من أعز أصدقاء رمزى . أراد أن يستأنس برأيه فى هذه القضية العجيبة ، فاختلى به فى الحديقة الخلفية للمنزل بعيدا عن المدعوين وقص عليه قصته بجميع تفاصيلها . لم يصدق المحامى ماسمعه من رمزى إذ لم يتصور أن مثل هذا من الممكن أن يحدث . اعتقد أنها دعابة من رمزى لاختبار مدى كفاءته فى الدفاع عن قضية خيالية معقدة لاتخطر على بال الشيطان ولكن رمزى أقسم له أن كل ماخرج من بين شفتيه حقيقة لازيف فيها ولامبالغة .

أطرق المحامى للأرض مفكراً ثم قال :

– إذا كان الأمر كذلك فإنني أعتقد أنك تمر بمحنة قاسية . إن هذا الرجل لن يسكت ، ففى يده عقد رسمى يثبت ملكيته لرأسك ، ويخيل إلى أنه سيرفع الأمر للقضاء ويطالب بجميع ثروتك !

شحب وجه رمزى وأسرعت دقات قلبه وقال :

- وهل تعتقد أن المحكمة ستحكم له ؟

– هذا يتوقف على طريقة عرض القضية وعلى وجهة نظر القضاة ، فهذا شىء لم يحدث له مثيل من قبل . وعلى أية حال أنا مستعد للدفاع عنك فى هذه القضية إذا احتاج الأمر لذلك .

ومن خلال النافذة المطلة على الحديقة رأى رمزى إحدى الراقصات ترقص والمدعوين يصفقون تصفيقا إيقاعيًا مع الموسيقى التى تعزف للراقصة . كانت السعادة بادية على وجوه المدعوين . شعر رمزى فى هذه اللحظة وكأنه يشاهد من خلال النافذة فيلماً سينمائيًا لا يمت له بصلة . كان هو الإنسان الوحيد الحزين فى حفل عيد ميلاده .

٢٥

صح ماتوقعه المحامى . لقد رفع الرجل الغريب الأمر للقضاء . فى صباح أحد الأيام صحا رمزى من نومه فى نحو التاسعة صباحاً وجلس مع زوجته يتناولان طعام الإفطار فى غرفة المائدة الفاخرة . وفى أثناء ذلك دخلت زعفرانة وفى يدها ورقة سلمتها لرمزى قائلة :

– ساعى البريد يريد إمضاء سعادتك على هذه الورقة .

اختطف رمزى الورقة وقرأها فعلم أن ساعى البريد يحمل خطاباً مسجلا ، فوقع بإمضائه على الورقة وأخذتها زعفرانة وعادت ومعها الخطاب المسجل .

فض رمزى ظرف الخطاب بلهفة وعصبية فإذا به من محامى خصمه وقد حدد موعد جلسة فى المحكمة لنظر القضية !

شعر بدوار . فقام وغادر غرفة المائدة وهو يترنح وهرولت خلفه إلهام تسأله فى لهفة :

– مالك ياحبيبى ؟ ماذا فى هذا الخطاب ؟

– حدث ماكنت أخشاه . لقد وصلت المسألة للمحكمة .

صاحت إلهام فى فزع :

– المحكمة ؟ لم أكن أتصور أن المسألة تصل إلى هذا الحد !

لزم رمزى الصمت وأطرق للأرض ممسكاً رأسه بين يديه وكأنه يتمسك به ويخشى أن يختطفه منه ذلك الرجل . فجلست إلهام بجواره وطوقته بذراعها وقالت :

– لاتحزن لن ينالك أى ضرر . إنه رجل معتوه لن يجد من يصغى لهذيانه بل ستحكم المحكمة بعقابه . لابد أن تطالبه بتعويض كبير لما سببه لك من إزعاج .

لم يتكلم رمزى واتجه نحو آلة التليفون وأدار رقم صديقه المحامى وأخبره بالأمر فرد عليه المحامى قائلا :

– لاتجزع ولاتخف . سأترافع فى هذه القضية وسنكسبها . منذ حدثتنى عن هذا الموضوع وأنا دائم التفكير فيه . ولدى أقوال كثيرة سأقولها للمحكمة . فلاتشغل بالك واترك الأمر لى .

كان يوماً من أيام يناير عندما انعقدت المحكمة للنظر فى هذه القضية . السماء ملبدة بالغيوم والمطر ينهمر بلا انقطاع . وصدرت الصحف فى صباح ذلك اليوم تتحدث عن القضية .

وقف أمام باب المحكمة عدد كبير من رجال الشرطة يحاولون منع مئات البشر من اقتحام قاعة المحكمة التى امتلأت بالجماهير . وفى داخل القاعة وقف عدد من مصورى الصحف مستعدين لالتقاط الصور وكان الصحفيون متأهبين لتدوين مايدور فى هذه الجلسة .

لم تحتمل أعصاب إلهام حضور الجلسة فبقيت فى المنزل واختلت بنفسها فى إحدى الحجرات وجلست تبكى .

وعندما وصل رمزى فى سيارته الفاخرة وجد صعوبة فى شق طريقه نحو باب المحكمة ، وتعالت الهتافات من عشرات الحناجر تتمنى لرمزى التوفيق والانتصار .

وعندما دخل القاعة اتجهت نحوه جميع العيون واشرأبت الأعناق لرؤيته وارتفعت ضجة تكاد تصم الآذان . صاح الحاجب قائلا :

– محكمة .

ساد السكون ودخل ثلاثة قضاة ، فوقف الجميع احتراماً لهيئة المحكمة وجلس القضاة فى أماكنهم أمام المنصة وبجوارهم كاتب الجلسة ، فجلست الجماهير وجلس رمزى وبجواره محاميه .

كان وجه رمزى شاحباً وعيناه زائغتين ، أما محاميه فكان منهمكاً فى قراءة بعض الأوراق . فى هذه اللحظة لمعت ومضات البرق ثم سمع هدير الرعد ، كما لمعت داخل القاعدة أضواء أدوات التصوير تلتقط الصور .

قال رئيس المحكمة للحاجب :

– ناد على المدعى .

فصاح الحاجب قائلا :

– جابر العجباني .

فوقف الرجل الغريب بلحيته المدببة (السكسوكة) وجسمه الأعجف وتقدم نحو منصة القضاء .

قال له رئيس المحكمة :

- أنت جابر العجباني ؟

أى نعم يافندم ؟

- أنت تدعى أن صفقة تمت بينك وبين المدعى عليه رمزى عبد الحميد . صفقة بيع وشراء سجلت فى إدارة الشهر العقارى ، والشيء المباع كان رأس المدعى عليه ، وأن ملكية رأسه قد انتقلت إليك عند إمضاء العقد ، وسمحت له بالاحتفاظ برأسه مدى حياته على سبيل الإعارة وذلك فى مقابل ألفين من الجنيهات تسلمها منك بشيك رقم ١٥٦٤٣ . وبناء على ذلك تطالب المدعى عليه بمبلغ مليون وعشرة آلاف وأربعمائة جنيه وثلاثين مليماً ، هى مجموع إيراده الصافى طوال هذه المدة على أساس أن كل ماحصل عليه من مال مرجعه إلى المخ والحواس التى يشتمل عليها رأس المدعى عليه .

قال الرجل الغريب :

– هذا صحيح ياسعادة الرئيس .

قال رئيس المحكمة موجهاً حديثه للحاجب :

– اطلب المدعى عليه .

فصاح الحاجب بأعلى صوته :

– رمزى عبد الحميد .

فقام رمزى وتقدم نحو المنصة بخطوات مضطربة ووقف أمام هيئة المحكمة . قال له الرئيس :

– أنت رمزى عبد الحميد ؟

- أجل أنا رمزى عبد الحميد .

وتعالت الضجة فى هذه اللحظة ، فطرق رئيس المحكمة بضع طرقات على المنصة بمطرقة كانت أمامه فساد السكون . قال الرئيس :

– هل تنكر أقوال المدعى ؟

قال رمزى :

واقعة البيع والشراء صحيحة لاأنكرها ولكننى أنكر استحقاقه لأى مبلغ من المال .

فتعالت الضجة من جديد وطرق الرئيس طرقات عديدة حتى ساد السكون وقال :

– محامى المدعى .

فقام رجل بدين قصير أصلع الرأس ووقف أمام المنصة قائلا :

– أنا محامى المدعى .

قال له رئيس المحكمة :

– تفضل .

قال المحامى :

– « ياحضرات القضاة ، القضية المعروضة على حضراتكم اليوم قضية طريفة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ القضاء . ولكن على الرغم من غرابتها وطرافتها فهى فى جوهرها ومضمونها العام لاتخرج عن كونها قضية استيلاء على أموال الغير بدون وجه حق . »

فانبعثت الضجة من جديد وارتفعت بعض أصوات تقول : « غير معقول » و « ماهذا الكلام » فتجهم وجه رئيس المحكمة وطرق بمطرقته عدة طرقات على

المنصة فساد السكون واستمر محامى المدعى فى مرافعته قائلا :

«لقد اشترى موكلى من المدعى عليه ذلك الرأس الذى ترونه فوق كتفيه . ودفع له فى مقابل ذلك مبلغ ألفين من الجنيهات . نعم . ألفين من الجنيهات عداً ونقداً ، علما بأن رأس المدعى عليه فى ذلك الوقت لم يكن يستحق مليماً واحداً ، فلقد كان المدعى عليه وقت إتمام الصفقة إنساناً فاشلاً يائساً من الحياة لايرجى منه أى خير . كان على وشك الانتحار واضعاً رأسه فى عروة الحبل الذى ثبته فى سقف غرفته الحقيرة ، ولكن موكلى أنقذه ومنحه فرصة الحياة . »

فارتفعت الضجة وترددت عبارات تحتج على كلام المحامى ، وبذل رئيس المحكمة مجهوداً كبيرا حتى تمكن من إعادة الهدوء وصاح غاضباً :

كل من يثير أية ضجة سيطرد فوراً من قاعة المحكمة .

واستمر محامى المدعى فى مرافعته قائلاً :

- «لأجل ياحضرات القضاة ، منحه موكلى فرصة الحياة . وأصبح رأسه منذ لحظة إمضاء العقد ملكاً لموكلى . وذلك الرأس لايختلف عن أية أملاك تدر أرباحاً . »

فلم تستطع الجماهير السيطرة على مشاعرهم وصاحوا صيحات غضب . فأمر رئيس المحكمة بإخراج بعض الأشخاص من القاعة ، فأخرجهم رجال الشرطة بالقوة . واستمر المحامى فى مرافعته :

- «نعم . لا يختلف رأس المدعى عليه عن أية أملاك تدر أرباحاً . ولما كان لكل إنسان الحق فى الاستيلاء على ماتدره أملاكه من أرباح ، فمن الواضح أن موكلى هو صاحب الحق الوحيد فى الاستيلاء على جميع الأموال التى دخلت فى

حوزة المدعى عليه عن طريق استعمال شيء لا يملكه ، وهو رأسه . ولما كان الرأس هو مصدر التفكير ومركز جميع الحواس والعواطف وهو المسيطر على كل أجزاء الجسد ، فبناء على ذلك تكون جميع الأموال التي امتلكها المدعى عليه عن طريق الفن أو بصفته فناناً ، قد حصل عليها عن طريق استخدام رأسه . ولذا فإنني أطالبه برد جميع هذه الأموال إلى موكلي ، جابر العجباني ، بصفته المالك الوحيد لرأس رمزي عبد الحميد» .

ووسط الضجة التي انبعثت من أماكن عديدة بالقاعة على الرغم من طرقات رئيس المحكمة جلس محامي المدعي وأخذ يجفف عرقه على الرغم من برودة الجو .

قال رئيس المحكمة بعد أن ساد السكون :

– محامي المدعى عليه .

فقام محامي رمزي وتقدم نحو المنصة قائلا :

– موجود يافندم .

قال رئيس المحكمة :

تفضل .

بدأ محامي رمزي مرافعته :

– «حضرات القضاة ، ليست قضية اليوم مجرد قضية إيراد استولى عليه موكلي بدون وجه حق كما قال زميلي ، ولكنها قضية الإنسان . هل من المسموح به أن يباع الإنسان ويشترى ؟ »

«إذا سلمنا بمبدأ جواز بيع الإنسان نكون قد حطمنا جميع القيم وهدمنا أسس الحضارة ورجعنا إلى الوراء ، إلى عصور مظلمة ، عصر الرقيق ، عندما كان

الإنسان يمتهن وتهدر آدميته ويباع فى الأسواق كما تباع السلع والدواب . »

«والرأس ياحضرات القضاة عندما يباع فماذا يبقى للإنسان ؟ ماقيمة إنسان بلارأس ؟ الرأس هو ينبوع الفكر ومصدر الحياة ومركز الإبداع وموطن جميع المواهب . »

« وفى خلال تلك السنوات الطوال غمرنا موكلى الأستاذ الفنان رمزى عبد الحميد بفيض من روائع فنه وموسيقاه . تلك الموسيقى التى عطرت جو حياتنا وأيقظت فينا أسمى العواطف . هذا علاوة على ماتبرع به من أموال طائلة فى سبيل الخير . وإنى أعلن ذلك الآن لأول مرة . فلقد آثر موكلى طوال تلك السنوات أن تظل تبرعاته سراً غير معلن . لقد تبرع موكلى بأكثر من مائة ألف جنيه لبناء مدرسة وبعض مساكن للفقراء من أهل بلده ، وساعد عشرات من التلاميذ والطلبة لتمكينهم من إتمام دراستهم التى حرم هو منها . ومد يد العون لعدد من الفنانين المبتدئين ليجنبهم قسوة الحياة التى عانى منها » .

وهنا ارتفعت الضجة فى أنحاء قاعة المحكمة للتعبير عن التقدير والإعزاز لرمزى . فاستخدم رئيس المحكمة مطرقته لإعادة الهدوء واستمر محامى رمزى فى مرافعته :

« وفى كل مجتمع متحضر ياحضرات القضاة يأخذ الإنسان على قدر مايعطى وعلى قدر مسئولياته تجاه المجتمع واستفادة المجتمع من وجوده . »

« ولقد تعب موكلى كثيراً وكافح طويلا حتى وصل إلى ذلك المركز المرموق . العبقرية موهبة وكفاح ، فأين كان المدعى طوال تلك الأعوام وماذا استفاد المجتمع من وجوده فى خلال تلك المدة ؟ إن ذلك المدعى عندما خطرت له تلك الفكرة الشيطانية وسولت له نفسه أن يشترى رأس إنسان فى محنة ، لم يكن مدفوعا بدوافع

إنسانية . بل كانت تدفعه لذلك دوافع شريرة تتسم بالأنانية وتوصم بالاستغلال فى أبشع صوره ، لم يهدف من وراء ذلك سوى مصلحته الشخصية ، وإصراره الآن على الحصول على جميع أموال موكلى لأكبر دليل على ذلك » .

« لقد قبل موكلى بيع رأسه للمدعى فى ساعة محنة ولحظة يأس وضعف . كان موكلى فى تلك اللحظة يمثل الجانب الضعيف المغلوب على أمره بينما كان المدعى يمثل الجانب القوى الجبار الذى يسيطر بأمواله على مصائر البشر . لقد وجدت العدالة لتحمى الضعيف من القوى » .

« كان موكلى فى تلك اللحظة الرهيبة التى تهون فيها الحياة حيث تظلم الدنيا أمام عينى الإنسان فلايرى سوى ظلمات فوقها ظلمات ، كان فى تلك اللحظة أشبه بغريق تتقاذفه فى بحر الحياة أمواج عاتية ، يتعلق بأى يد تمتد إليه من خلال الموج ، حتى ولوكانت تلك اليد تقبض على خنجر . لقد أنقذه المدعى من الموت كما يقول لكى يطعنه اليوم ولكى يستغله أبشع استغلال عرفه البشر . وهو يدعى أنه بإنقاذ موكلى من الانتحار يكون قد منحه فرصة الحياة . عجباً أيها السادة ، إننى أرد عليه وأقول كلا ، وألف كلا ، إذ لايمنح الحياة للإنسان سوى خالقه . فمن يدرينا ، ألم يكن من الممكن أن يعدل موكلى عن الانتحار فى آخر لحظة من تلقاء نفسه ؟ فالإنسان قد يتغير فكره فى مثل غمضة عين . وحتى لو تركه يموت فإننى واثق أن موكلى كان يفضل الموت على حياة يكد فيها ويكدح ليأخذ غيره ثمرة كفاحه » .

« ياحضرات القضاة ، إن موكلى عندما تسلم مبلغ الألفى جنيه كان من الممكن أن ينفقها عن آخرها على الملاذ فتضيع هباء . ولكنه أنفقها فى تعلم شىء لم تتح له الظروف من قبل أن يتعلمه . أنفقه فى تعلم الموسيقى ، وبذل فى سبيل ذلك جهداً

عنيفاً يكاد يكون فوق طاقة البشر ، وظل يكافح طوال هذه السنين حتى وصل إلى ماوصل إليه الآن من مجد وثروة ، هو وحده صاحب الحق فيها ، لأنه هو صاحب المجهود الذى بذل للحصول عليها » .

« وإنى لأتساءل الآن ياحضرات القضاة ، لو أن موكلى ارتكب جريمة قتل فمن يكون المسئول عن هذه الجريمة ؟ فكل جريمة مهما كان نوعها تدبر فى الرأس . ومادام رأس موكلى يمتلكه المدعى كما يقول فإننى أعتقد فى هذه الحالة أن المدعى سوف يكون هو المسئول عن ارتكاب تلك الجريمة . »

« وإننى أعلن الآن ياحضرات القضاة فى ساحة العدالة أمام هيئة المحكمة الموقرة أن موكلى لو صدر الحكم فى غير صالحه ، وأقرت المحكمة ملكية المدعى جابر العجبانى لرأس موكلى فسوف يقوم موكلى على الفور بقتل المدعى ، ولن يكون موكلى فى هذه الحالة مسئولا عن ارتكاب تلك الجريمة ، لأنه لايملك الرأس الذى دبرها ونفذها ، بل سيكون المسئول عنها هو القتيل نفسه . »

ارتفعت الضجة فى المحكمة وترددت عبارات مثل « اقتله ياأستاذ رمزى وأرحنا منه » و « دعوه يقتله » . وجلس محامى رمزى بجواره والانفعال لايزال واضحاً فى ملامح وجهه .

قال رئيس المحكمة :

– الحكم بعد المداولة .

انتهت فترة المداولة وصاح الحاجب قائلا :

– محكمة .

دخل القضاة الثلاثة واتخذوا أماكنهم أمام المنصة ، واشرأبت الأعناق

وأنصتت الآذان لسماع الحكم . بعد فترة قصيرة قال رئيس المحكمة :

– « حكمت المحكمة برفض الدعوى ، وعدم استحقاق المدعى جابر العجباني لأى قرش من أموال المدعى عليه رمزى عبد الحميد . على أن يكون للمدعى حق منكية رأس المدعى عليه بعد وفاته ، إذا رغب فى ذلك . رفعت الجلسة . »

ارتفعت فى القاعة ضجة وترددت هتافات مثل « تحيا المحكمة » و « يحيا العدل » . وأغمى على إحدى الفتيات المعجبات برمزى من فرط الانفعال . وهجمت الجماهير على رمزى وحملوه على الأعناق هاتفين له حتى أوصلوه للسيارة .

شعر رمزى كأنه ولد من جديد فى ذلك اليوم وأنه يتنفس الهواء لأول مرة . كان يود لو ينطلق فى الفضاء بسرعة الضوء ليزف البشرى لإلهام التى كانت فى ذلك الوقت تطل من النافذة فى انتظاره . وفى عينيها قلق . كانت لحظات الانتظار تمر عليها وكأنها أعوام ، فاليوم فى نظرها يعتبر فاصلا بين الحياة والموت . وتذكرت حلم رمزى ، البيت الذى نسفه البركان ، فأحست بخوف واكتئاب يشبه اكتئاب المحكوم عليه بالاعدام وهو يساق إلى المشنقة . ثم رأت سيارة رمزى قادمة . وفى مثل لمح البصر كانت قد هبطت السلم واندفعت تفتح الباب لرمزى وقد أسرعت دقات قلبها . ولكنها شعرت بشىء من الاطمئنان عندما رأته مبتسماً ابتسامة عريضة ، فهى تعلم جيداً أنه من النوع الذى لايحسن إخفاء مشاعره بل تبدو واضحة فى ملامح وجهه . وقبل أن يدخل من الباب صاح :

– كسبنا القضية !

فأصيبت إلهام بحالة هستيرية جعلتها تضحك وتبكى فى آن واحد . احتضنها رمزى قائلا :

لم أكن أتصور أن أنتصر على هذا الرجل !

وفى مساء هذا اليوم أقام رمزى فى منزله حفلاً فاخراً دعا إليه عدداً كبيراً من الأصدقاء وفى مقدمتهم المحامى احتفالا بهذه المناسبة السعيدة . ظل رمزى يغنى فى الحفل حتى الثالثة صباحا . وقرر أن يعتبر هذا اليوم يوم مولده الذى يحتفل به كل عام .

٢٦

بعد نحو أسبوع استيقظت إلهام من نومها مبكرة على غير عادتها ، وبينما هى تفتح نافذة غرفة النوم تستنشق عبير نسيم الصباح استرعى انتباهها شيء عجيب .

كان رمزى مازال نائماً فأيقظته وطلبت منه أن يطل من النافذة ليرى ذلك المشهد الغريب الذى رأته .

كان « جابر العجباتى » جالساً أمام منزلها على كرسى صغير من كراسى البحر وقد وضع على فخذيه صندوقاً خشبيًا .

– أليس هذا الرجل هو الذى خسر القضية والذى رأيت صورته فى جميع الصحف ؟

قال رمزى مندهشاً :

– نعم ، هو !

– ولماذا يجلس أمام منزلنا ؟ لقد كسبنا القضية ، فماذا يريد منا ؟

– لست أدرى . أنا غير مطمئن لذلك الرجل . وماهذا الصندوق الذى معه ؟

– أخشى أن يكون بالصندوق قنبلة ينوى أن . .

أسرع رمزى إلى التليفون بحركة عصبية وطلب شرطة النجدة وارتدى ملابسه وهبط إلى البهو فى انتظار قدوم رجال الشرطة . وارتدت إلهام ملابسها على عجل وهبطت السلم وجلست بجوار رمزى وأخذت تهز إحدى ساقيها فى عصبية . وبعد فترة صمت قالت إلهام :

– لم يكن هناك مايدعو لاستدعاء رجال الشرطة . ماذا يضيرنا لو ظل جالساً أمام منزلنا ليلا ونهاراً ؟ فليمت بغيظه وليضرب رأسه فى الحائط .

– أخشى أن يضرب هو رأسى . إنه رجل شرير . لاأظن أنه سيستسلم للهزيمة بسهولة .

بعد قليل دق جرس الباب . فأسرع رمزى وفتح الباب بنفسه . لقد حضر رجال الشرطة الذين استنجد بهم رمزى ، ضابط وأربعة عساكر . ذهبوا وبصحبتهم رمزى إلى « جابر العجباتى » . عندما رآهم « جابر » مقبلين عليه وقف وحياهم فى احترام زائد وتأدب مبالغ فيه .

قال له الضابط :

– ماسبب جلوسك هنا أمام منزل الأستاذ رمزى ؟

قال جابر مبتسماً :

– لايوجد نص فى القانون يمنعنى من الجلوس أمام منزل الأستاذ رمزى مادمت ملتزما بحدود الأدب والحشمة !

قال الضابط :

– وماهذا الصندوق الذى معك ؟

قال جابر :

إنه صندوق فارغ .

أخذه الضابط وفتحه فوجده فارغاً ، فقال متعجباً :

– وماسبب جلوسك هنا ومعك هذا الصندوق الفارغ ؟

– إننى أنتظر . أنتظر بفارغ الصبر .

– تنتظر ماذا ؟

– أنتظر اللحظة التى يمتلئ فيها الصندوق !

قال الضابط وقد بدأ يشك فى سلامة القوى العقلية لهذا الرجل :

– تنتظر اللحظة التى يمتلئ فيها الصندوق ؟ ! مامعنى هذا الكلام ؟

قال جابر والابتسامة لاتزال مرسومة على شفتيه :

أنا فى انتظار اللحظة السعيدة التى سأسترد فيها حقى المغتصب !

فظن رمزى أنه يقصد بذلك استرداد الأموال التى حصل عليها رمزى وأن هذا الصندوق معد لوضع هذه الأموال فيه ، فاندفع قائلا فى غضب :

– ماذا تريد منى ؟ لقد حكمت المحكمة لصالحى وكسبت القضية .

قال جابر فى هدوء أشد إثارة من الغضب :

– لقد حكمت المحكمة بعدم استحقاق للمال الذى دخل فى حوزتك طوال هذه المدة ، ولقد رضيت بحكم المحكمة . ولكن لاتنس ياأستاذ رمزى أن نفس المحكمة حكمت لى بأحقيتى فى امتلاك رأسك . . بعد وفاتك !

قال رمزى محتداً .

– وماذا ستصنع برأسى بعد وفاتى ؟

قال الرجل جابر بهدوء :

ليس هذا من شأنك . أنا حر فى ممتلكاتى . أنت تعلم جيداً أننى أهوى جمع رءوس الحيوانات وتحنيطها . سأحنط رأسك وأعلقه فى الغرفة التى رأيتها عندما شرفتنى بزيارة منزلى . سأعلق رأسك بجوار رأس الثور . هل تذكر هذه الغرفة ؟ !

– ولكننى مازلت على قيد الحياة . لم أمت بعد .

قال جابر :

– ربنا يسهل .

فاحتقن وجه رمزى من فرط الغضب وقال :

– ماذا تقصد ؟

قال الرجل ولايزال محتفظاً بهدوئه المثير :

– أقصد أن الأعمار بيد الله ، والموت حق ، وأينما تكن سيدركك الموت فى لحظة من اللحظات ولابد أن أكون دائما على أتم استعداد . الإنسان لايعرف اللحظة التى سيموت فيها ولاتدرى نفس بأى أرض تموت !

قال رمزى ضاغطاً على أعصابه :

– ولماذا تحمل هذا الصندوق ؟ وماعلاقته بهذا الموضوع ؟

قال الرجل :

– إنه صندوق لا يزال فارغاً كما رأيتم . ولكننى كما قلت لك ، لابد أن أكون دائماً على أهبة الاستعداد . ففى اللحظة التى تموت فيها ياأستاذ رمزى ، سأنقض عليك وأستولى على أملاكى !

قال رمزى بصوت مرتجف .

– ماذا تقصد ؟

– أقصد أنى فى اللحظة التى تموت فيها بمشيئة الله تعالى ، والأعمار بيد الله ، سأنقض على جثتك وأجتث رأسك وأضعه هنا فى هذا الصندوق . ولذا فلابد أن يكون الصندوق معى دائماً . إذ ليس من اللائق أن أحمل رأسك فى يدى مكشوفاً فى الطريق العام أمام الناس . إن للموتى حرمة ياأستاذ رمزى . وأنا رجل عندى أخلاق ولايرضينى أن أحمل رأسا آدميًّا بدون غطاء !

قال رمزى بدهشة وذهول :

– أتريد أن تستولى على رأسى وتضعه فى هذا الصندوق ؟ !

أجاب الرجل فى هدوء :

– بعد وفاتك . بعد عمر طويل أوقصير ، الله أعلم ، فرأسك ملكى ، وحكمت لى المحكمة بجواز الاستيلاء عليه بعد موتك . وأنا حر التصرف فيه بعد وفاتك . هذا حكم المحكمة ياأستاذ رمزى وليس فى هذا مايغضبك . فلتعلم يافنان ياعظيم أننى من الآن فصاعدا سأتبعك كظلك أينما ذهبت ومعى هذا الصندوق . لن يكون لى عمل فى الحياة سوى هذا ، حتى إذا فاجأك الموت فى أية لحظة بإذن الله ، فى هذه اللحظة سأهجم عليك فى الحال وأستولى على أملاكى التى عندك . سأقطع رأسك وأضعه فى الصندوق . وأحنطه كما قلت لك ، وأعلقه على جدار غرفتى بجوار رأس الثور ، سيكون رأس الثور على يساره ورأس الخرتيت على يمينه ورأسك فى الوسط بينهما . صدقنى ياأستاذ رمزى ، سيكون منظراً فى غاية الروعة !

قال رمزى وقد شعر بدوار :

– يبدو أنك ستنغص علىّ حياتى !

قال الرجل :

- لم يعد لى شأن بحياتك . الذى يشغلنى الآن هو موتك . لقد رضيت بحكم المحكمة . لن تكون لى علاقة برأسك مادمت حياً . لن أستولى عليه إلابعد وفاتك بإذن الله ، فلماذا تغضب ياأستاذ رمزى ؟ هل فى هذا مايستوجب الغضب ؟

ظل ضابط الشرطة صامتاً طوال هذا الحوار فى حين كانت العساكر تبتسم . التفت رمزى إلى الضابط وقال :

- هل يرضيك هذا ياحضرة الضابط ؟ هل تتركونى تحت رحمة رجل معتوه يطاردنى فى انتظار اللحظة التى أموت فيها ليقطع رأسى ويستولى عليه لتحنيطه وتعليقه بجوار رأس الثور على جدار غرفته ؟ !

قال الضابط محتداً :

- ليس فى هذا مايزعج ياأستاذ رمزى . الرجل لم يفعل شيئاً يعاقب عليه . إنه ينفذ حكم المحكمة !

قال رمزى والدهشة تكاد تعقد لسانه :

- إنه سيحنط رأسى ويعلقه بجوار رأس الثور !

انفجرت العساكر ضاحكة وقال الضابط بلامبالاة :

- وهل يضير الشاة سلخها بعد ذبحها ؟ !

- إنه سيذكرنى بالموت ليلا ونهارا ، أليس فى هذا مايزعج فى نظرك ياحضرة الضابط ؟

قال الضابط فى هدوء قاتل :

ليس فى هذا أى إزعاج . كل مافى الحياة يذكرنا بالموت . ألاتقرأ أعمدة

الوفيات فى الصحف كل صباح ؟ ألاتسمع وتقرأ عن الكوارث والحروب التى تبيد البشر بالجملة ؟ ياأستاذ رمزى لقد أزعجت السلطات . إن لدينا ماهو أهم من ذلك . عن إذنك !

واستدار الضابط غاضباً وبصحبته العساكر الأربعة يحملون مسدساتهم واستقلوا سيارة الشرطة وانطلقت بهم السيارة مبتعدة عن المنزل .

جلس جابر فى المكان الذى كان جالساً فيه أمام منزل رمزى فوق كرسى البحر وصندوقه فوق فخذيه وعلى فمه ابتسامة ساخرة .

واندفع رمزى إلى المنزل غاضباً وأغلق الباب خلفه بعنف فلم يجد « إلهام » فى البهو ناداها فأقبلت مسرعة من الطابق العلوى وابتدرته قائلة فى دهشة :

– ماذاحدث ؟ لقد شاهدت رجال الشرطة من النافذة وهم ينصرفون ويتركونك مع هذا الرجل لماذا لم يلقوا القبض عليه ؟

فألقى رمزى بجسده فوق أحد الكراسى فى حزن ويأس وقال بسخرية :

– يلقون القبض عليه ؟ لقد كانوا على وشك إلقاء القبض علىّ أنا !

٢٧

لم يعد لجابر العجباني هم سوى مطاردة رمزى . فهو أمام المنزل طالما كان رمزى بداخله حتى إذا غادر المنزل انطلق خلفه بسيارته ومعه الصندوق . فإذا توارى عنه رمزى داخل أى مكان كالإذاعة أو استديوهات السينما أو أى مكان آخر ، ظل هذا الرجل فى انتظاره حاملا صندوقه !

وحاول رمزى أن يتعايش مع هذه المطاردة المفزعة غير عابئ بها ، ولكنه كان كمن ينزلق فوق منحدر أملس فلايستطيع التوقف مهما حاول ذلك ، فأصبح دائم التفكير فى الموت وفى مصير رأسه . يتراءى له فى الحلم واليقظة منظر رأسه مقطوعاً ومحنطاً . معلقاً بين رأسى الثور والخرتيت على جدار غرفة ذلك الرجل الذى يطارده فى انتظار لحظة موته .

ولكى يوحى لنفسه بالاستهانة بالموت ، وجد رمزى نفسه مستهيناً بكل مافى الحياة . بدأ يفقد القدرة على التركيز ، ولم يعد يهتم بالعمل والخلق والابتكار والإبداع .

وفى أحد الأيام سمعته إلهام يعزف على البيانو عزفاً سيئاً مضطرباً لاتوافق فيه ولاانسجام ، أشفقت عليه من الهاوية التى يوشك أن يتردى فيها . نظرت لساعتها فوجدت عقاربها تشير نحو الخامسة والنصف تقريباً . فتعجبت.كيف ينسى رمزى موعد تسجيل إحدى أغانيه فى الاستديو؟ أسرعت إليه وقالت :

– رمزى .

فانتفض فى فزع وصاح فى غضب :

– ماذا تريدين منى؟ أنا لاأحب أن يزعجنى أحد فى أثناء العزف .

–ياحبيبى لم أقصد إزعاجك . لقد أتيت لأذكرك بموعد هام .

– وماهو هذا الموعد الهام؟

– الساعة الآن الخامسة والنصف ، أليس هذا موعد تسجيل الأغنية الجديدة بالاستديو؟

قال رمزى وكأنه طفل عنيد :

– لن أذهب للاستديو ولن أسجل شيئا . اتركينى وشأنى . أنا لم أعد أفكر إلافى الموت !

فزعت إلهام من هذه الأفكار السوداء التى أصبحت تسيطر عليه وقالت :

– ياحبيبى هذا غير معقول . ماذا حدث لك ؟ هل تسمح لرجل مجنون كهذا بأن يحطم حياتك ويقتل موهبتك ؟ أتوسل إليك ألاتعيره أى اهتمام . إنه هو الذى يرهق نفسه بمطاردتك فى كل مكان . هو الذى يشق ويتعب . دعه يلهث خلفك حتى تنقطع أنفاسه ، وأنا واثقة أنه لن يستطيع الاستمرار طويلا فى هذه المهزلة .

قال رمزى وهو شارد الذهن :

– لاأستطيع منع نفسى من التفكير فى هذا الرجل . إنه ينتظر موتى فى كل لحظة ليستولى على رأسى ! أصبحت أشعر أن رأسى غريب عنى !

طوقته إلهام بذراعها ومرت بيدها على رأسه وقبلته وقالت :

– أنت فنان عظيم ولذا فأنت شديد الحساسية . يجب أن تتجاهل هذا الرجل ولاتشعر بوجوده .

هوى رمزى بقبضة يده على مفاتيح البيانوفانبعثت نغمة حادة وكأنها صرخة وقال بانفعال :

– قلت لك إنه يذكرنى بالموت بشكل مستمر . إنه ينتظر موتى . هذا فوق احتمالى .

– ياحبيبى إن هدفه من كل ذلك هو استفزازك والتنغيص عليك وتحطيم حياتك . فإذا تجاهلته ولم تعبأ به فوتّ عليه غرضه الخبيث .

قام رمزى فى انتفاضة وعصبية وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً وحانت منه التفاتة نحو النافذة فتسمر فى مكانه وصاح قائلا :

– انظرى ! ها هو واقف بجوار سيارته والصندوق تحت إبطه .

قالت إلهام فى محاولة لتهدئة أعصابه الثائرة :

– وماذا يضيرنا لو ظل واقفاً طوال النهار والليل ؟ ولكن انظر . هاهو أحد رجال الشرطة يتحدث معه . لابد أن الشرطة قد اقتنعت أخيراً بضرورة القبض على ذلك المجنون .

قال رمزى وقد شعر بشىء من الارتياح :

– الحمدلله . أخيراً تحركت الشرطة . ولكن ما هذا ؟ انظرى . إنهما يضحكان معاً !

ليس هذا منظر شرطى جاء ليلقى القبض على مجنون ! إنه يمزح معه !

قالت إلهام محاولة تفسير هذا المشهد :

-كلا . غير معقول أن يقف رجل الشرطة ويتبادل النكات مع مثل هذا الرجل . لابد أنه يسخر منه أويضحك لمنظره !

قال رمزى وقد عاد اليأس يستبد به :

– ليس من المعقول أن يقف رجل الشرطة ليضحك من منظر رجل ينوى إلقاء القبض عليه !

– إذن لماذا يضحك رجل الشرطة ويبدو بهذا المرح ؟

وجد رمزى نفسه أمام لغز محير وقال :

– لم أعد قادراً على التفكير . أشعر كأن يداً تضغط على مخى . لم أعد أفهم شيئاً . إذا كان رجل الشرطة أتى لإلقاء القبض عليه فلماذا يقف معه ضاحكاً مبتسماً طوال هذه المدة ؟

قالت إلهام بذهن شارد :

– لست أدرى . فلننتظر لنرى ماذا سيحدث .

قال رمزى :

– انظرى هناك سيارة أخرى غير سيارة هذا الرجل . أليست هذه سيارة الشرطة ؟ هل تريها ؟ تلك التى بجوار الشجرة .

–نعم . إنها إحدى سيارات الشرطة . لقد فهمت الآن . .

– فهمت ماذا ؟

–يخيل إلى أن ذلك الرجل الواقف معه ليس من رجال الشرطة . ربما يكون

أحد أصدقائه أومعاونيه مرتديا رداء مزيفاً من أردية الشرطة . أما رجال الشرطة الحقيقيون فهم الجالسون فى سيارة الشرطة هذه ، ولاشك أنهم الآن يراقبونهما وسيلقون القبض عليهما !

قال رمزى وهو غير مقتنع بهذا التفسير الساذج :

– وماذا ينتظرون إذا كان فى نيتهم القبض عليهما ؟

– لست أدرى . لقد خطرت لى الآن فكرة . نركب السيارة معا ونذهب إلى مكان بعيدٍ . كازينو عمر الخيام مثلا ، ونرى ماذا سيحدث . .

– لامانع . هيا بنا .

جلست إلهام خلف عجلة القيادة ، فلقد كان يحلو لها أن تقود السيارة بنفسها عندما تخرج مع رمزى . إذ لاحظت أن السائق كان يلذ له أن يصغى إلى كل كلمة وكل حوار يدور بينهما . وبينما السيارة تهم بالمسير لاحظ رمزى شيئا فقال لإلهام :

– هل ترين ؟

قالت إلهام وقد ضغطت على الفرملة لإيقاف السيارة :

– أرى ماذا ؟

– جابر العجباني . لقد ركب فى سيارة الشرطة والصندوق تحت إبطه ، وركب معه عسكرى الشرطة الذى كان واقفا معه . أرأيت أن هذا العسكرى لم يكن مزيفا كما قلت وأنه عسكرى حقيقى ؟ !

قالت إلهام محاولة إخفاء القلق والاضطراب الذى استولى عليها !

– لاتعرهما أى اهتمام . .

وضغطت بقدمها على منظم البنزين فانطلقت السيارة ، واجتازت كوبرى

الزمالك ، ثم اتجهت إلى اليسار فى شارع النيل . نظرت فى مرآة السيارة فرأت سيارة الشرطة منطلقة خلف سيارتهما فأوقفت السيارة عند إحدى محطات البنزين بالقرب من ميدان الجيزة . لاحظت أن سيارة الشرطة توقفت أيضاً على بعد نحو ثلاثين متراً من سيارتهما . طلبت إلهام ملء مستودع السيارة بالبنزين ،واستأنفت السير متجهة نحو شارع الهرم ، فواصلت سيارة الشرطة الانطلاق خلفها !

فى منتصف شارع الهرم تقريبا ، أدارت إلهام عجلة قيادة السيارة إلى اليمين فاتجهت فى طريق جانبى بجوار إحدى الترع ، فتبعتهما سيارة الشرطة . أوقفت إلهام السيارة عند كازينو « عمر الخيام » الذى يبدو فى هذا المكان وفى ذلك الجو الريفى وكأنه واحة مزدهرة فى صحراء .

غادرت إلهام السيارة بصحبة رمزى واتجها إلى الكازينو ، فلاحظا أن سيارة الشرطة توقفت . رأى رمزى منضدة خالية فى ركن منعزل فى الكازينو فجلس هو وإلهام حول هذه المنضدة ، واكتشف الجرسون شخصيتهما فهرع إليهما ، طلبا منه غداء من الدجاج المشوى الذى يشتهر به هذا الكازينو .

التفت رمزى إلى اليمين فرأى جابر العجبانى جالساً واضعاً الصندوق فوق المنضدة التى أمامه وقد جلس بجواره العسكرى !

قال رمزى لإلهام بصوت مضطرب :

– انظرى إلى اليمين ، لقد جلسا معاً !

فأدارت إلهام رأسها إلى اليمين فرأتهما ورأت الصندوق . قالت لرمزى :

– وماذا يضيرنا ؟ لاشأن لنا بهما .

– أرأيتِ الصندوق ؟

– نعم رأيته . ولكن الشيء الذى يحيرنى هو وجود هذا العسكرى معه . يخيل إلى أن العسكرى يلازمه لحمايتك أنت . أنت فنان عظيم لك مكانتك فى المجتمع والدولة حريصة على حياتك وتخاف عليك من ذلك الرجل المجنون فأرسلت هذا العسكرى ليراقب حركات ذلك الرجل المعتوه لتمنعه من أن يلحق بك أى أذى .

– أعتقد ذلك .

وفى هذه اللحظة قام جابر العجبانى واتجه نحو دورة المياه وبقى العسكرى بمفرده ، فرأى رمزى أن ينتهز هذه الفرصة ويذهب إلى ذلك العسكرى ويسأله عن سر وجوده مع جابر .

قام واتجه نحو العسكرى . وفى هذه الأثناء كان كل من فى الكازينو قد اكتشفوا شخصيتى رمزى وإلهام . قالت فتاة لشاب يجلس معها :

– أليس هذا رمزى عبد الحميد ؟

قال الشاب :

– نعم . إنه هو .

– وتلك زوجته إلهام .

– نعم . هى إلهام . إنها رائعة الجمال . هذه أول مرة أراها شخصياً فى غير الأفلام .

– لم نشاهد فيلمها الجديد مع أنه يعرض منذ ستة أسابيع . نريد أن نشاهده

– فيلم « نريد الحياة » ؟ نشاهده غداً .

– فاتن صديقتى شاهدته وقالت إنه فيلم رائع .

جلس رمزى بجوار العسكرى ، فتعجب الشاب وقال للفتاة :

– غريبة . لماذا ترك رمزى زوجته إلهاما وذهب ليجلس بجوار هذا العسكرى ؟ !

قال رمزى للعسكرى :

– لاتؤاخذنى . أريد أن أستفهم عن شىء يهمنى .

قال العسكرى .

–أهلا وسهلا . تفضل استفهم عن أى شىء ياأستاذ رمزى . أنا تحت أمرك .

قال رمزى :

–لقد شاهدتك مع جابر العجبانى بجوار الكشك الذى أقامه بالقرب من منزلى ، وأراك الآن هنا معه ، ماالسر فى ذلك ؟ عندما رأيتك معه خيل إلىّ أنك جئت لإلقاء القبض عليه .

قال العسكرى فى دهشة وفزع :

– أنا ألقى القبض عليه ؟ ولماذا ؟ هل ارتكب جريمة ؟ !

قال رمزى :

لقد سبق لى أن اتصلت برجال الشرطة لتحمينى من هذا الرجل .

قال العسكرى وقد ازدادت دهشته :

– الشرطة تحميك أنت منه ؟ شىء عجيب !

– وما هو وجه العجب فى ذلك ؟

– العجيب أنه هو الذى طلب من الشرطة أن تحميه منك فاستجابوا لطلبه على الفور وأسرعوا بإرسالى لأكون بصحبته دائماً خوفاً عليه منك . وكلما ذهب إلى أى مكان يتحتم علىّ الذهاب معه . لقد أتعبنى وأرهقنى . إنها مهمة شاقة دوختنى . أنا

معه طوال النهار وأحد زملائى يلازمه فى أثناء الليل . لابد أن يساعدنى أحد الزملاء إذ لايمكننى أن أقوم بالمهمة وحدى ليلا ونهارا . الأوامر تحتم ألانتركه بمفرده لحظة واحدة . ولكن بينى وبينك لقد وجدته رجلا مسلياً ظريفاً . لديه معين لاينضب من القصص والنوادر . بدأت أسعد بصحبته واكتشفت أيضاً أنه رجل كريم . لايبخل بالمال !

قال رمزى غير مصدق لما تسمعه أذناه :

– هو الذى طلب من الشرطة أن تحميه منى ؟ !

قال العسكرى مبتسماً :

– إنه معذور ياأستاذ رمزى . يخشى أن تعتدى عليه أوتلحق به أى أذى .

– ولماذا أعتدى عليه ؟ إنه هو الذى قد يعتدى علىّ . هل تعلم لماذا يحمل معه دائماً هذا الصندوق ؟

قال العسكرى مبتسماً .

– أعرف طبعاً . إنه يحمل هذا الصندوق ليقطع رأسك ويضعه فيه . ولكن اطمئن ، لن يفعل ذلك إلابعد وفاتك . لقد حكمت له المحكمة ومنحته حق الاستيلاء على رأسك بعد وفاتك إن شاء الله تعالى ، لأنه سبق له أن اشترى رأسك ياأستاذ رمزى . هل فى هذا مايضيرك ؟ ليس فى هذا أى ضرر أوإزعاج لاسمح الله . الرجل يريد أن يستولى على أملاكه . . !

قال رمزى محاولا السيطرة على أعصابه التى أوشكت أن تفلت منه :

– أنت تعلم كل ذلك ياشاويش وتصحبه لتحميه منى ؟ !

قال العسكرى وهو يفتل شاربه الكث :

– إننى أساعده على تنفيذ حكم حكمت به المحكمة ، هل فى هذا شىء غريب ؟ افرض ياأستاذ رمزى ، وأرجو عدم المؤاخذة ، افرض وأنت جالس فى أى مكان ، أووأنت فى سيارتك أتاك القدر المحتوم وقبض عزرائيل روحك بغتة ، أليس من الضرورى فى هذه اللحظة أن يكون مع الأستاذ جابر أحد العساكر ليساعده على الحصول على أملاكه ؟ !

قال رمزى وكأنه يحدث نفسه :

– حتى الشرطة أصبحت تساعده على ذلك وتسهل له هذه المهمة ؟ !

قال العسكرى وقد انتفخت أوداجه :

– الشرطة فى خدمة الشعب ياأستاذ رمزى .

لم يلاحظ رمزى فى هذه الأثناء أن عيون جميع رواد الكازينو كانت متجهة نحوه دون أن يعلم أحد منهم ماكان يدور من حوار بينه وبين العسكرى . وأقبلت نحوه فتاة خجول تتعثر فى خطواتها وقدمت له « أوتوجرافا » قائلة :

–تسمح ياأستاذ رمزى تكتب لى أى شىء فى هذا « الأوتوجراف » لأعتز به مدى الحياة ؟

رأى رمزى فى هذه اللحظة جابرا قادماً نحو المنضدة فاختطف « الأوتوجراف » من الفتاة وألقى به على الأرض وقام غاضباً ، والفتاة المسكينة تنظر إليه فى دهشة وخيبة أمل .

عاد رمزى إلى إلهام وقص عليها مادار بينه وبين العسكرى من حوار ، فلم تتكلم ولكنها أخرجت من حقيبتها منديلا لتجفف به دموعاً انسابت من عينيها .

وقبل أن يحضر الجرسون ماطلباه من طعام قام رمزى فى عصبية ووضع على

المنضدة جنيهين وغادر المكان هو وزوجته .

جلست إلهام خلف عجلة القيادة وانطلقت السيارة نحو منزلها فى سرعة مفزعة وعربة الشرطة خلفها تسير بنفس السرعة .

طالت فترة الصمت بين رمزى وإلهام فى أثناء الطريق . لم يكن هناك مايقوله أحدهما للآخر واتجهت السيارة إلى اليسار بعد ميدان الجيزة وانطلقت فى شارع الجامعة ، وبالقرب من حديقة الحيوان قالت إلهام لرمزى :

– عربة الشرطة لاتزال تتبعنا .

– أعلم ذلك . كان جابر يطاردنى بمفرده ، والآن يطاردنى بمصاحبة الشرطة !

وبعد فترة صمت قالت إلهام :

– لم يكن هناك مايدعو لترك المكان قبل تناول الطعام .

– هذا الصندوق الذى كان موضوعاً على منضدة ذلك الرجل أراه وكأنه مقبرتى . كيف تطلبين منى تناول الطعام وأنا أرى مقبرتى أمامى ؟ !

قالت إلهام محاولة تهدئة أعصابه الثائرة :

– ليس قبراً . إنه صندوق خشبى فارغ ، لاأكثر ولاأقل .

قال رمزى فى غضب :

– ولكنه سيضم رأسى فى يوم من الأيام .

– ومن يدرينا أن ذلك الرجل الذى لايقل عمره الآن عن ستين عاما سيعيش ويمتد به الأجل حتى يحصل على رأسك ؟

– أعتقد أنه سيعيش طويلا . سأموت قبله .

ولماذا تعتقد ذلك ؟

هذا الرجل يعيش الآن واضعاً نصب عينيه هدفاً يصمم على الوصول إليه . ومن يضع أمامه هدفاً يسعى إليه يعش طويلا . لقد قرأت ذلك فى أحد الكتب . لن يموت هذا الرجل قبل أن يحصل على رأسى ؟

وأنت ، ألايوجد لديك هدف تسعى إليه ؟

– لقد حققت كل ماكنت أصبو إليه . لم يعد أمامى الآن أى هدف . لقد فقدت الحافز على الحياة .

– طريق الحياة أمامك لايزال طويلا ، ويجب أن تضع نصب عينيك هدفاً عظيماً تسعى للوصول إليه .

– لم أعد أفكر إلا فى الموت . الموت يطاردنى فى كل مكان .

– ومن من الناس لايطارده الموت ؟ الموت يجرى خلف جميع البشر . كل مافى الأمر أنك تراه ممثلا فى هذا الصندوق الخشبى وغيرك من الناس لايرونه وقد يكون أقرب إليهم من ذلك الصندوق .

– هنا تكمن المأساة . أنا أرى الموت وغيرى لايراه .

ووصلت السيارة إلى المنزل ، وفى أعقابها وصلت سيارة الشرطة وبداخلها جابر والعسكرى وتوقفت بجوار الكشك الذى أقامه جابر بالقرب من منزل رمزى .

غادر رمزى سيارته كما هبطت منها إلهام وتركا سيارتهما بجوار الإفريز أمام المنزل . وقبل أن يدخل رمزى منزله وقف ليلقى نظرة على عربة الشرطة فوجدجابرا يهبط منها والصندوق تحت إبطه وبقى العسكرى داخل السيارة واتجه جابر نحو الكشك فجلس أمامه ووضع الصندوق على فخذيه .

جلس رمزى فى بهو المنزل حزيناً مطرقاً للأرض وقد استند برأسه على كفيه ،

وجلست إلهام بجواره فى صمت . كانت فى هذه اللحظة تفكر فى وسيلة تنقذ بها زوجها الذى أشرف على الانهيار ، وأضاءت فى ذهنها فكرة فقالت لرمزى :

– لقد خطرت لى فكرة لست أدرى كيف كانت غائبة عنا . فكرة رائعة فيها خلاصنا من جميع هذه المتاعب .

التفت إليها رمزى وقد شعر كأنه غريق يصارع الأمواج ويحاول التشبث بأى خيط يلقى إليه وقال :

– وماهى هذه الفكرة التى كانت غائبة عنا ؟

– لماذا لانسافر إلى أى بلد من بلاد الدنيا بعيداً عن هذا الرجل المجنون ؟

– نسافر ؟ ! إلى أى بلد نسافر ؟ !

إلى لبنان مثلا ، أوإلى أوربا .

وهل نعتزل الفن ونعيش هناك مدى الحياة ؟ !

– كلا . نعود بعد شهر أوشهرين . وفى هذه الأثناء نرتاح من رؤية وجه ذلك الرجل وصندوقه فتهدأ أعصابك .

وعندما نعود ؟

– ربنا يفرجها . نحن لاندرى ماذا سيحدث فى خلال هذه المدة . قد يسأم ذلك الرجل الانتظار وتجرفه مشاغل الحياة فيتحول إلى اتجاه غير هذا الاتجاه .

فكرة لابأس بها . سأعد العدة للسفر على الفور . نسافر إلى لبنان دون أن يعلم أى إنسان سيكون سفرنا سراً لايعلمه أحد .

عندما انطلقت الطائرة بأقصى سرعتها فى مسارها على أرض المطار وبدأت عجلاتها ترتفع شعر رمزى فى هذه اللحظة براحة نفسية وكأنه عصفور انطلق من

القفص الذى كان حبيسا فيه وطار فى الفضاء الفسيح اللانهائى . لقد تحرر من الخوف والقلق الذى كان يستبد به طوال هذه الفترة القاسية من حياته .

وعندما كانت الطائرة تعلو وقد ارتفعت مقدمتها تشق طريقها بين الغمام قالت إلهام :

– أعصابك فى حاجة ماسة إلى راحة تامة ، فأرجوك ابتداء من هذه اللحظة أن تنسى كل ماله صلة بذلك الرجل وصندوقه .

كانت الطائرة قد ارتفعت الآن فوق السحاب ، فنظر رمزى من نافذتها وقال :

– بدأت أشعر بالراحة والطمأنينة والأمان ، وأسند رأسه على المقعد . لاحظت إلهام أن النوم قد بدأ يداعب جفونه فلزمت الصمت ، فهى تعلم جيدا أنه فى أشد الحاجة إلى نوم هادئ عميق بعد ليالى الأرق الطويلة التى عانى منها فى الفترة الأخيرة .

وبعد قليل رأته ينتفض ويفتح عينيه فى فزع فسألته فى لهفة :

– مالك ياحبيبى ؟

– رأيته فى الحلم ! رأيته يطاردنى فى زقاق ضيق مظلم والصندوق تحت إبطه وأنا أجرى منه وأصرخ مستغيثا ولامغيث . ثم وصلت إلى طريق مسدود ، فانقض على وفى يده سكين ليقطع رأسى ! واستيقظت من النوم !

قالت إلهام لتغير مجرى الحديث :

– تناول طعامك . لم أشأ أن أوقظك عندما أحضرته مضيفة الطائرة .

– ليتك أيقظتنى وأرحتنى من ذلك الكابوس .

انتهى من تناول طعامه دون أن يشعر بطعمه ، وذهب إلى دورة المياه بالطائرة .

وفى أثناء عودته رأى مشهداً جعله يتسمر فى مكانه ويعتريه الدوار . إذ على مقعد الطائرة الذى يقع خلف مقعده مباشرة وجد جابر العجبانى جالساً ينظر إليه مبتسماً وصندوقه على فخذيه وبجواره العسكرى !

فرجع إلى مكانه وهو يترنح كالسكران وجلس . نظرت إليه إلهام فى دهشة وقالت :

– مالك ؟ هل تشعر بتعب ؟

– انظرى خلفك .

ونظرت خلفها ، وما إن رأت جابر العجبانى حتى ترنحت وسقطت مغمى عليها . فأسرع إليها رمزى واحتضنها وهرعت إليها مضيفة الطائرة واتجهت نحوها عيون جميع المسافرين فى قلق وفزع . وبعد أن أفاقت انخرطت فى بكاء عنيف . نسى رمزى آلامه وأحزانه وانشغل بإلهام باذلا كل مافى وسعه ليجعلها تكف عن البكاء .

كان مقعد الطائرة يتسع لثلاثة من المسافرين ، وكان بجوار إلهام مقعد خال كما كان بجوار العسكرى مقعد آخر خال . ترك رمزى إلهاما وأخبرها أنه سيجلس بضع لحظات فى المقعد الخالى المجاور للعسكرى . وانتقل إلى ذلك المقعد . قال لجابر :

– ما الذى أتى بك إلى هنا ؟

ضحك جابر وقال :

– ألم أقل لك يا أستاذ رمزى إننى سأتبعك كظلك إلى أى مكان تذهب إليه ؟

– وكيف عرفت أننى سأسافر على هذه الطائرة ؟

– أخبرتنى الشرطة بذلك . أخبرونى أنك مسافر إلى لبنان على هذه الطائرة

وسهلوا لى جميع إجراءات السفر لأتمكن من السفر معك على نفس الطائرة !

وهنا نفخ العسكرى صدره وقال :

– الشرطة فى خدمة الشعب ياأستاذ . . هل تظن أن فى استطاعتك أن تفلت منا ؟ ألم يكن من الممكن أن يخرج منك السر الإلهى فى أية لحظة فى أثناء الرحلة ؟ والأعمار بيد الله ، كيف كان سيحصل الأستاذ جابر على أملاكه فى هذه الحالة ؟ لذا لابد أن نكون معك !

صاح رمزى فى غضب :

– غير معقول . غير معقول مطلقاً .

وانتفض واقفاً وذهب إلى مكانه بجوار إلهام فوجدها تجفف دموعها بمنديلها .

– لاداعى إذن للبقاء فى لبنان . فلنرجع إلى مصر فى أول طائرة . .

٢٨

لم يصدق خدم المنزل عيونهم عندما رأوا رمزى وإلهاما يدخلان بعد يوم واحد من سفرهما . فتحت زعفرانة فمها دهشة وانعقد لسانها عندما رأتهما ، فلقد كان من المقرر أن يغيبا عن المنزل شهراً على الأقل . وعندما دخل رمزى المنزل شعر باكتئاب شديد . لقد أصبح ذلك القصر الفاخر فى نظره وكأنه كوخ حقير منعزل يطل على مقبرة !

صعدت إلهام إلى الطابق العلوى بينما بقى رمزى وحده فى البهو ، وطلب من زعفرانة أن تعد له فنجاناً من القهوة . وبينما كان يحتسى القهوة دق جرس التليفون ، فقام والتقط السماعة فسمع صوت مخرج الفيلم الذى كان يستعد لإنتاجه :

—مساء الخير .

رد رمزى عليه بصوت مرتجف .

— مساء الخير . أهلا وسهلا .

– ماهى أخبار الألحان ياأستاذ رمزى ؟ كان المفروض أن نبدأ تسجيل الأغانى اليوم . ماذا حدث ؟

– أنا فى أشد حالات التعب والإرهاق . لا يمكننى تسجيل أية أغنية فى الوقت الحالى .

– غير معقول . سلامتك ياأستاذ رمزى . صحتك غالية علينا . . م تشكو ؟

– لست أدرى ماالذى حدث لى . فقدت القدرة على التركيز والتفكير .

– هل فحصك أحد الأطباء ؟

– فحصنى عدد من أعظم الأطباء ونصحونى بالراحة وعدم الإجهاد وكتبوا لى عدداً من المهدئات والمنومات . منذ فترة طويلة وأنا لاأنام إلا إذا تناولت الحبوب المنومة ، وعندما أستيقظ من النوم أكون فى منتهى التعب وأشعر كأننى لم أنم لحظة واحدة .

– يجب أن تعتنى بصحتك ياأستاذ رمزى . لايوجد سوى رمزى واحد فى البلد .

شعر رمزى برغبة فى البكاء ، فوضع سماعة التليفون وانخرط فى بكاء عنيف ، وعندما حضرت زعفرانة لتأخذ فنجان القهوة وجدت سيدها يبكى ، فانطلقت تعدو صاعدة درجات السلم وأخبرت إلهاما بذلك . فهرولت إلهام هابطة السلم . وجدت رمزى منكفئا على المنضدة وجسمه يرتعد . فجلست بجواره واحتضنته وشعرت بالدموع تنساب دافئة على خديها . بذلت كل مافى وسعها لتهدئته . وأخيراً اعتدل فى جلسته فجففت إلهام دموعه وصحبته إلى الطابق العلوى ، شعر رمزى فى أثناء صعوده السلم بأن كل خطوة يخطوها تؤلم رأسه .

ساعدته إلهام على خلع ملابسه وارتداء المنامة . وبينما هو متجه نحو الفراش لينام حانت منه التفاتة نحو النافذة فرأى جابر العجباني جالساً أمام الكشك الذى أقامه بالقرب من منزل رمزى وقد وضع الصندوق على فخذيه كعادته وبجواره العسكرى .

أخذ رمزى يترنح فى أنحاء الغرفة كالطائر المذبوح وأسرع نحو درج الكومودينو المجاور للسرير وأخرج مسدسه وصوبه نحو جابر العجباني صائحاً :

– سأقتله وأرتاح منه !

فأسرعت إلهام واختطفت المسدس من يده قائلة :

– هل تضحى بحياتك ومركزك وسمعتك من أجل كلب كهذا لايساوى قلامة ظفرك ؟

ارتمى رمزى على حافة السرير وعيناه ناظرتان نحو النافذة . فأسرعت إلهام بإغلاقها وجلست بجواره وهى ترتعد والمسدس لايزال فى يدها .

بعد حوالى نصف ساعة استعاد رمزى هدوءه واستلقى على الفراش خائر القوى . جلست إلهام بجواره ووضعت يدها على جبهته فالتفت إليها قائلا :

– لم أعد قادراً على الحياة فى هذا المنزل .

– نبحث عن منزل آخر إذا كان فى هذا راحتك .

– توجد فيلا مفروشة للإيجار بشارع الهرم .

– ننتقل إليها .

– ولكن ماالفائدة ؟ سيتبعنا أينما ذهبنا . . ومعه الصندوق .

– لماذا لانقيم فى أحد الفنادق فترة من الزمن ؟ لن تكون لديه الفرصة

لمطاردتك فى الفندق .

– فكرة لابأس بها .

وهرول نحو التليفون وطلب حجز جناح فى أحد الفنادق الفاخرة المطلة على النيل ، وعاد إلى إلهام وقد شعر ببعض الاطمئنان وقال :

– سنبيت الليلة فى الفندق . أخبرى مديرة المنزل أننا سنغيب عن البيت شهرا ولاأحب أن يعرف أحد مكاننا .

كان الجناح الذى حجزه رمزى فى الفندق يطل على النيل . وقفت إلهام تطل على المنظر الساحر الذى يبدو من خلال النافذة والتفتت إلى رمزى وقالت :

– لاأعتقد أن فى استطاعة ذلك الرجل مطاردتنا فى هذا المكان . من المستحيل أن يصل إلينا هنا . لايوجد هنا مكان يضع فيه الكشك ولم ألاحظ أنه تنبه لخروجنا من المنزل . لم تتبعنا سيارة الشرطة فى هذه المرة . لقد استرحنا من وجهه القبيح .

– أتعشم ذلك .

فى هذه الليلة شعر رمزى برغبة فى النوم فأوى إلى فراشه فى نحو العاشرة مساء . كانت الغرفة تضم سريرين ، أحدهما بجوار النافذة والثانى فى الجانب الآخر من الغرفة . نام رمزى على السرير المجاور للنافذة وترك السرير الآخر لزوجته .

بعد فترة قصيرة كان قد استسلم لنوم عميق لم يسعد بمثله منذ فترة طويلة ، فتركته إلهام نائماً وجلست فى غرفة الصالون بالجناح تقرأ إحدى المجلات .

وبعد نحو ساعة سمعته يصرخ بأعلى صوته قائلا :

– الحقينى ياإلهام الحقينى .

ألقت إلهام المجلة على الأرض وهرعت إليه وقد استبد بها الفزع ، فوجدته

جالساً فى الفراش يلهث . سألته فى لهفة وهى ترتعد :

– ماذا حدث ؟

– الحمد لله ، كان حلماً . كنت أظنه حقيقة .

– ماذا رأيت فى هذا الحلم ؟

– نفس الحلم الذى رأيته فى الطائرة . رأيته يطاردنى فى مكان مظلم والصندوق تحت إبطه وفى يده سكين يريد أن يقطع بها رأسى . ظللت أجرى فى خوف شديد لأعثر على مكان أختبئ فيه . وأخيراً عثرت على منزل مهجور متهدم فلجأت إليه وإذا به يكتشف مكانى ويطاردنى فى ذلك البيت .

– كابوس مريع . إن مارأيته فى الحلم ياحبيبى انعكاس لأفكارك . إنك دائم التفكير فى هذا الرجل.حاول ألاتفكر فيه . اطرده من ذهنك ولاتعره أدنى اهتمام .

قال رمزى فى يأس :

– كيف أمنع نفسى من التفكير فيه ؟ إننى أفكر فيه على الرغم منى . لقد تعبت . أنا مريض ، لقد أصبح يطاردنى حتى فى أحلامى .

فى الصباح ، استيقظ رمزى فى نحو العاشرة . شعر برغبة فى الذهاب إلى الاستديو لتسجيل إحدى أغانى الفيلم الجديد ، فتناول إفطاره هو وزوجته فى غرفتهما . وبينما هما يغادران جناحهما فى الفندق إذا بذلك الرجل ، جابر العجبانى واقفاً عند باب الجناح والصندوق تحت إبطه والعسكرى بجواره !

وقف رمزى ناظراً إليهما مشدوهاً فسحبته إلهام من ذراعه فى صمت واتجها نحو المصعد وإذا بجابر والعسكرى يتبعانهما ويقفان معهما فى انتظار المصعد . ووصل المصعد ولم يكن به سوى الصبى الذى فتح الباب وخرج فى انتظار دخول

المنتظرين . دخلت إلهام ثم رمزى وفى أثرهما جابر والعسكرى . وهبط المصعد بهم . وعندما وصل إلى الطابق الأرضى فتح الصبى الباب وخرج رمزى وإلهام واتجها إلى سيارتهما دون أن يلتفتا خلفهما . جلست إلهام خلف عجلة القيادة وبجوارها رمزى وانطلقت بهما السيارة نحو الاستديو بشارع الهرم .

نظرت إلهام إلى مرآة السيارة فوجدت سيارة الشرطة تنطلق خلفهما . قالت لرمزى :

– سيارة الشرطة تتبعنا وبداخلها جابر والعسكرى .

طلب منها رمزى أن توقف السيارة فاستجابت لطلبه وأوقفتها ، فتوقفت على الفور سيارة الشرطة .

قال رمزى لإلهام :

– ارجعى للمنزل .

قالت فى دهشة :

– والأغنية ؟ ألاتسجلها اليوم فى الاستديو ؟

– لن أسجل شيئاً . ارجعينى للمنزل .

استدارت السيارة واتجهت فى الاتجاه المضاد منطلقة نحو المنزل ، فاستدارت سيارة الشرطة وسارت خلفها فى نفس الاتجاه .

عندما دخل رمزى منزله شعر برغبة لاسلطان له عليها تدفعه لأن يحطم أى شىء . فأمسك بإحدى الزهريات الفاخرة وقذف بها إلى الأرض فتحطمت وتناثرت أجزاؤها ولم يدر لماذا فعل ذلك !

٢٩

فى الصباح استيقظت إلهام وكان رمزى لايزال نائماً بسبب الحبوب المنومة التى ابتلعها فى الليلة السابقة ، فلم تشأ إلهام أن توقظه وغادرت الغرفة وهبطت إلى البهو .

صحا رمزى من نومه فى نحو الثانية عشرة ظهراً ، فقام متكاسلاً وفتح نافذة الغرفة فإذا به أمام مشهد جعله يفتح فمه مشدوها . رأى جابر العجبانى واقفا يطل مبتسما من نافذة إحدى غرف العمارة المقابلة لمنزل رمزى وفى نفس مستوى غرفة نومه وقد وضع الصندوق على حافة النافذة وبجواره العسكرى منهمك فى فتل شاربه !

أسرع رمزى بإغلاق النافذة بحركة شبيهة بالحركة الانعكاسية التى يفعلها الإنسان بدون تفكير عندما يثنى يده فى مثل لمح البصر عندما تلسعها النار أوتلدغها عقرب . وشعر كأن رأسه قد كبر حجمه وازداد وزنه وأصبح عنقه لايقوى على حمله . فسار مرنحا وهبط السلم وهو يكاد يسقط إعياء . وما إن رأته إلهام وهو على هذه الحال حتى هرعت إليه شاحبة الوجه ، وقبل أن تصل إليه سقط على الأرض .

صرخت إلهام وارتمت عليه وضمته لصدرها ، وأقبل جميع الخدم مهرولين

فوجدوا رب البيت فى حالة إغماء . وضعت إلهام رأسه على فخذيها وصاحت :

– اطلبى الدكتور يازعفرانة .

فأسرعت زعفرانة إلى التليفون وطلبت الطبيب . وقبل أن يصل الطبيب كان رمزى قد أفاق من إغمائه ، وظل محملقاً فى وجه إلهام وكأنه يراها لأول مرة ، ثم قال :

– أين أنا ؟ أين الصندوق ؟ !

وقام وأخذ يدور فى أنحاء البهو وإلهام حائرة لاتدرى ماذا تفعل . ثم صاح فجأة قائلا :

– الصندوق فى النافذة أمام نافذة غرفة نومى . الرجل هناك فى النافذة . سأكسر رأسه ، سأضربه بالرصاص . لم أحتمل منظر الصندوق . لاأريد أن أعيش . أريد أن أموت . أريد أن أموت .

فلم تفهم إلهام شيئاً وظنته يهذى فأجهشت بالبكاء وصاحت :

– لماذا لم يأت الدكتور ؟ لماذا لم يحضر ؟

قالت زعفرانة بصوت متهدج مرتعش :

– طلبته بالتليفون ياسيدتى وقال إنه سيحضر فى الحال .

واستمر رمزى يصيح :

– رأيته فى النافذة ومعه الصندوق . النافذة التى تطل على غرفتى .

فأدركت إلهام أن زوجها ربما يكون قد رأى شيئاً مفزعاً من خلال نافذة من نوافذ المنزل المطل على منزلهم . فأسرعت إلى حجرة النوم فى الطابق العلوى وفتحت النافذة فرأت ذلك الرجل لايزال واقفاً يطل من النافذة المقابلة لنافذة غرفة النوم

واضعاً الصندوق على حافة النافذة وبجواره العسكرى ، ففهمت كل شىء .

هبطت السلم مسرعة وطلبت من أحد الخدم أن يذهب إلى بواب العمارة ويستفهم عن سر وجود جابر والعسكرى فى ذلك المنزل .

ذهب الخادم وعاد ليقول إن البواب أخبره أن جابر العجبانى قد استأجر الشقة المطلة على منزلهم ودفع مبلغاً طائلاً للحصول عليها !

فى هذه اللحظة دق جرس الباب . فهرولت زعفرانة وفتحت الباب ودخل الطبيب ، كان رمزى لايزال واقفا يدور فى أنحاء البهو ، ولما رأى الطبيب صاح :

– ماذا تريد منى ؟ اغرب عن وجهى . اتركنى وشأنى . أنا لاأريد أن أرى أحداً .

ثم هوى بجسده فوق أحد المقاعد مطرقاً للأرض وممسكاً رأسه بيديه . ثم بدأ يرتعد ، فقال له الطبيب :

- جئت لعلاجك ياأستاذ رمزى :

صاح رمزى بأعلى صوته :

– لقد فحصتنى مائة مرة ولم تفلح فى علاجى . لايوجد لديك سوى الحبوب المنومة . الحبوب المنومة ستقتلنى . لن يقدر على علاجى أحد .

طلب الطبيب كوب ماء وملعقة وملأ الملعقة بسائل صبه من زجاجة كانت فى حقيبته وقدم لرمزى الكوب طالبا منه أن يشرب مافيها ، فأخذ رمزى الكوب وأفرغ محتوياته فى معدته قائلا :

–لقد كنت ظمآن .

ثم سحبه الطبيب من ذراعه وصعد معه السلم ، وسبقتهما إلهام إلى غرفة النوم

وأقفلت نافذتها . طلب الطبيب من رمزى أن يستريح فى الفراش وقام بفحصه فحصاً دقيقاً . وبعد لحظات كان رمزى فى سبات عميق .

سألت إلهام الطبيب بلهفة :

– ماذا به يادكتور ؟

– انهيار عصبى . وأهم مايلزمه الآن النوم . لابد أن ينام ثمانى ساعات على الأقل كل يوم .

وكتب قائمة من العقاقير ليتناولها رمزى وقال :

– إذا حدث مايستوجب استدعائى فأرجو الاتصال بى فورا .

فى اليوم التالى استيقظ رمزى فى منتصف النهار تقريبا . كانت إلهام جالسة على كرسى بالقرب من سريره . نظر رمزى إلى النافذة فوجدها مغلقة . قال لإلهام :

– أنا لن أبقى فى هذا المنزل بعد اليوم . سننتقل إلى الفيلا المفروشة التى فى شارع الهرم . سننتقل إليها فى الحال .

قالت إلهام :

– افعل ماتريد ياحبيبى . أنا لاتهمنى سوى راحتك .

٣٠

انتقل رمزى وإلهام وجميع الخدم إلى المسكن الجديد بشارع الهرم . كان ذلك المنزل من طابقين وتحيط به حديقة رائعة . وكانت غرفة النوم بالطابق العلوى تطل على الجانب الخلفى من الحديقة .

فى أول ليلة فى هذا المنزل أوى رمزى إلى فراشه مبكراً بفضل العقاقير المهدئة والمنومة التى تناولها . ولكنه استيقظ مبكراً فى نحو الثالثة صباحاً ، وحاول النوم بعد ذلك فلم يستطع فقام من فراشه وهبط السلم . كان الظلام يغمر البهو فى تلك الساعة المبكرة من الصباح ، فضغط رمزى على زر الإضاءة فغمر الضوء البهو . وفى هذه اللحظة صرخ صرخة رعب ، فلقد رأى جابر العجبانى جالساً فى البهو وبجواره الصندوق ، والعسكرى جالس بالقرب منه !

استيقظت إلهام من نومها على صرخة رمزى وانتفضت واقفة فى فزع ، كما صحا جميع الخدم ، هرع الجميع إلى البهو فوجدوا جابرا لايزال جالساً فى مكانه وكأن الأمر لايعنيه ، وقد وقف بجواره العسكرى مصوباً مسدسه نحو إلهام والخدم ويده

على الزناد ، ورمزى يدور فى أنحاء البهو صارخاً فى رعب شديد . فتح السفرجى نافذة البهو وصاح بأعلى صوته :

– الحقونا . الحقونا ياناس . حرامى . . حرامى . . الحقونا . .

ولكن صراخه ذاب فى الفضاء ولم يسمعه أحد . وهجم الطباخ والسفرجى وأحد الخدم على جابر محاولين الفتك به ، فتصدى لهم العسكرى مصوباً مسدسه نحوهم صائحاً :

– حذار أن يقترب منه أحد .

وأقبلت إلهام نحو رمزى فى لهفة ، فأجفل منها وابتعد عنها . فاقتربت منه ووضعت يدها على رأسه فى حنان ولكنه ألقى بيدها بعيداً عنه صائحاً :

– لا . ابعدى يدك عن رأسى . . ماذا تريدين منى ؟ !

قالت إلهام وهى ترتجف :

– أنا إلهام ، زوجتك .

فأخذ رمزى يحدق فى وجه إلهام ولكنه لم يره كما اعتاد أن يراه وجهاً رائع الجمال . رآه فى هذه المرة وكأنه مصنوع من الشمع ، وأن هذا الشمع قد بدأ ينصهر ، فيرى الأنف يستطيل ويعوج والفم يتهدل والعينين يغيب عنهما السواد ، ثم تهبط إحدى العينين وتصبح فى مستوى الفم . فصاح فى رعب .

– ابعدى عنى . . منظرك يفزعنى ! !

فأجهشت إلهام بالبكاء . وكان العسكرى فى هذه الأثناء لايزال واقفاً متحفزاً ومسدسه فى يده يصوبه لكل من تحدثه نفسه ، بالاقتراب من جابر الذى ظل جالساً فى مكانه مبتسماً وكأنه يشاهد فيلماً سينمائياً !

اختفت إلهام داخل المنزل مهرولة وعادت ومعها كوب ماء أضافت إليه بعض العقاقير وقالت لرمزى وهى لاتزال ترتجف :

خذ ياحبيبى اشرب هذا الماء .

فلطمها رمزى على يدها لطمة قوية أطاحت بالكوب وصاح :

- أنت تريدين قتلى ! تضعين لى السم فى الماء . ابعدى عنى . . ابعدوا عنى جميعا . لن أترك رأسى لأحد . رأسى ملكى أنا . رأسى لن يأخذه منى أحد .

ثم أمسك رأسه بكلتا يديه وأخذ يدور فى أنحاء البهو صائحا :

- لن أترك رأسى من يدى . سأظل ممسكاً به . لن يأخذه منى أحد .

ثم انفجر باكياً بكاء عنيفاً ، وتحول البكاء إلى ضحكات هستيرية . ونظر إلى من فى البهو فرآهم جميعا وكأنهم تماثيل من الشمع الذى أخذ ينصهر . وجوه غريبة ممسوخة مشوهة ، عيونها وآذانها وأنوفها فى غير موضعها . وعاد يبكى من جديد ثم يضحك .

ظل جابر العجبانى فى أثناء كل هذا جالساً فى مكانه واضعاً الصندوق على فخذيه والعسكرى خلفه ومسدسه فى يده يصوبه إلى كل من يحاول الاقتراب من جابر .

وسقطت إلهام مغمى عليها فأسرع إليها الخدم محاولين إفاقتها . واستمر رمزى يهذى باكيا ثم ضاحكاً ، ثم يختلط ضحكه ببكائه .

نظر جابر إلى العسكرى وقال :

- انتهى الأمر وأسدل الستار . لقد فقد عقله . مسكين لم يعد له رأس . لقد انتصرت عليه .

وقف جابر والصندوق بين يديه والعسكرى واقف بجواره والمسدس لايزال فى يده وأصبعه على الزناد ليحمى جابرا من أى اعتداء ، ثم ألقى جابر الصندوق على الأرض قائلا :

– لم أعد فى حاجة لهذا الصندوق . لم يعد لرمزى رأس . مافائدة رأس بلا عقل . رأسه الآن لم يعد يساوى مليماً واحداً . لقد أفقدته رأسه . لقد انتصرت عليه . لم يستطع أحد أن يحميه منى . لم يستطع أحد أن يحميه منى .

وغادر جابر المنزل وخلفه العسكرى يسير بظهره نحو الباب ومسدسه مصوب نحو أهل المنزل .

وخرجا من باب المنزل ، وأقفل العسكرى الباب خلفه . وعندما رأى رمزى الصندوق ملقى على أرض البهو صاح :

– الصندوق يجرى خلفى . . الصندوق يجرى خلفى . .

واستمر يضحك ويبكى . وإلهام مازالت ملقاة على الأرض فى غيبوبة وزعفرانة تبكى وتولول ، وباقى الخدم حائرون لايدرون ماذا يفعلون ! !

انتهت

رقم الإيداع	١٩٧٩/٤٣١٥
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ - ٢٤٧ - ٨١٠ - ٢

١/٧٨/٤٨١

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)